ميشال زيفاكو

رواية

عشاق فينيسيا



Bibliotheca Alexandrina
0147019

عشاق فينيسيا

ميشال زيفاكو

رواية
عشّاق فينيسيا

ترجمة
طانيوس عبدو

الجزء الثاني

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
« لدار الجيل »

بيروت ـ لبنان

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠
Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

٣٨

التقاء وحشين

خرج ساندريجو من قصر امباريا وهو يكاد يطير سروراً فبرح فينيسيا لفوره وسار في طريق مغاور بيافا فوصل في الساعة التاسعة الى قرية تريفيزا ودخل أحد بيوتها ولقي فيه اثني عشر رجلا مجتمعين .

وكانوا مضطجعين على الارض حول مستوقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شك فانهم حين دخول ساندريجو وقفوا جميعهم إكراماً له فانه بعد عناء اربعة اشهر لم يستطع ان يجمع غير هـذا العدد القليل من رجـال عصابته القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كان مركزها العام بخمارة مرسي الذهب كما رأيناه .

فتفقد ساندريجو رجاله وقد ظهرت عليه علائم الرضى فقال :

— لقد اجتمعتم كلكم هنا فكم يبلغ عددهم هناك ؟

فأجابه أحدهم وكان نائبه في غيابه قائلا :

— انهم ستة فقط اربعة عند باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن .

قال : إذن لا بد لنا من الفوز ولكن يجب ان نفاجئهم مسرعين .

قال : نعم فان سكالابرينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى ان يعود .

قال : لا تخافوا سكالابرينو بعد الآن فقد سددت معه حسابي القديم ولا تنسوا ما وعدتكم به فان الكنز في المغارة فيجب ان تبحثوا عنه فيها حتى تجدوه ومتى ظفرتم به يكون النصف لكم .

فاتقدت عيونهم ببارق من السرور ومشى أمامهم وهو يقول :

– إذن هلموا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كل منهم في جهة حسب الأوامر التي تلقاها وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء حتى إذا وصل الى قيد ألف خطوة منها اختبأ وراء الادغال واقام ينتظر .

وبعد ساعة سمع صفيراً فقال : لقد قضي الأمر وأسرع الى المغارة فدخل اليها فوجد اربعة رجال مقيدين . فقال له نائبه :

– لقد كانوا ستة فاضطررنا الى قتل اثنين .

فأظهر ساندريجو إشارة تدل على عدم الاكتراث ثم نظر الى الأسرى وقال : فكوا قيودهم .

ففكوا قيودهم وعند ذلك دنا ساندريجو منهم فقال لهم :

– لقد كنتم من رجال عصابتي فثرتم عليّ وخضعتم لرجل لم يكن في شيء منا بل لا يمكن ان يكون .

وأنا قادم من فينيسيا حيث لقيت فيها بعض كبار اهل المناصب وعرفت منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جـــاء الينا ليلقي بذور الشقاق بين عصاباتنا .

أتعلمون من هو هذا الرجل الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟

إنه احد عمـــال مجلس العشرة وخطته بسيطة واضحة وهو انـــه يحمل عصابات الجبل على الثقة به ثم يـــأتي بهم الى فينيسيا وهناك يقبض عليهم جميعاً مرة واحدة .

فصاح به احد الأسرى قائلاً : لقد كذبت .

فأخذ ساندريجو غدارته فوضعها على صدغ الأسير وقال له :

– أأنت واثق من اني كذبت ؟

قال : نعم انك من الكاذبين .

فأطلق ساندريجو الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات شهيداً وفاء لرولاند .

أما ساندريجو فلم يكترث لما فعل وعاد الى مخاطبة الاسرى فقال :

– أتريدون ان تكونوا معنا ، أتريدون ان تذهبوا الى رفاقكم المتشردين في الجبال فتخبروهم بمـــا قلته لكم وتظهروا اليهم ذلك الخطر العظيم الذي يتهددهم وإذا كنتم حقيقة من اللصوص فـلا بـد لكم ان تقتلوا وان تنقذوا اخوانكم أمـــا أنا فاني أنسى الماضي واجعل لكم حظاً من هذا الكنز الموجود هنا .

فقال احدهم : اني اقبل .

وقال الثاني : اني رضيت .

وسكت الثالث ، فقال له ساندريجو : ما بالك لا تجيب ألعلك تريد ان تقتفي أثر هذا القتيل ؟

قال : نعم فاني أؤثر كل موت على الخيانة ، فما انت إلا من الكاذبين فاضرب يا سان . . .

وقبل ان يتم لفظ اسمه سقط قتيلاً فأدار رفيقاه رأسيهما كي لا يريا هذا المنظر فقال لهما :

– لقد اصبحتما الآن منا ونسيت كل ما مضى منكما ، ثم ذهب الى نائبه وهمس في أذنه قائلاً :

– يجب ان تبـــالغ في مراقبتهما واذا خفت منهما الخيانة فاحذر ان تكون رحيماً .

وبعد ذلك نظر الى الجميع وقال : إبدأوا الآن التفتيش عن الكنز .

فصاح الجميع صيـاح الفرح وتواروا عن الانظار في تلك المغارة المظلمة الكثيرة الشعاب .

أمـا ساندريجو فانه ذهب الى المغارة وبيده مشعل فوصل الى باب محكم الإقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً،فقال في نفسه:أيكون قد مات؟

ثم فتح ذلك الباب بالمفاتيح التي أخذها من الأسرى ودخل الى ذلك السجن فرأى في أحد زواياه رجـلا متربعاً وقـد تمزقت ملابسه ورق ونحل حتى ذهب لحمه ولم يبق فيه من دلائل الحياة غير بريق عينيه .

وكان هذا الرجل بببو .

فلما رأى الكردينال ذلك الرجل داخـلا عليه يحمل مشعـلا بيده وفي منطقته ذلك الخنجر المصبوغ بالدمـــاء تراجع زاحفاً منذعراً حتى التصق بالجدار وهو يقول :

— انك قادم لقتلي كما أرى فان رولاند كانديانو الذي انتزع الرفق من قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد ان يتهمه بقتلي .

فقال له ساندريجو ، اطمئن .

ولكن بببو لم يسمع هذه الكلمة وقال بلهجة المنذعر .

ألم اكفر بعد عن ذنبي نعم ان ذنبي كان عظيما والآن وازنت بين شقائي وبين ما حملت رولاند من الشقاء فعلمت مقدار اساءتي اليه .

ولكن لكل شيء حداً حتى العقاب فقل لرولاند الذي هو رجـل مثل العقاب الأكبر بيد الله لا بيـده فان الله المنتقم الجبار يغفر أيضا لمن يثوب ويندم ندامةصادقة وأنا تائب نادم فاني اقضي جميع اوقاتي بالصلاة والاستغفار ولكن لا يسمعني احد .

وقد جعل الكردينال عند ذلك يقرع جبهته بالارض ويلتمس ويستغفر .

فنظر اليه ساندريجو نظرة ازدراء وقال في نفسه .

ويح للرجال كم يغيرهم الشقاء فقد كان هذا الرجل يخافه الناس وكان لا

ضمير له ولا ذمة ولا رحمة ولا قلب فاصبح عند الشقاء جزوعاً ضعيفاً يشبه الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث بامه .

ووالله اني لم اتعهد لفوسكاري باحضاره اليه لتركته يموت في هذا السجن فانه لا يستحق الحياة .

ثم قال له :

— انهض يا حضرة الكردينال فانك من امراء الكنيسة ويجب ان نركع امامك لا تركع أمامنا فانت الان حر طليق .

فلبث بمبو جاثياً وقال :

— انا حر طليق !

قال ، ألم اقل لك ذلك فانهض فانت حر ان تخرج من هنا وان تعود الى فينيسيا والى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر الدوج الذي ينتظرك .

أأنا حر .. اذن لقد عفا عني رولاند .. اذن لم يخطىء ظني فيـــه فهو الرجل الطيب الكريم الاخلاق الذي اسأل الله ان يباركه عني .

وقد سالت الدموع الغزيرة من عينيه وحاول ان يقف لكنه سقط فقال :

— رباه الا يكون مراده تعذيبي بالرجاء الكاذب بعد اليأس كما عذبته انا حين زرته في السجن .

فانهضه ساريجو وهزه هزاً عنيفاً وقال :

— لا شك انك قد فقدت صوابك والا فما معنى هذا الهلع بعد ان قلت لك انك حر وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعو له هـذا بل انا الذي انقذتك فتعال معي .

وعند ذلك حدق جداً الى خارج المغارة بينما كان اللصوص يشتغلون بنقب جدرانها باحثين عن الكنز .

فلما تنشق الكردينال الهواء النقي هواء الجبال ورأى النجوم تتقد في السماء وقف هنيهة وهو مندهش مأخوذ .

فأجلسه ساندريجو على حجر وسقاه كأساً من الخمر فشربها جرعة واحدة وهدأت افكاره بعد ان كان مصاباً بما يشبه الذهول فنظر الى مـا حواليه وبدأ ان يعلم ما مضى فقال لساندريجو .

من انت اذكر لي أسمك يا منقذي كي اردده في صلواتي ما حييت .

فأجابه ساندريجو قائلا :

— اني ادعى ساندريجو .

— نعم من قواد الجندرمة في فينيسيا .

— ألعلهم ارسلوك لانقاذي ؟

— كلا بل ارسلت نفسي واذا كنت انقذك فلأن انقاذك يروق لي .

— اني اباركك كيف كان قصدك .

وقد أخذت عند ذلك يد ساندريجو بين يديه فضغط عليها اشارة الى امتنانه ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير واثق من انه بات حراً طليقاً .

ولقد طال طوافه بضع ساعات بحيث انه لم يعد الى المغارة الا حـــين طلوع الشمس .

وقد فكر ملياً اثناء طوافه واطمأن باله حتى عادت اليه سكينته ودهاؤه وتعبه .

فلما رآه ساندريجو قال له ، اني اؤثر ان اراك كما انت الآن على ما كنت عليه .

قال ، هل تتبعني ؟

— واية فائدة لي من ان اتبعك فقد كنت واثقاً انك ستعود .

— اذن أنا حقيقة حر .

— أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

— هو ذاك فالى اين تريد الذهاب بي ؟

ـ الى فينيسيا حيث ينتظرونك .

ـ من الذي ينتظرني ؟

ـ الدوج فوسكاري كما قلت لك .

حسناً فلنذهب في الحال .

ـ بل يجب ان تأكل كي تتقوى ثم تغير ملابسك الا ترى انهـا بانت رقعاً بالية ؟

وقد دله عند ذلك ساندريجو على قاعة في المغارة كان فيها مائدة عليها طعام وشراب وهناك ثوب تام من ملابس الفرسان .

فبدأ الكردينال يلبس الثوب ثم اكل وشرب وخرج الاثنان من المغارة فركبا جوادين وهما بالرحيل .

وقبل ان يرحلا نادى ساندريجو احد اللصوص فقال له :

ـ ألم تعثروا على شيء ؟

قال ، كلا

قال ، عودوا الى البحث عن الكنز فاني واثق من وجوده في هذهالمغارة

فهز اللص رأسه اشارة الى يأسه من لقائه .

قال ، لا بد ان تجدوه لو نسفتم الجبال .

ثم اطلق لجواده العنان واقتـدى به الكردينال فاجتازا قرية ترفيزا وسارا في طريق تريفيزا كي يذهبا منها الى مستر ومن هنـاك الى بحيرات فينيسيا .

وقد بدأ الكردينال الحديث معه فقال له :

ـ اني أعيد عليك ما قلته وهو اني ممتن الك الى الأبد .

قال ، اني اقبل امتنانك الابدي على اعتقادي بانه لا يوجد شيء ابدي في هذا الوجود حق ولا امتنان كردينال .

فلم يجبه الكردينال على تهكمه وقال له :

لقد قلت لي حين انقذتني في الليل اقوالا لا اذكرها لاضطرابي في ذلك الحين ولكني لا أزال اذكر اني سمعت منك اسم رولاند .

— نعم فقد سألتني اذا كان هو الذي صفح عنك .

فاتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال :

— ألعل هذا الرجل من اصحابك ؟

قال ، ان صداقته لي تشبه صداقة العاصفة للنوتي وصداقة النمر الوعل نعم اني أكره هذا الرجل بملء جوارجي ولولا يقيني انك تكرهه أشد ما أكرهه لما انقذتك ولتركتك تموت في سجنك اقول هذا وأنا أرجو ان تعذرني لحريتي .

— قل ما تشاء فاني ما سررت بحياتي بمثل ما اسمعه الآن منك .

— اذا كان ذلك فلنتكلم بجلاء فاعلم اذن انك غير مدين لي بشيء وذلك اني لم انقذك لفائدتك بل لفائدتي اذ ارجو ان تكون لي اشد سلاح على مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال، اني ضربته ضربات شديدة ولكني ارجو باعتمادي عليك ان اضربه الضربة القاضية .

— اعتمد علي ولكن يجب ان اعرف هذا الحليف الذي تعاهدت واياه على الهجوم وقد عرفت من انا في حين اني لم اعرف من انت .

لقد قلت لك اني قائد في الجندرمة تحت إمرة التياري القائــــد العام ولكني لم انل هذا المنصب الا من عهد قريب فقد كنت قبله من اللصوص .

فنظر اليه الكردينال نظرة انكار فأجابه على نظرته قائلاً :

— إذن ذلك يدهشك دون شك ولكنك حين تصل الى فينيسيا تعلم عني أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة .

— من هو ؟

— هو الدوج فوسكاري .

ــ حسناً فسأصبر الى ان أراه فأقول لك ما أريده منك والآن قل لي ما تريده مني .

فأطرق ساندريجو هنيهة مفكراً وقال :

اني اطلب اليه قضاء امرين احدهما ان تعينني بكل قوتك على رولاند كانديانو .

ــ لقد اتفقنا على هذا الطلب فما هو الثاني .

ــ ان طلبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكردينال فقد كنت لصاً قبل ان أكون قائد ولكن اللصوص يحبون كما يظهر كسائر الناس وقد احببت فتاة .

ــ أتريد ان أساعدك على رضى اهلها بزواجك ؟

ــ كلا فاني لا أعتمد على أحد في مثل هذا الشأن .

ــ اذن ماذا تريد ؟

ــ لقد كنت بالأمس لصاً واصبحت اليوم قائداً فاريد ان يكون لي مقام بين العائلات الايطالية ولاسيا لامرأتي .

ــ لماذا لا يكون لأمرأتك مقام ؟

ــ الأمر سوف تعلمه فان الأسرات النبيلة ستستقبلها ببرود وأنا أريد ان يدخل القائد ساندريجو وامرأته الى أرفع بيت وهما شامخا الرأس .

ــ ماذا يجب ان اعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟

ــ يجب ان يحضر حفل زواجي اشرف العائلات وان تكون الحفلة باهرة وان يعقــــد قراننا اعظم رجال الكنيسة في فينيسيا اي الكردينال بمبو بنفسه .

ــ إذن انت انقذتني لهذه الغاية ؟

ــ كلا بل اني انقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي انك تحمل من الحقد على رولاند فوق ما احمل ولا انكر عليك اني حين سمعتك تتوسل وتثني

على كرم رولاند ندمت وعزمت على التخلي عنك غير اني رأيت ولاسيا بعد هذا الابتسام الذي تبتسمه الآن ان حقدك عظيم عليه وهو رجـــل شديد يستحق عناء المؤامرة عليه .

— وأنا ارى رأيك فلتسرع اذن فاني ما زلت في هذه الجهـات لا آمن على نفسي .

وقد جد الاثنان عند ذلك السير وبعد ساعة دخلا الى سراي الدوج فقال ساندريجوا لفوسكاري .

أرأيت يا مولاي كيف وفيت بوعدي ؟

فشكره الدوج باشارة وجعل ينظر بيبو وهو معجب بتغيره فان سجن بضعة ايام فعل به ما لم يفعله برولاند سجن ستة اعوام .

فأدرك بيبو سر نظراته وقال له :

نعم لقد تغيرت كثيراً فان كل دقيقـة مرت بي في ذلك السجن الهائل كانت بمثابة عام ثم قال له بصوت منخفض .

يجب ان نتحادث

قال ، في هذا المساء

— اين نجتمع ؟

— حسب العادة في جسر التنهدات

— حسناً فساوافيك ولكن اعلمت ان رولاند في قيد الحياة .

— نعم لقد علمت

— انه حاقد علينا حقداً شديداً وانتقام هـذا الرجل هائل كما علمت بالبرهان .

وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بيبو جباناً ومـع ذلك فانه ارتعد فقال له بيبو :

يجب ان نحذر لأنفسنا كل الحذر وان نتخـذ الوسائل السريعة فننقض

انقضاض الصاعقة أو يقبض علينا رولاند الواحد تلو الآخر فان هذا الرجل اشد وأقوى مما كنا نتوقع .

ـ سنجتمع في هذا المساء

ـ ثم التفت الى ساندريجو وقال له :

اشكرك يا حضرة القائد لانقاذك الكردينال فانت من اشد اعواننا ورجائي ان تستمر على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وان استمر على ترقيتك بما ينطبق على كفائتك .

فانحنى ساندريجو شاكراً وهو يكاد يطير سروراً ثم استأذن من الدوج وخرج مع الكردينال الى قصره .

وهناك قال له الكردينال ، لقد مشيت الآن ايها الصديق في طريق الثروة والسعادة فان فوسكاي لا يرجــــع عما يعد به وأما أنا سأساعدك بملء قوتي .

ـ وأنا معتمد عليك دون شك .

ـ اذن عد الي غداً فاني مضطر هذه الليلة الى مشاورة رجل لا بد لي من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

ـ ماذا سألتني ؟

ـ وأنا سابدأ عملي منــــذ اليوم ولكن لا تستطيع ان تجيبني الآن عما سألتك اياه ونحن في طريق البحيرات .

ـ ان تحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ويعقــد لي في الكنيسة الكاتدرائية ويتولى عقد القران الكردينال بمبو اسقف فينيسيا .

ـ انه شرف عظيم لا يمنح عادة الا لأكابر الناس ولكني لا استطيع ان ارفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد فقل لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

ـ انها تدعى بيانكا وهي ابنة المحفظية امباريا .

وعند ذلك انحنى وانصرف فبقي بمبو وحده دون حراك كأنما الصاعقة قد انقضت عليه .

فلم يثب إلى رشده الا بعد حين فجعل يقول :

بيانكا ، انه يريد ان يتزوج بيانكا وان اتولى انا عقــــد القران فيا له من ابله ؟

ثم ضحك ضحكا هائلا وقام فغير ملابسه وخرج من منزله فركب قاربا وسار به الى قصر امباريا فصعد السلم وهو يضم قبضته منذراً متوعداً وهو يقول في نفسه .

اني اقتل الاثنين ولا اسمح بمثل هذا الزواج .

وفي ذلك الحين رسا قارب عند باب قصر امباريا وخرج منه رجل .
أما هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

٣٩

الموت

ندع الان ساندريجو وبمبو يعقدان المحالفــة ورولاند ينهمك في قضاء تلك المهمة المجهولة وسكالابرينو يدفــع الموت في قبو الخمارة وجوانا ساهرة على الشيخ كانديانو والد رولاناالد وهي تحاول ان تتعزى عن احزانها وتعود الى ثلاثة من أخص اعضاء هذه الرواية وهم ليونور والتياري ودندولو .

فان ليونور بعد ان انقذت رولاند على ما تقدم لنا وصفه وعادت الى قصرها فاطلقت سراح امباريا سقطت في غرفتها واهية القوى قبل ان تصل الى السرير .

وذلك انها كانت منذ بضع ساعات عرضة لتأثرات عصبية شديدة مثل

خصامها امباريا ومعرفتها فجاءه ان رولانـد حي وانه أقام ستة أعوام في السجن وذهابها الى جزيرة اوليفو والتقاءها برولاند وتلـك المباحثة الهائلة التي جرت بينها وبين زوجها كل هذه الحوادث التي جرت لها في بضع ساعات اثرت عليها تأثيراً سحق قواها وهد ركن عزيمتها الطبيعية والعقلية .

وقد سقطت على الأرض لا تعي وفاجأتها الحمى فأسرعت نساؤها اليها وحملتها الى سريرها وابلغن أمرها الى زوجها .

ولم يكن التياري قد نام بعد فانه بعد حادثة بيت الجزيرة عاد تواً الى قصره وعليه ظواهر السكينة .

ولكن براكين الرعب كانت ثائرة في قلبه فان رولاند نجد منه وقـد نجا منه وقد وثق مما قالته له ليونور وهو أنها أخبرته بأنهم عازمون على القبض عليه فنجا قبل فوات الاوان .

وإنما كان خائفاً منه لأنه لم يكن يعلم اين هو ولا يعرف شيئاً من مقاصده وهو لا يطمئن له بال ما زال رولاند في قيد الحيـاة حتى إذا كان خائفاً عندما كان سائراً الى منزله ان يفاجئه رولاند في الطريق .

فلما دخل الى غرفته تنفس الصعداء ومسح عرق جبينه وجعل ينظر في حالته بعد اطمئنانه فقال في نفسه :

ـ نعم ان رولاند قوي شديد ولكني قـائد الجيش العام فمن يجسر على مهاجمتي والجنود لا تفارقني لحظة .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن من هذا القبيل حتى فاجأه رعب آخر أشد من رعبه الأول .

وهو انه كان يؤامر .

وذلـك انه كان شديد المطامع وقد شعر بعد تلك الثورة التي قضت بإسقاط والد رولاند انه لم يعقل ما عمله في ذلك العهد إلا لخدمة فوسكاري لأنه لم يكن له في ذلك العهد غير فريق ضعيف من الضباط وبعض النبـلاء

في حين ان فوسكاري كان قابضاً على مجلس العشرة وعلى مجلس التفتيش وهما كل القوى الشرعية في فينيسيا .

فلما رأى التياري ان كانديانو الشيخ قد ثملت عيناه وان رولاند قد حكم عليه بالسجن في الآبار طمع بالحكم وعزم على انتزاعه من يد فوسكاري .

ولما كان غرضه الوحيد في هذه المؤامرة كغرضه في المؤامرة الأولى وهو نيل ليونور فان الحب كان أشد وقعاً في نفسه من المطامع .

وقد عيّن فوسكاري حاكماً على فينيسيا وكذلك التياري فانه لم يعدم نصيبه من هذا النعم إذ عيّن قائداً للجيش في حين ان هذه القيادة كانت من حقوق الزوج حسب القانون .

فبعد ان تزوج ليونور وبعد ان وثق انهـــا لا يمكن ان تكون امرأته تغلبت المطامع في قلبه على الحب .

ولكن هذا الطمع لم يكن إلا لخدمة الحب فانه كان يرجو ان يبلغ منتهى العظمة أي ان يكون حاكم فينيسيا عله يروق في عيني ليونور .

ومـــا زال يعمل بالسر حتى دخل معظم قواد الجيش والنبلاء في سلك مؤامرته وفيما هو يحـاول ان يضرب الضربة الكبرى علم بفرار رولانـد من السجن ثم علم بقدومه الى فينيسيا فرأى انـــه لا بد له قبل كل شيء ان يتخلص من هذا المزاحم الشديد فان اسم كانديانو كان محبوباً من الشعب .

ولذلك اتفق مع دندولو بشأن رولاند على ما علمناه ولكن التياري كان يؤامر على فوسكاري طمعـاً بالتاج وهو على يقين من ان سره كان مكتوماً أشد الكتمان ولم يكن يعرفه غير بعض رجاله الذين يخاطرون برؤوسهم إذا باحوا بهذا السر لاشتراكهم بالمؤامرة وقـد عرفت ليونور ذلك .. ذلـك لا يهمه بل المهم انها عرفت هذا السر الهائل .

وهنا وقف وجعل يقول في نفسه :

ـ كيف تخونني هذه المرأة وتفضح سري وإنما أخاطر بحياتي من أجلها إذ لم أكن اطمع بهذا المجد لولاها .

وهنا تنازعه عاملان مختلفان عامل الحب وعامل الطمع فرعب رعباً عظيماً لأنه إذا قتل ليونور عاش بقية حياته دون رجاء ودون قصد .

وإذا لم يقتلها كان عرضة لانتقامها في كل لحظة فان حياته كانت موقوفة على كلمة تبدر منها .

وعلى ذلك فإما ان يعيش من غير ليونور وإما يموت بها .

وفيما هو على ذلك جاءته إحدى الخادمات وقالت له :

ـ ان ليونور مصابة بحمى شديدة بلغت بها الى حد الهذيان .

فزالت كل تلك الأفكار من رأسه ولم يعد يخطر له غير أمر واحد وهو ان ينقذ تلك المرأة الهائم بحبها ثم يرى بعد ذلك ما يكون .

وعند ذلك أسرع الى غرفة امرأته وكانت هذه هي المرة الأولى التي دخل بها الى هذه الغرفة فرأى ليونور في سريرها وقد احمر وجهها من الحمى وهي نائمة في فراشها دون حراك .

فأمر ان يأتوا بالطبيب فجلس بجانب السرير فأخذ يد ليونور بين يديه وارتعش ارتعاشاً عظيماً إذ كانت هذه أول مرة لمس يدها بهذا الشكل فلا ندري أكان ارتعاشه لسروره بضم هذه اليد الناعمة أم لإشفاقه وقد شعر انها تلتهب من الحمى .

وكان السكوت سائداً في تلك الغرفة الى ان اخترق هذا السكوت صوت ليونور فان هذيان الحمى قد بدأ فكانت تتكلم بإسهاب فتحادث تارة أباها وتارة رولاند فتسأله العفو وتقسم له انها لا تزال وافية بعهده .

ثم انقطعت فجأة عن محادثة رولاند وجعلت تحدث التياري بهذيانها فبدأت بذكر اسماء رجال المؤامرة وأيقن التياري انها ستفضح كل سره فاضطرب والتفت الى خادماتها فأمرهن بالخروج من الغرفة وجعل يكلمهن بصوت مرتفع كي لا يسمعن ما تقوله سيدتهن فخرجن حتى إذا بقي وحده

أمامها نظر اليها نظرة وحشية وخرج الى الغرفة المجاورة كي يستوثق انه لا يوجد احد فيها فلما وثق من ذلك عاد الى امرأته وجلس بجانبها يصغي .

فسمع كل ما قالته عن المؤامرة وأيقن انها واقفة على كل تفاصيلها .

ثم سكتت فجأة كما سكتت أول مرة .

وعند ذلك طرق الباب فارتعد التياري وجرد خنجره فقال من الطارق ؟

فأجابه صوت من الخارج قائلاً : الطبيب .

فاطمأن وأغمد خنجره وهو يقول في نفسه :

ــ لقد جننت دون شك فاني سأفضح نفسي لشدة خوفي من الفضيحة ،

وقد ملك نفسه وفتح الباب فدخل طبيب العائلة فقال له التياري :

ــ لقد وقعت السيدة ليونور فخافت خوفاً شديداً وأصيبت بحمى شديدة .

قال : سوف نرى يا مولاي .

وعند ذلك دنا الطبيب الشيخ من ليونور ففحصها فحصاً مدققاً .

ثم التفت الى التياري فذعر ذعراً عظيماً إذ رأى القائد العام مجرداً خنجره كأنه يهم ان يطعنه به فانه كان عازماً على قتله لو قالت ليونور كلمة تشف عن المؤامرة .

فلما رأى الطبيب ذلك قال له :

ــ إني لا افهم شيئاً يا مولاي مما تقول .

فضحك التياري ضحكاً عصبياً وقال له :

ــ لا تؤاخذني أيها الطبيب فان الحقيقة هي اني أنا المريض ولكن تعال .. تعال معي .

وقد أغمد خنجره وسار الطبيب الى غرفة مجاورة وهناك اطمأن وعاد الى السكينة ، فقال له الطبيب :

ــ الحق يا سيدي انك اخفتني .

قال : ارجوك ان تعذرني فان الحزن قـد يصيب صاحبه بالجنون والآن فاخبرني بما رأيت ؟

فاطمأن الطبيب ايضاً فأخبره تفصيلاً بمـــا علمه عن حالة ليونور بعد الفحص ثم قال له :

ـ انها يا سيدي في أشد خطر وانه يجب مراقبتها في الليل والنهار .

قال : حسناً ، فسأتولى بنفسي هذه المراقبة .

قال : انه خلوص عظيم نادر يا سيدي بين الازواج .

ثم وصف لها الدواء وحاول الانصراف وهو يقول : سأعود غداً .

قال : بل تقيم عندي وسأعيّن لك مكاناً في القصر .

فسر الطبيب بهذا الإنعـام ولكنه نظر نظرة القلق الى خنجر التياري وقال في نفسه :

ـ لمـــاذا أراد هذا الرجل ان يطعنني بخنجره فهل هو حقيقة مصاب بالجنون ؟

وعند ذلك ذهب الى المكان الذي عيّنه له التياري وهو بين الرجاء والخوف .

وعاد التياري فنادى وكيله وقال له : أرأيت هذا الطبيب ؟

قال : نعم يا مولاي .

قال : إذن فاعلم انه إذا خرج من القصر دون إذني فأنت من الهالكين.

فانحنى الوكيل وانصرف وهو معجب بإخلاص سيده لإمرأته إذ كان يعتقد انه لا يريد سجن الطبيب في قصره إلا كي يجده للفور حين الاقتضاء .

وقد عاد التياري الى غرفة امرأته وأمر جميع الخدم ان لا يدخلوا اليها فانه يريد ان يتولى وحده خدمتها .

فكان يقفل باب الغرفة من الداخل وينام على كرسي قرب سريرها نوماً مضطرباً متقطعاً .

وبقيت ليونور على حالها ستة أيام وفي اليوم السادس عـادت الى صوابها فشعرت بتعب عظيم لا يوصف ولا سيما في نفسها فان يأسها كان شديداً حتى انها كانت تشتهي الموت ولا تجد الراحة الكبرى إلا بـه ، فانها حين كانت تذكر ان جميع شقائها تولد من ساعة ريب يتولاها اليأس وتحكم على نفسها انها غير جديرة بالاشفاق ، فقد كان ذنبها العظيم « في اعتقادها » انها لا تحب رولاند كما أحبها فانه لبث وفياً بعهده، أما هي فانها خانت وتزوجت بسواه وسمعت أقوال الناس فيه ، وانه ليلة خطبتها حين ذهبت الى المجلس العشرة وسمعت ما قالته امباريا فيه كان يجب عليها ان تجيب تلك الفاجرة فتقول :

ـ لقد كذبت فان رولاند لا يتدانى الى حب أمثالك فهو لي بجملته كما أنا له بجملتي .

وحين جاءتها أم رولاند وطلبت اليها ان تذهب معها لتهييج الشعب على انقاذ رولاند كان يجب عليها ان تجيب :

ـ هلمي بنا ولنمت معاً فانني وإياه واحد لا يجب ان نفترق .

وحين قال أبوها ان رولاند عفي عنه فهجرها وبرح فينيسيا كان يجب ان تقول له :

ـ لقد كذبت فان رولاند إذ أطلق سراحه لا يلجأ إلا الى .

وحين ذهبوا بهـا الى كنيسة سانت مارك لعقـد زواجها كان يجب ان تمتنع عن الزواج وتقول :

ـ إني لا أتزوج التياري لأني زوجة رولاند وإذا لم يمكن ان اكون له تزوجت الموت .

هذا ما كانت تقوله هذه المنكودة ولا بد لنـا ان نقول هنا ان هذه الأقوال ليست من مخترعاتنا بـل هي اقوال ليونور نفسها عثرنا عليهـا في كتاب كتبته فكان شبه اعتراف .

وهذا الذي كان يعذب نفسها هـذا العذاب لا سيا بعد ان اجتمعت

برولاند وانقذته ووقف أمامها جامداً كأنه لا يعرفها وانصرف دون ان يكلمها كلمة وهي إنما لبست ملابسها القديمة أي ملابس الفتيات كي تلمح انها لا تزال على عهدها وإنما ذهبت الى تلك الأرزة كي يعلم انها لا تزال تهواه وإنما اختارت انتصاف الليل موعداً كي يعلم انها لا تزال تحن على لقياه .

وهو مع كل ذلك لم يفه بكلمة فكانت تقول في نفسها :

ـ انه مصيب بكل ما فعل فقد خنته أمـــام مجلس العشرة بتصديق الوشاية عنه وخنته أمام أمه بامتناعي عن المسير معها وخنته أمـام الهيكل بقبولي ذلك الزواج .

إذن لقد قضي الأمر واصبح الفراق ابديـــاً ولم يبق لي رجاء بلقياه فماذا بقي ؟

لم يبق غير توديع الحب أي توديع الحياة وأما حب الموت الآن فهو الدواء الوحيد لهذه الآلام .

هذا ما كانت تفتكر به ليونور في تلك الساعة ساعة اليأس الهائلة .

وفيما هي تغمض عينيها كي تستقبل الموت ولا ترى غـــير الظلمة الأبدية سمعت صوتاً بالقرب منها .

فقالت : من هذا الذي يتكلم هكذا ؟

وقد أصغت وهي أول مرة عاد فكرها الى الانتظام فعجبت كيف انها في سريرها ثم ذكرت فجأة انها سقطت مغمياً عليها في ارض غرفتها ولم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك .

ولكنها جعلت تصغي الى تلك الاصوات وكانت ضعيفة خافقة غير انها لم تكن أصوات نساء كما توهمت في البدء بل كانت اصوات رجال .

وقد تبينت تلك الاصوات لفورها فعلمت انها صوت زوجها وصوت أبيها فبذلت جهداً عنيفاً كي لا يبدو عليها شيء من عـــلائم الاضطراب وكي لا تنهض من فراشها فتطردهما واصغت الى ما يقولان فسمعت التياري يقول :

ـ لقد مضت خمسة أيام كانت شبه خمسة أعوام لما لاقيت في خلالها من الرعب .

فأجابه دندولو قائلاً :

ـ لماذا هل تكلمت شيئاً ؟

ـ بل انها قالت كل شيء وستعود الى الكلام ايضاً متى عاد الهذيان فانها تفصل لهم المؤامرة تفصيلاً وتذكر المؤتمرين .

ـ ألعلها ذكرت اسمي ؟

ـ ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمك .

فساد السكوت هنيهة بعد ذلـــك وسمعت ليونور أباها يتنهد كأنه قد اطمأن فعلمت انها بهذيان الحمى قالت كل ما تعرفه عن المؤامرة وان التياري أقام عندها كل هـذه المدة كي يراقبها وانه دعا أباهـا للاتفاق معه على أمر هائل دون شك .

وعاد الاثنان الى الحديث فقال التياري :

ـ ربما لم تكن عالمة انك منتظم في سلك المؤامرة او ربما حرصت عليك حتى في هذيانها .

ـ إذن لقد ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمي .

ـ نعم . .

ـ رباه ولكن ماذا يكون إذا سمعوها ؟

ـ انهم إذا قبضوا علينا قبضوا عليك لا محالة .

وهنا عاد الإثنان الى السكوت فكانت ليونور ترى بعين التصور رعبها وتبذل كل ما تستطيعه من الجهد كي تحافظ على السكينة .

وبعد هنيهة عاد التياري الى الحديث فقال :

ـ ان الهذيان يفاجئها في المساء وفي الليل أما الآن فانها نائمة نوماً هادئاً وما أصعب تلك الليالي التي كنت أقف فيها على الأبواب والخنجر بيدي

وأنا متأهب لقتل كل من يسمع كلمة من حديثها حتى شعرت بأني سأفقد صوابي ولذلك دعوتك إليّ فاذك أبوهـا .

ـ حسناً فسأتولى الحراسة مكانك كي تستريح .

فهز التياري رأسه وقال :

ـ لست أشكو من التعب .

ـ إذن مما تشكو ؟

ـ أشكو من أنه لا يجب ان يسمعوها .

ـ نعم لا يجب ان يسمعها أحـد فان كلمة تخرج من فمهـا تقتلنا وأي قتل .. هناك على جسر التنهدات حيث يربطوننا الى ذلك الكرسي الحجري او انهم يقتلوننا جوعـاً او عطشاً او انهم يحبسوننا في الآبار ويعذبوننا كما عذبنا .

ـ اسكت ولا تذكر اسمه هنا فانها قد تسمعه فتقول اني سأقذف بكم الى حيث قذفتم بخطيبي .

ولكنها كانت نائمة لحسن الحظ نوماً هادئاً غير ان هذا النوم قد يكون علة موتنا .

وعند ذلك نظر الى دندولو نظرة وحشية وقال له :

ـ نعم يجب ان لا يسمعوها وليس لذلك غير طريقة واحدة .

فجمد الدم في عروق أبيها وقال له :

ـ أية طريقة ؟

ـ نعم يجب ان لا تتكلم بعد الآن .. واصغ إليّ فانـك تعلم يقيناً اني أحب بنتك ولا أزال أحبها .

ـ اسكت .

ـ اني أحبها وهذا الذي يولد اليأس في قلبي لأنهـا تكرهني وتحتقرني وتلعنني وأنا أحبها فلم استطـع الصبر على هذا المضض ولم يبق غير واحد من أمرهما إما ان أموت او تموت .

ـ قلت لك اسكت .

ـ كلا اني لا اسكت واني ما دعوتك إلا لتشاركني في نكدي فانك انت الذي زوجتني اياها وأي زواج هذا ألا تعلم اننا منذ تزوجنا الى اليوم ونحن عائشان عيش الغرباء حتى لقد حاولت مائة مرة ان اقتلها .

والآن ، فاني أريد ان أنجو من هـــذا العذاب إذ لم أعد أطيق الصبر عليه لحظة .

اني أحبها وقد بلغت بحبها حد الجنون وقد تحملت العذاب فيهـا خمسة اعوام والآن فاني سمعتها في هذيانها تنادي خطيبها فتتوسل اليه ان يصفح عنها وتناجية بأرق الفاظ الغرام فكانت كل كلمة من كلماتها شبه خنجر يغمد في صدري .

وبعد كل هذا فقد باتت شر نذير لي بالموت فان جراح كلماتهـا لم تكفهـا فأرادت اعدامي .

نعم اني لم أعد اطيق الصبر فهل تريد ان تعيش بعد الآن بهذا العذاب وأنت معرض في كل لحظة لانتقام امرأة .. قل أتريد ان يكون مصيرك الاعدام ؟

فتمتم دندولو قائلا :

ـ أواه يا ابنتي .

وقد خامر الرعب قلب هـذا الأب الشقي ولكنه مع ذلـك حاول ان ينقذ بنته فقال بصوت ضعيف :

ـ انها قد لا تذكر بعد الآن هذه الأشياء ومتى شفيت فاننا قد نستطيع ان نستوثق منها وان تعاهدنا على الكتمان فاصبر فاني واثق من كتمانها .

وعند ذلك بدرت حركة من ليونور فأجفل الأثنان وجعلا ينظران اليها.

ففتحت عينيها ولم تكن نظراتها نظرات مريضة محمومة بل نظرات كانت تتوقد ذكاء فارتعش الاثنان وايقنا انها سمعت كل الحديث .

أما هي فقد أيقنت أيضاً ان ساعة الخلاص قد دنت أي ساعة الموت وان الكلام سيكون لها امضى سلاح للانتحار ما زال أبوها وزوجها قد اتفقا على قتلها .

فنهضت من سريرها وجمعت كل قواها فقالت :

انك مخطىء يا أبي فاني لا اكتم سركم وسأبوح به في أول ساعة استطيع بها الخروج من هذه الغرفة .

وذلك أنكما اخللتما بالشروط التي تعاهدتما عليهما في بيت الجزيرة فلا بد لي من الاباحة بسركم .

وكان التياري قريباً من السرير فنظر اليها نظرة منكرة وقد زال الحب من قلبه بلحظة وبات يكرهها بقدر ما كان يحبها فهاجت براكين الحقد في صدره فحاول أن يشفي غليله بكلمة شتم ولكن تلك الكلمة وقفت في حلقه فرفع يده وهو يحاول أن يضرب ضربة واحدة تكون القاضية .

فنظرت ليونور الى بريق خنجره وهي تبتسم ارتياحاً للموت .

أما التياري فان يده سقطت فجأة وارتجع خطوة الى الوراء ذلك ان دندولو صدمه صدمة قوية وأسرع فحال بينه وبين بنته وهو يقول :

— اني لا أريد ان تموت ابنتي .

فهاج غضب التياري وقال :

أأنت الذي تصدمني هذه الصدمة ؟

— نعم

— اذن أنت تريد أن تموت ايضاً

— اني اؤثر ألف موت على ان أدعك تمسها بسوء .

فنظر التياري الى دندولو نظرة انذهال وحقد معاً فان هذا الرجل الذي

كان يعهد به الضعف ووهن العزيمة والجبن رآه قد استحال في تلك اللحظة الى أسد مفترس يدافع عن عرينه فقال له .

– ويحك ايها الجاهل أتريد ان تدفع بنا جميعنا الى الاعدام .

فتنهد دندولو تنهداً وقال :

– أني أقبل الموت والشنق والعار والسجن وكل مـا اخترعته القرائح الجهنمية من أنواع العذاب ولا أرضى بهذه الدناءة .

لقد كنت جباناً وكنت سافلاً اذ بعتك بنتي وبعتك نفسي أما الآن فاني استرد بنتي واسترجع نفسي وأرد لك الثمن وهو ذلك المنصب وما ألقى فيه من المجد والسلطة .

فدنا التياري خطوة منه قبل ان يتم حديثه .

فأدرك دندولو قصده وقال له :

– اني أشير عليك ان لا تدنو من بنتي الا اذا اردت ان يسبق خنجري الى صدرك سيف الجلاد الى عنقك .

قال ، اذن لنمت جميعنا فاني اوثر هذا الموت .

وقد انقض على دندولو وهو يزبد بخنجره فتلقاه دندولو بمثل سلاحه .

وكان القتال بينهما هائلاً دون ان يفوه أحـــدهما بكلمة الى ان اصيب التياري بخنجر عمه فاخترق الخنجر كتفه فسقط على الأرض قرب السرير وحاول وهو على هذه الحال ان يمد يده الى ليونور فدفعه دندولو عنها بعنف والقاه بعيداً عن السرير .

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً ولكنه كان بالغاً فلم يذهب صوابه وجعل ينظر الى ما سيحدث بعينين ظهر فيهما الرعب والألم .

أما دندلو فانه حين رأى التياري طريحاً بعيداً عنه دنا من ابنته فأخذ يدها ووضعها على جبهته المحرقة فلم يقل كلمة ولكنه جعل يشرق بالبكاء .

فتأثرت ليونور وبكت لبكائه وهي تقول :

– أبي

فاتقدت عينا دندولو بأشعة الفرح وقال :

– اللهم عفوك فقد عفت عني .

* * *

وعند ذلك مسح ذلك الأب عينيه وقال لها بصوت يرتجف .

انك لا تقيمين ساعة هنا فسأذهب بك الى بيتنا القديم في جزيرة اوليفو ونعيش فيه عيشنا القديم .

فهزت ليونور رأسها وقاطعته قائلة :

– ألعلك نسيت يا أبي ان هذا البيت لم يعد لنا .

فذكر دندولوا انه باع البيت وكان قد نسي البيع ونسي رولاند فقال لها : لقد أصبت ولكننا نستأجر منزلا :

قالت ولكنك نسيت أيضاً يا أبي ان من تكون من أسرة دندولو لا تبرح منزل زوجها وقد رضيت به زوجاً فلا تخف علي يا أبي فاني منذ هنيهة كنت أريـــد الموت أما الآن فأني أريد الحياة لأجلك اذا لم يكن لأجل سواك .

وان التياري يعلم يقيناً اني لا أبوح بكلمة تفضح سره وهو يعلم يقيناً أيضاً اذا دخل مرة ثانية الى هذه الغرفة تكون العاقبة هائلة عليــه ثم هو يعلم ايضاً اني اذا أصبت بسوء كان نصيبه الشنق لأنك تفضح سره انتقاماً لي .

ثم التفتت الى التياري وقالت له :

– الا ترضى بهذا الشرط ؟

فقال بصوت أجش .

نعم أرضى

قالت وأنا أضيف الى شرطي شرطاً آخر وهو انه يحق لأبي ان يدخل الى هنا متى شاء.

فقال دندولو :

لا فائدة من هذا الشرط يا ليونور فانك ما زلت تأبين الخروج من هذا المنزل فأنا أقيم فيه في الغرفة المجاورة لغرفتي فلا يستطيع احد الدخول اليك الا على جثتي .

فأشار التياري اشارة تدل على الموافقة ثم نهض عن الأرض وقد أوهن الجرح قواه فخرج من الغرفة دون ان ينظر الى الفتاة وأبيها .

٤٠

معسكر الشيطان الأكبر

ولنعد الآن الى رولاند كانديانو فقد تقدم لنا القول انه بعد ان قابل ليونور تلك المقابلة الغريبة ذهب الى سكالابرينو ومهد اليه ايصال أوامره الى زعماء العصابات ثم برح فينيسيا .

وقد كان في نية رولاند أن يقابل جان مدسيس في أقرب حين ويمنع اتصاله بفوسكاري دوج فينيسيا .

وهو انما اتخذ ذلك حجة لنفسه ولكنه في الحقيقة كان يريد الابتعاد عن عن هذه العاصمة فهل خشي ان يقبضوا عليه وان يدفنوه حياً في تلك البئر التي كان مسجوناً فيها أم خشي ان ينصبوا له شركا فيغتالوه ويعدموه .

كلا فان رولاند لم يعد يخشى ظلمة القبور ولكنه كان يريد الفرار من فينيسيا لانه لم يعد يطيق النظر اليها ولأنه خشي ان يجتمع اتفاقاً بليونور

بل لأنه خشي من نفسه وخشي من غرامه فكان يسير سير الهائم وهو يناجي نفسه فيقول :

كيف ذلك .. الا أزال أحبها الى هذا الحد .. احتملت بغرامها ما لم يحتمله قلب انسان فان شفتي قد رقتا لترديد اسمها في كل لحظة وكل نبضة من نبضات قلبي كانت تنهد غرام ومع ذلك فقد خانتني خيانة لا تقدم عليها بنات العام مع البحارة .. رباه كيف يحتمل عملها التصديق فانها اغتنمت فرصة سجني كي تتزوج سواي وهي تعلم اني ابكي لفراقها الدم لا الدمع .. أليس من العجب ان أبقى على هواهـــا بعد ذلـــك فمن أية طينـة جبل قلبي .

وهي الآن قد تصدقت بانقاذي من كمين واحسنت الي بشيء من الحرية وهو ما تعامل به كل مضطهد سواي .

وعند ذلك لكز بطن جواده بعنف شديد كأنه كان يرجو ان يندفع به ويلقيه في هاوية.

ولكن الطريق كانت سهلة فبعد ان جرى الجواد شوطاً بعيداً وهو في أشد حالات الهياج سكن من تلقاء نفسه فعاد رولاند الى التفكير .

ولم يكن الا القليل حتى تغلبت عواطف الانتقام في نفسه على عواطف الغرام فجعل يفكر بفوسكاري وهو علة شقائه بل هو ذلك الوحش الذي انفذ ذلك العقاب الهائل بابيه فيحدث نفسه فيقول :

— كفاك يا قلبي غراماً ضائعـاً ولانظر الآن الى فوسكاري الطامع بان يتسلط على ايطاليا باسرها ولكني له بالمرصاد فلن ادعه يبلغ مراداً من هذه الأمنية وسأبذل كل جهدي كي أحول دون اتفاقه مع جان مدسيس فاذا لم استطع ذلك بالسياسة فملته بالقوة .

وقد كان اتخذ في هذا السبيل كل ما يحتاج اليه من التعليمات وفوق ذلك فان شهرة هذا الرجل كانت قد طبقت ايطاليا وباتت اعماله مشهورة لدى

الخاص والعام فانه كان يحب الحرب لمجرد الحرب شأن جميع الذين اشتهروا من رجال الفتوح وكان يأذن لجنده بسلب البلاد التي يفتحها فكانوا يحبونه من أجل ذلك حب عبادة .

وكان المؤرخون يلقبونه الحربي المحبوب ولكن اعـــداؤه كانوا يدعونه الشيطان الأكبر فغلب هذا اللقب .

أما رولاند فقد وصل الى معسكر هذا الفـــاتح عند هجوم الليل وقد نصب خيمة كبيرة تحت سنديانة عظيمة .

وكان الجنود فرحين يضحكون ويلهون ويسكرون لأنهم كانوا قادمين على معركة يغنمون منها الأسلاب وقد أذن لهم جان مدسيس بهذا الهرج كما كان يأذن لهم في بدء كل معركة .

فلما وصل رولاند الى المعسكر طلب اليهم ان يسيروا بـــه الى القائد الأكبر فساروا به الى تلك الخيمة العظيمة الكائنة في وسط المعسكر بحيث كانت منه بمثابة القلب .

وكان جان مدسيس جالساً فيها يحيط به قواده الاخصاء وقد وقف اثنا عشر حارساً على ابوابها ، وبسطت في وسطها مائدة كبيرة جلس حولهـا جان مدسيس وقواده فجعلوا يأكلون ويشربون ، بينما كانت جوقة موسيقية تعزف لهم أشجى الألحان فلا تصل الاسماع لشدة هرج الجنود وقائدهم الأكبر يشرب ويضحك ضحكاً عالياً لكل كلمة يسمعها .

فلما رأى رولاند أمـــامه وهو معفر من الغبار تشاءم بطلعته فقطب حاجبيه وقال له :

ــ من أنت ؟

فأجابه رولاند قائلا :

ــ اني قادم من فينيسيا لأ كلمك سراً في بعض الشؤون وأنا أدعى رولاند

كانديانو بن الدوج كانديانو الذي أخذ غيلة وغدراً في حفـــلة كان يعدها وثملت عيناه .

فارتعش الجميع لما سمعوه فان حكاية كانديانو الهائلة كانت قد اشتهرت شهرة عظيمة وكان لها تأثير رعب شديد كما كان ولده الذي ألقي في الآبار ليلة خطبته تأثير رحمة وإشفاق في جميع القلوب .

أما جان مدسيس فقد أجابه قائلاً :

ـ لقد كنت اعتقد انك في السجن .

ـ ولكنهم قد يخرجون ولو كانت تدعى آبار فينيسيا .

ـ إذن انت تريد ان تكلمني ؟

ـ إذا كان ذلك يروق لديك .

ـ إذن استقبلك على الرحب وأدعوك الى مـــائدتي فقد عرفت أباك وعرفت فيه المروءة وكرم الاخلاق ، ولكنه لم يكن كفؤاً لإدارة الشعوب بالحسنى على انه خدم الجمهورية أجلّ الخدمات ويسرني ان أرى ولده بيننا.

وقد أشار اليه عند ذلك ان يجلس بجانبه وناوله كأساً من الخمر فشرب كل منهما نخب الآخر .

حتى إذا تمت هذه المعاملات الأولى انقطع رولاند عن الأكل والشرب وعاد الحاضرين الى سابق لهوهم في تلك الخيمة العظيمة .

وكان جان مدسيس يراقب خلسة ، في خـلال ذلك ، رولاند فيعجب بجماله وقوة عضلاته ويقول في نفسه :

ـ إذا كان يريد الاعتماد عليّ في استرجاع منصب أبيـه فقـد أخطأ فان فوسكاري رجل شديد ولا فائدة لي من عدائه أما إذا كان يريد ان يتولى قيادة فرقة من جيشي عددت نفسي من السعداء .

ثم جعل يسأله أسئلة مختلفة عن حالته في سجنه وعن طريقة إنقـــاذه فكان رولاند يجيبه بملء الإيجاز أجوبة تدل على رجاحة عقل وتوقد وذكاء .

حتى اذا اصدر جان مدسيس اوامره الى الضباط بالانصراف الى خيامهم كان اعجابه شديداً برولاند وكان بنيته ان يقترح عليه الانتظـــام في سلك جيشه .

فلما انصرف الجميع التفت الى رولاند وقال له :

لقد اصبحنا الآن وحدنا فقـل ماذا تريد ان تقول لي واسمح لي في البدء ان اخبرك بأن لدي كثيراً من المعارك يقتضي لي زمن طويـل لانجازها اي اني لا استطيع ان افيدك بشيء فيما يتعلق بفينيسيا .

فهز رولاند رأسه وهو يبتسم ابتسام احتقار وقال :

اطمئن يا سيدي فاني لا اعتمد في اموري الخاصة إلا على نفسي وعندما دخلت الى السجـــن لم ادخله إلا بمحض ارادتي فـلم يرغمني احـد على الدخول اليه .

ـ اقسم بالله اني معجب بك كل الاعجاب ولا اكتم عنـك بأني أتمنى لو قاتلت بامرتي .

ـ اني لا اخضع إلا لنفسي ومع ذلك اشكرك لحسن ظنك بي .

فذهل جان وقال له :

اذن ماذا تريد .

فأطرق رولاند هنيهة ثم التفت اليه وقال :

جان مدسيس انك من رجال الحرب لا من رجال السياسة وان الشعوب يخافونك لأن لديك جيشاً يطيعك خير طاعة ولأن اعمالك الماضية دلت على ما يمكن ان تكون اعمالك المستقبلة ولذلك وجب ان تبقى عند حد شهرتك وتلبث ذلك الرجل الحربي الملقب بالشيطـان الأكبر فاذا ملت الى السياسة ودخلت في حيلها ومفاسدها وخداعها أضعت تلك الشهرة .

ـ ومن اخبرك بأني اجنح الى الخداع والمفاسد .

هذا الذي يريدون ان يقترحوه عليك .

ـ من هم ؟

فوسكاري دوج فينيسيا وذلك انه يوجد بيني وبين هـذا الرجل عداء لا ينتهي إلا بالموت ولذلك اتيتك كي اسألك التزام الحياد بيننا .

فقال له جان ببرود :

اوضح ما تقول :

فتنبـه رولاند لبروده وخشي ان يكون قد جاء بعد فوات الاوان فبرقت عيناه ببارق وعيد وقال له :

اني موضح لك بملء الصراحة حالتنا ولك الخيار بعـد ذلك بالميل الى الجانب الذي تختاره .

ـ اني مصغ اليك .

ـ ان فوسكاري عذب ابي عذاباً لا يخطر في بال الأبالسة دون ان ترتعد والقاني في ابار فينيسيا ستة اعوام فيجب ان اعاقب هـذا الرجل الفظيع واعوانه في الاثم .

وقد قال هذا القول بلهجة تبين فيها الحقد الهائل حتى ان جان صاح قائلا :

إني لا اريد ان اكون من اعدائك .

قـــال ان كل من يساعد اعدائي كان منهم وأنا سأحارب فوسكاري واعوانـه حرباً لا رحمة فيهـــا فأما اموت وأما يموتون ولا وسط بـين هاتين الحالتين .

اذن فاعلم اني بينما اعمل استمالة شعب فينيسيا إليّ وانتزاع السلطـة من فوسكاري عليهم يهتم بمحالفة الأشداء لمطامع كبيرة يرجو بعد تحقيقها ان يأمن انتقامي واول هؤلاء المحالفين الذين يطمع بمحالفتهم هو انت يا جـان مدسيس .

ـ كيف عرفت ذلك .

ان فوسكاري ارسل اليك سفيراً أتعرفه ؟

ــ من هو ؟

ارتين الشاعر .

ــ الشاعر ارتين : اني اعد نفسي سعيداً بلقيـــاه فاني أحب الشعر والشعراء ولا سيما في مجالس الخمر فانهم أرق منها .

ــ ولكنك لن تراه فقد قبضت عليه ووقفت على سر سفارته فوضعته في محل امين وجئت اليك بدلاً منه .

ــ انت عملت هذا ؟

ــ نعم يا جان مدسيس اني فعلته .

ــ ثم تأتي إليّ وتقول لي بمـــا فعلت الحق انه لا بد لي من الاعتراف بجرأتـك .

ــ ان الجرأة هي كل ما املك .

ــ وانت تقول اذك عارف بما عهد الى ارتين ان يقوله لي .

ــ اني اعيد عليك الكلام الذي تلقاه ارتين من فوسكاري ليحمله اليك غير اني اقوله بشكل موجز لا يضيع شيئاً من جوهره .

وخلاصته ان فوسكاري يريد الاستيلاء على ايطاليـــا وجعلها مملكة واحدة وهو يقترح عليك ان يضم جيشه واسطوله الى جيشك فيتمكن بهاتين القوتين من طرد الاجانب وقتل أمانيهم .

حتى اذا تم له ما يريد من اخضاع ايطاليا بجملتها شاركك بالملك عليها فاستولى هو على القسم الشمالي وجعل فينيسيا او ميلانو عاصمة مملكته وانت تستولي على الجنوب فتجعل عاصمة مملكته رومة او نابولي .

هذه هي خطته وهذا مغزى تحالفه معك فماذا تقول :

ــ واذا أجبتك عما ارتأيه أتتعهد بايصال جوابي الىفوسكاري كما اوصلت إليّ اقتراحه .

ـ دون شك مهما كان هذا الجواب إذ لم يكن اسهل لدى من ان اكتمك اقتراح الدوج .

ـ كلافان الدوج متى استبطأ جوابي ارسل لي سفيراً آخر .

ـ ربمـا ومهما يكن من الأمر فاني سأكون مخلصاً في ارسال الجواب نفس اخلاصي في حمل الاقتراح اي انك تستطيع ان تتكلم بملء الحرية .

ـ ليكن ما تريد فاعلم اذن ان مشروع فوسكاري يعجبني بجملته لأنه مشروع عظيم بخلق بمن كان مثلي تحقيقه ومساعدة الآخرين فيـه ولذلك اقبل مبدئياً هذه المحالفة وهذا كل ما ارغب ان تقوله لفوسكاري .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم فان اتفاقنا الآن مبدئي كما قلت لك اما الاتفاق النهائي فلا يكون إلا بعد اجتماعي به وسأرسل اليه رسولاً فأعين موعد الاجتماع ومكانه وذلك بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأني سأبحث صبـــاح غد في طريقة الهجوم على كوفرنولـــة فيوم للتفكير ويوم للهجوم ويوم للنهب ثم ابعث رسولي الى فوسكاري فلا تسبقه إلا بثلاثة ايام .

وقد قال هذا القول وعليه علائم التفكير فما شكك رولاند انه يحـاول نصب مكيدة ولكنه لم يظهر عليه شيء من الاضطراب .

أما اقتراح فوسكاري فقد اعجب به جان مدسيس أشد الاعجاب بدليل انه كان يقول بصوت متقطع :

رأي بديـع .. ما اجل هذا الاقتراح .. انه جدير بي .

فقال له رولاند اذن لقد رضيت بالاقتراح دون تمعن ودون تردد .

ـ لا حاجة إلى التمعن في مثل هذا المشروع فان فائدته ظاهرة للعيان .

بقي عليّ ان اذكر بعض ملاحظات .

ـ وهي ملاحظات أتلقاها بالشكر لصدورها منك .

ـ لقد تقدم لي القول انك رجل حربي وان السياسة تنتقص من شهرتك الحربية اذا اشتغلت فيها .

ومما لا ريب فيه انك اذا جمعت قوتك الى قـوة فوسكوري تخضع لكما إيطاليا ، وان يكن المشروع غير سهل ، كما يظهر لأول وهلة ، فان فلورنسا وبيرومانتوجمهوريتان قويتان، ولا سيما اذا اتحدتا وتحالفتا ، فانهما تزدادان قـوة .

ومع ذلك فلنفترض انك بعد حرب عشرة أعوام على الاقل تسيل فيها الدماء كالأنهار تمكنت من إخضاع إيطاليا ، ثم لنفترض ايضاً امراً مستحيلاً هو ان البابا وافق على ان تكون ملك الايطاليين وان أوروبا لم تلبي دعوته أيفرض كل ذلك فاذا تم على ما تريد فماذا تصنع بفوسكاري فان حين ينتهي دورك يبدأ دوره وينزل الحرب ويحل محله السياسي فوق ذلك العرش الذي بني بالدماء .

وفوق ذلك فان فينيسيا قد تدافع دفاعاً تخرج فيه ظافرة فانها تعلم ان مستقبلها في البحر لا في الأرض وانها لا مطمع لها بغير السلم والاتجار والفنون فهي ستكون أول المدافعين .

ولكن لنعد الى مسألتنا الأولى فاذا انتصرت فماذا تصنع ؟

قال : اني اذا انتصرت اجعل كرسي مملكتي في نابولي أو في روما نفسها ومن الذي يمنعني ؟

ـ يمنعني شريكك، يا جان مدسيس، فاني اعرف فوسكاري حق العرفان ولا تحسب انه سيكون في إيطاليا ملكان ، بل ملك واحد .

فضرب جان بيده على المائدة ضربة اهتزت لها الأقداح وقال :

ـ انهذا الملك الوحيد سيكون أنا فانفوسكاري سيكون مخلصاً بالكره و بالرضى .

ـ ليكن ما تظنه فقد فرغت من الملاحظات الخاصة بك وبقي عليّ تلك

الملاحظات الخاصة بي ، فقد بينت لك الأسباب التي تدعوني الى الحقـد على فوسكاري ، فاذا اصبحت شريكه كنت حائلاً بيني وبين ما أريده له

فاعلم ، يا جان مدسيس، اني اقسم لك بأمي التي ماتت يأساً وبأبي الذي شوهوه ونكلوا به لا يوجد قوة في الوجود تنقذ فوسكاري من قبضة يدي بعد ان قضيت عليه .

ثم وقف وقال :

تمعن في الأمر ، يا جان مدسيس .

فوقف جان أيضاً ، وقال :

أتظن انك تهددني ؟

ـ بل اني اخبرك بما عزمت عليه فانفوسكاري الجريمة وأنا هو الانتقام ولك ان تختار !

ـ لقد اخترت .. ثم صفق بيديه ، وقال :

فاسرع اثنا عشر ضابطاً الى الخيمة ، فقال لهم :

اقبضوا على هذا الرجل ، واحرصوا عليه كل الحرص .

فقال له رولاند :

جان دي مدسيس لقد خيرتك بين الذنب وبين العقاب، ولا يزال الوقت فسيحاً لديك .

فلم يجبه جان مدسيس ، وقال للضباط : اقبضوا عليه .

فقال له رولاند : إذن أنت الذي أردت .

وفيما هو يقول ذلك ، دنا ضابطان منه ووضعا يديهما على كتفيه .

وقـد عرف القراء قوة رولاند ، فانه دفعهما بيديه فسقطا يهويان على الأرض ، وأسرع الى باب الخيمة .

فجعل جان عند ذلك يصيح قائلاً :

خيانة .. خيانة .. اقبضوا عليه .

فانقض الضباط عليه .

أما رولاند فانه التصق بجدار الخيمة واسرع الى وضع المائدة بينه وبين مطارديه ، ثم جرد حسامه الطويل وهو يقول :

تذكر يا جان مدسيس اني عرضت عليك اختيار العقاب فابيت إلا ان ينفذ فيك .

٤١

اصطدام العواصف

في وسط قصر امباريا أي في تلك البنـاية الخاصة ببيانكا كانت الحظية وبنتها جالسين تتحدثان ، وقد وضعت بيانكا يدها بين يدي امها وجعلت تحدثها عن رحلتها الى قرية مستر واقامتها مع جوانا ومجيء ساندريجو فجأة.

وقـد تـكلمت قليلاً عن رولاند ، ولكن امها تبينت من كلامها الموجز عنه انها تحترمه إحتراماً عظيماً وتثق به ثقة لا حد لها .

وقد سمعت كلام بنتها الى النهاية دون ان تقاطعها حتى اذا اتمت حديثها قالت لها :

لقد عدت اليّ يا ابنتي وزال عنك الخطر بفضل الله وبفضل ذلك القائد الباسل السنيور ساندريجو .

فقالت لها بيانكا :

ولكنني لم اكن في خطر يا أماه قرب جوانا ، بل ان الخطر عليّ هنـا من ذلك الرجل الذي اختطفني ومن أولئك الرجال الذين لم أر وجوههم ولكن هيأتهم لا تزال منطبعة في مخيلتي .

وكانت تعني بهم بمبو ورجاله ، فقالت لها أمها :

لا تخشي يا ابنتي من هذا الرجل .

فهزت بيانكا رأسها ، وقالت : من يعلم ما يكون منه .

فقالت لها أمها : قلت لك لا تخشي منه فقد مات .

وقد قالت لها ذلك بلهجة تبين فيها الخوف فانها علمت من رولاند نفسه ان بمبو قد مات وانه هو الذي قتله ومن يعلم الآن عند أي حد يقف انتقام رولاند سليماً ، وقد علمت انهم حين حاصروا رولاند في بيت الجزيرة تمكن من الفرار ولكنها كانت موقنة انه سيعود .

وقد ذكرت عند ذلك عراكها مع ليونور وانها هي التي اضطرت الى اخبارها بأمر فراره من السجن فلا شك ان ليونور تهتم الآن بالالتحاق بمن احبته وقد لقيته وحدثته فهاجت احقادها علىليونور وعلمت انها لا تستريح من عنائها إلا بموتها .

وهنا ظهرت على وجهها ملامح التهديد الهائل حتى ان بيانكا ارتعشت له وباتت تخاف أمها ، فقالت لها :

ـ ما بالك يا ابنتاه ؟ وما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟

قالت : لأني افتكر بهذا الرجل الذي حدثتني عنه والذي كنت تخافينه فلا تخشي شيئاً بعد الآن .

وعند ذلك استرسلت بأفكارها الى بمبو ، فقالت في نفسها :

ـ نعم ، انه قد قتل بمبو ، فمن عساه ان يقتل بعده ؟

وفي تلك الساعة دخلت خادمة غرفتها ، فقالت :

يوجد ، يا سيدتي ، رجل يريد ان يراك .

ـ من هذا الرجل ؟

ـ انه لا يقول إسمه .

ـ هل أتى هذا الرجل من قبل الى هنا ؟

ـ لم استطع ان أبين وجهه ، فانه كان يخفيه بردائه .

فخطر لأمباريا ان هذا الرجل رولاند إذ لا يأتي احد اليها متنكراً سواه .

فوقفت واسرعت الى المرآة فجعلت تنظم شعرها وتتجمل .

ولمن هذا التجمل ، وهي تعتقد ان القادم رولاند وكيف تتجمل له وهي تعتقـد انها تكرهه بملء جوارحها وانها تحب ساندريجو ، ذلك اللص الذي تريد ان تزوجه بنتها ، فقالت في نفسها .

ـ انه اذا كان رولاند لا يخرج حياً من هنا .

ومع ذلك فانها اخـذت تبالغ في التزين والتجمل كأنها تريد ان تطرح نفسها بين ذراعيه حتى تراه وقد نسيت بنتها لاشتغالها عنها بنفسها .

أما بيانكا فانها اضطربت وسألت ذاتها قائلة :

ترى من عسى ان يكون هذا الرجل المتنكر ، فلم يخطر لها انه رولاند بل تمثل لها وجه بمبو الذي لم يكن يخطر في بالها حتى تصاب من رعبها بما يشبة كابوس الحالم .

وكانت الخادمة قد تركت الباب مفتوحاً حين دخولها فرأت بيانكا من خلاله ذلك الرجل الذي استبطأ الخادمة فسار في أثرها ووقف في ذلك الباب ينظر الى بيانكا نظرات تكهربها من الرعب .

فتراجعت مذعورة وصاحت صيحة منكرة .

فالتفتت أمها عند ذلك وصاحت مثل صيحة بنتها قائلة :

من أرى .. بمبو ؟

فانحنى بمبو امامها وقال :

لقد سأمت الانتظار لأني مضطر الى الاسراع بمقابلة بنتك .

وبعد هنيهة كان بمبو وامباريا في قاعة لم تكن تستقبل الحظية فيها غير اخصائها فقال لها الكردينال :

ـ لماذا لم تبق هناك مع بيانكا ؟

قالت : اتسألني لماذا فاسمح لي ان اسألك ايضاً لماذا تقدمت حتى بلغت الى حيث تقيم ابنتي

فجلس الكردينال بجانبها وقال لها :

أرى انه يجب ان نتحدث ملياً بأعمالها ، فتفضلي بالإصغاء اليّ يا سيدتي ما زلت تريدين العودة الى الأبحاث .

***

يذكر القراء ان ساندريجو أخبر الكردينـــال بأنه عازم على الاقتران ببيانكا وانه يلتمس منه ان يتولى عقد قرانهما .

وقد صعق بيبو لهذا الخبر فأسرع بالقدوم الى قصر امباريا وهو لا يعلم ماذا تريد لاضطرابه

ولكنه حين رسا قاربه عند باب قصرها كان قد وضع الخطـة التي يجب ان ينتهجها .

وقد رأيناه يخبىء وجهه بردائه كي لا يعرفوه ، فان هذا الرجل كان يعرف جميع مداخل القصر ومخارجـه ويعرف الطريق المؤدية فيه الى حيث تقيم بيانكا .

فلم يكد يقيم هنيهة في قاعة الانتظـار حتى هاج شوقه الى رؤية بيانكا ولو قابلته بما كان يتوقعه من ظواهر الرعب .

وكان في نيته ان يكلم بيانكا امام امها ولكن دهشته بجمال الفتاة خلب لبه بحيث ان امباريا حين اخذت بيده وذهبت به الى تلك الغرفة تبعها ممثلا وهو لا يعلم كيف يسير .

أما امباريا فانها كانت تنظر اليه باندهال عظيم فلا تصدق انها تراه وتقول في نفسها :

ترى ، أكان يفتخر رولاند بانه قتله ام انه كان يدعى هـــذا الادعاء لمأرب خفي .

وفي الحالتين فقد خفضت منزلته عندها لأنه اضطر إلى الكذب والكذب سلاح الضعفاء .

ولم تجب الكردينال على اقواله الاخيرة بل سألتـه قائلة :

ألعلك كنت جريحاً .

قال : انا جريح ، كلا ايتها العزيزة فليس من يجسر على جرحي إلا في هذا المنزل .

ولكن غيابك .

كنت اتجول في ضواحي فينيسيا .

ـ كيف ذلك ، ألم تجرح في تلك الليلة التي حاولت فيها اختطاف ابنتي. ألم ينتزعها منك رولاند ؟

ـ من الذي روى لك هـذه الحكاية ؟

ـ رولاند نفسه .

ـ إذن لقد رأيته .

وأنت رأيته ايضاً كما يظهر .

أجل فاعلمي إذن اني رأيته وإن حياتنا جميعاً باتت في خطر .

فارتعدت امباريا وقالت اني عارفة بما تقول .

ـ ولكن الذي لا تعرفيه هو انه يجب ان نبالغ بالحذر وأن نتحـــد كل الاتحاد كي نستطيع مقاومته او اتقاء شره فاني لم انج منه اخيراً إلا باعجوبة من السماء ، فاذا وقعت في شركه مرة اخرى فلا مطمع لي بالنجاة .

وقد يسهل عليّ وعلى فوسكاري والتياري المقاومة فاننا رجال ومهما بلغ من بأس رولاند فانه رجل مثلنا وأما انت فانك امرأة ضعيفة مقيمة في قصر معتزل فمن يحمك الآن ؟

وكان يحدثها بهذه الاقوال وهو ينظر الى وجهها فاحصاً فعجب إذ لم يبد عليها شيء من علائم الرعب التي كان يتوقع ان يراهـــا وذلك ان امباريا كانت واثقة من حماية ساندريجو .

فلما رأى بمبو ما كان من سكينتها غير خطته فقال :

وفي كل حال يا سيدتي فان جميع الاحوال تقضي عليـك بان تكوني حليفتي .

فأجابته ببرود قائلة : سأفعل .

فهاج ثائر الكردينال وقال في نفسه : لتضرب الضربة الكبرى ، ثم نظر اليها وقال :

انك قد تجهلين يا سيدتي ما يكون مني إذا قدر لنا ان نكون عدوين .

ـ لماذا نكون عدوين ؟

ـ ذلك ما لا أتمناه ، ولكنه اذا حدثت حوادث قضت عليّ ان اعتبرك عدوة لي ووجب عليّ ان أعد عدتي للدفاع ، وإني مخبرك بماذا افعل .

ـ وانا مصغية اليك .

ـ اذن فاعلمي ان اول ما افعله اني القي في فم الأسد أي في ذلك المكان المعد للوشايات ورقة اعددتها من قبل وهي معي في كل حين .

واني قد استظهرت كلامها بحيث اني استطيع ان اتلوه عليك .

وهنا لا بد من إخبارك بأنه يوجد صديق لي لديه نسخة من هذه الورقة ، فاذا احتجبت عنه ألقى تلك الوشاية في فم الأسد .

أما وقد عرفت ذلك فاعلمي ايضاً انه لا يزال لأسرة كانديانو اصدقاء في مجلس العشرة ، ولا بد لك ان تذكري ايضاً ان رولاند لم يحكم عليه بما حكم إلا حين برهنت للقضاء انه قاتل عشيقك دافيليا ، أأنت مصغية لما أقول ؟

ـ كل الاصغاء .

ـ إذن لم يبق علي إلا ان اتلو عليك الوشاية التي أعددتها وهي مكتوبة بإنشاء وطني صادق . لا يجب إلا ان تجري العدالة في مجراها ، وهذه هي فاسمعي :

« انا صاحب التوقيع أتشرف بابلاغ مجلس العشرة ان احكامه العالية قد أخطأت في ليلة ٦ حزيران ١٥٠٩ ، فان قاتل النبيل المأسوف عليه لم يكن رولاند كما توهم بل كان امرأة تدعى امبــاريا ، وهي لا تزال في فينيسيا في

قصرها الواقع على الترعة الكبرى .

وقد سكت بيبو هنيهة بعد ذلك فرأى الرعب قد ارتسم على وجه امباريا فأتم حديثه فقال :

اني وضعت إسمي في آخر هذه الرسالة ، ولا بد للقضاة ان يسألوني فأؤيد ما كتبته بالقول ولا يشك أحد بصدق كلامي وانا من رجال الله وفي أرقى المناصب الدينية .

وأنت ذكية الفؤاد يا سيدتي ، فلا فائدة من اخبارك عن عاقبة هذه الوشاية ..

فاشتد رعب امباريا ، وتمثلت لها المشنقة حتى جعلت اسنانها تصطك فقالت :

كلا ان ما اسمعه منك ليس حقيقة بل هو حلم مخيف . كلا انك لا تشي بي هذه الوشاية الهائلة . وفوق ذلك فانك بهذه الوشاية تسيء الى نفسك كما تسيء اليّ .

ـ ربما كان ما تقولينه صحيحاً يا سيدتي ، ولذلك تعلمين دون شك ما يقدم عليه العشاق متى تمكن منهم القنوط ... انهم يقدمون على كل خطير ويستقبلون الخجل والعار والموت دون اكتراث ، وأنا من اولئك العشاق ..

إذن ماذا تريد ؟

فوقف بيبو وقال :

لا اريد ان تزوجي بنتك لساندريجو ، فان بيانكا لي .

فصاحت امباريا صيحة يأس وخبأت وجهها بين يديها ، فعندما رفعت رأسها كان بيبو قد توارى عن الانظار .

أما الكردينال فانه انصرف مطمئناً وهو يقول في نفسه .

اني سأمهلها ثلاثة أيام للتفكير ويفعل الرعب البقية فاني سأعود بعد ثلاثة أيام وتكون بيانكا لي .

فلما بلغ إلى البـاب وحاول الخروج منه رأى رجلاً خرج من قاعة الانتظار وعرف انه ساندريجو فنادى أحد الخدم وقال له :

خذ يا بني هذين الدينارين وأجبني .

فأخذ الخادم الدينـارين بلهف وانحنى أمامه بملء الاحترام فقـال له الكردينـال :

أرأيت هذا الرجل الذي كان في قاعة الانتظار ؟

— نعم يا سيدي .

— من هو ؟

— لا أعرف اسمه ولكنه يريد مقابلة السنيورا امباريا .

— أهو الآن عندها .

— دون شك .

— اني امنحك خمسين ديناراً اذا كنت تسهل لي سماع حديثهما .

— خمسين ديناراً ؟

— نعم ألم تعرفني ؟

— ومن لا يعرفك يا مولاي .

— اذن تعال إليّ في هذه الليلة انقدك المال .

— تفضل واتبعني .

فسار الخـادم يتبعه بمبو حتى بلغ الى غرفة ضيقة فوضع الخـادم أصبعه فوق فمه ودله على ستارة كانت تفصل بين هذه الغرفة وبين الغرفة المقيمـة فيها امباريا ثم تركه وانصرف .

فوقف بمبو وراء الستارة وجعل يصغي .

وكانت امباريا قد استقبلت ساندريجو بملء الارتياح بعد حادثتهـا مع بمبو فلما دخل اليها قال لها :

لقد أسرعت بالعودة اليك كما ترين .

قالت وأنا كنت انتظر عودتك بملء الجزع :

ـ قد كنت منهمكاً في ايجاد كاهن يعقد قراننا .

فاصفر وجه امباريا ولو بحث باحث في اعماق قلب هذه المحظية الغريبة الأطوار لرأى فيه بذور البغض والغيرة فانها باتت تحب هذا اللص الآن حتى انها أصبحت تغار من ابنتها عليه فقالت له :

لماذا هذا التسرع بالبحث عن كاهن .

ـ لأن لهذه المسألة خطورة عظيمة لديّ ولا سيما مسألة الحفلة إذ لا يوجد من يعرفني في فينيسيا ما خلا زعماء الجواسيس وهم لا يعرفون عني سوى اني من اللصوص ولذلك أردت أن تكون حفلة القران باهرة في أعظم كنيسة وان يتولى عقد قراننا أعظم كاهن .

ـ من هو هذا الكاهن .

ـ الكردينال نفسه فقد رضي أن يبارك عقد قران القائد ساندريجو وابنة امباريا .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول الكردينال نفسه .

ـ بمبو ؟ !

ـ هو بعينه .

وعند ذلك ابتسم ابتسام الظافر وقال :

انك تعجبين كيف انهم يعاملونني معاملة لا يعاملون بها غير ابن الدوج فستكون الحفلة في كنيسة سانت مارك فتنار بألف شمعة ويحضر صلاة الاكليل جميع القسس والرهبان وكل نبلاء فينيسيا والقائد العام ورئيس ديوان التفتيش ويعقد القرآن الكردينال نفسه فماذا تقولين .

ـ بمبو !

ـ نعم فقد تعهد لي بذلك .

— أهو تعهد لك ؟
— في صباح هذا اليوم .
ـ أكان يعلم اسم خطيبتك ؟
— نعم .

فوضعت امباريا يدها على جبهتها وذكرت مـا قاله لها الكاردينال منذ هنيهة وهو اني لا أريد ان تكون بيانكا زوجة ساندريجو لأنها لي .

فاضطربت في أمرها ولم تعلم كيف تحل هذا اللغز .

ورأى ساندريجو ما كان من اضطرابها وذهولها فقال لها :

— انك تنذهلين لذلك ولكن متى علمت ان بمبو مدين لي بالحيـــاة بطل انذهالك .

وعند ذلك اخبرها بإيجاز كيف انه انقذه من مغاور بيافا فأيقنت امباريا ان بمبو قد تقيد حقيقة بهذا الوعـــد ولكنه يضمر الشر في السر لمنقذه فاضطربت في أمرها ولم تعلم إذا كان يجب في هذه الحالة إنذار ساندريجو .

الى ان رأت ان لا بد من إخباره والاتفاق معه على مقاومة الكاردينال .

ولكنها لو أتيح لها النصر على الكاردينال بعد هـذا الاتفاق فما تكون النتيجة . . انها تكون زواج ساندريجو بابنتها فوازنت عند ذلك بين حالتيها فتمثلت لها المشنقة وتلك الحفلة الباهرة في كنيسة سانت مارك فلم تجد حلاً لهذه المشكلة إلا بإطالة الوقت كي تتمعن في امرها علها تجد مخرجاً من هذه المضايق الحرجة .

وعند ذلك أخذت تنادم ساندريجو وتغازله حتى فتنته فخرج بعد حين وهو يقول في نفسه .

ترى من هي التي أحبها أهي الام أم البنت

وكان بمبو وراء الستارة كما تقدم فرأى كل ما حدث وسمع كل ما دار بينهما .

فلما خرج ساندريجو زاح الستارة ودخل لفوره الى امباريا وهي لا تزال محاولة الشعر فذعرت ذعراً عظيماً ولم تفه بكلمة فقال لها بمبو .

لقد وقفت الان على سرك فانك تحبين ساريجو وتزاحمين بنتك فيه ولا تفتكرين الا ان يكون هذا الرجل لك وحدك اليس كذلك .

فتمتمت امباريا قائلة : هو ذاك .

قال : اذا كان ذلك فقد وجدت الحق الموافق .

ـ انت

ـ نعم فاعتبري ان كل ما قلناه كان لغواً وانسى وعيدي السابق ولنبق صديقين اثرين .

ـ نعم .

ـ او على ذلك يكون ساندريجو لك وبيانكا لي .

فارتعدت امباريا ولكنها قالت بصوت يتلعثم : نعم .

ـ اذن فاطمأني ولا تقلقي بعد الآن فان بنتك في وقت قريب لا تكون حائلاً بينك وبين من تحبين .

فتنازعت قلبها عوامل الأمومة وعوامل الغرام الى ان انتصر عامل الحب علي ذلك القلب الفاسد فقالت :

ـ نعم لقد رضيت .

فخرج بمبو عند ذلك سكران بخمرة الرجاء كما خرج ساندريجو من قبله سكران بخمرة الحب وهو لا يعلم الى اية المرأتين يميل .

٤٢

اسوار كوفونولو

لقد تركنا رولاند في خيمة الشيطان الأكبر وقد جذب المائدة اليـــه فكانت حائلا بينه وبين اعدائه وامتشق حسامه بينما كان جان مدسيس يصيح قائلا :

— خيانة .. خيانة .. إلي .

وقد بلغ صوته الى الجنود وجرد رولاند حسامه الطويل وجعل يدافع به عن نفسه فقتل ثلاثة من الذين تجرأوا على الصعود الى المائدة .

وكان يقاتل بيده اليمنى ويده اليسرى وراء ظهره مسندة الى قماش الخيمة وجان مدسيس يصيح باعوانه قائلا :

— اقتلوه اقتلوه .

فهجم عليه نحو عشرين رجلا فصاح بعضهم قائلين : لقد سقط .

وقال آخرون : لقد لقي عقابه .

وصاح الشيطان الأكبر قائلا : بل انه نجا ادركوه ، اقتلوه .

وقد أشار الى الجنود بيد تضطرب الى خرق قماش الخيمة .

ذلك ان رولاند بينما كان يقاتلهم بحسامه جرد خنجره بيده اليسرى ومزق به قماش الخيمة حتى اذا رأى الجنود تكاثروا عليـــه وأرادوا ان يبطشوا بـــه مرق من ذلك الخرق الذي فتحه مروق السهم وتوارى عن الابصار .

وقد جاء في اثره نحو مائة جندي ولكن انجاثهم ذهبت عبثا فعـادوا

الى قائدهم خائبين وكاد جان مدسيس ان يجن من غضبه فلم تبق كلمة من قاموس الشتائم حتى لفظها وهو يرغي ويزبد كفحول الجمال .

حتى إذا قنطوا من العثور بـه نام في خيمته ونهض عنـد الفجر فامتطى جواده وسار مـع بعض قواده الى كوفرنولو التي كانت أسوارها تبعـد عن معسكره نصف مرحلة .

وقد أسف أسفاً شديداً لفرار رولاند وارسل في أثره الجنـــود الى كل الجهات فلما عادوا اليه بالخيبة هز رأسه وقال :

– ان رولاند كانديانو تهددني واهانني إهانة لا تغتفر إلا بالموت على اني سأجده ومتى ظفرت به عاقبته بما عوقب به أبوه .

وعند ذلك انصرف الى مراقبة الأسوار وقد عزم عزمـــاً اكيداً على مهاجمتها في الغد او في اليوم الذي يليه .

على ان الحادثة التي جرت له مـــع رولاند هاجت عزيمته وعوّل على مهاجمة الاسوار في القريب العاجل لا سيما وان اقتراح فوسكاري قد يثني عقله فرأى ان يفتح هذه المدينة ثم يبدأ بتنفيذ ذلـــك الاقتراح بان يرسل الى فوسكاري فيخبره انه راض مبدئياً بالاقتراح ويسأله تعيين يوم ومكان الاجتماع .

فلما استقر رأيه على ذلك لم يعد يفكر إلا بإحراز النصر في هجومه .

وقد افتقد تلـــك الأسوار وفحصها فحص العارف الخبير فأيقن من إحراز النصر .

وفيما هو يراقب تلـك الأسوار ولم يكن يصحبه غـير إثنين من ضباطه تساقط عليهما الرصاص فأصيب احد الضابطين برصاصة قاتلة وجرح الآخر جرحاً بالغـــاً وأصيب جواد جان مدسيس برصاصة فقتلته فوثب عنه الى الأرض قبل سقوطه .

وعند ذلك التفت الى مـا حواليه فرأى رجلاً قد خرج من بين الادغال وقال له :

– جان مدسيس انـه لا يزال لديّ غـدارة وخنجر وانت لديك مثلي فالمتبارز إذا أحببت .

فصاح جان صيحة فرح حين علم ان هذا الرجل كان رولاند .

وهجم على رولاند واطلق عليه غدارته فأخطـأه وأطلق عليه رولاند فأصابه فسقط ذلك الرجل الحربي يتخبط بدمائه ثم أطبق عينيه .

فدنا رولاند منه وتمعن في وجهه فقال :

– انه لم يمت بعد ولكنه سيموت قريباً .

وعند ذلك فتح جان عينيه فقـال له رولاند :

– هل استطيع ان افيدك بشيء ؟

قال : اذهب لا أرحمك الله فلا اريد منك شيئاً .

قال : انك يا جان قد أردت عدائي في حين اني لم أكن أريد إلا ولاءك وبرهنت لك عن صدقي في هذا الولاء .

وقد خيرتك بين الجريمة والعقاب فاخترت الجريمة بحيث لم أجد بداً من تنفيذ العقاب وهكذا سأعاقب اصحاب اعدائي .

قال : إذا كان ذلك فما أبقيت لأعدائك .

قال : ان هؤلاء لا أريد ان أضربهم أمـا انت فاعلم اني قتلتك دون ان أكون حاقداً عليك لأنك كنت حائلاً بيني وبين اعدائي .

وعلى ذلك فاني أعيد عليك ما قلته وهو :

– أتريد ان افيدك بشيء واعلم يقيناً اني امتثل لكل ما توصيني به بملء الاخلاص .

فضحك جان ضحكاً عصبياً ذهب بحياته واطبق عينيه .

وبعد ذلك بربع ساعة علم المحصورون في تلك المدينة بوفاة عدوهم الكبير فقرعوا اجراس الكنائس وعلا هتافهم حتى بلغ عنان السماء ثم حملوه ودخلوا به الى المدينة فطافوا به الأسواق فرحين مستبشرين وهكذا كان دخول ذلك الفاتح الى قلعة كوفرنولو .

٤٣

رسالة من ارتين

كان بيبو وفوسكاري جالسين في سراي الحاكم يتحدثان بصوت منخفض .

وكان ذلك في صباح يوم بارد من أيام الشتاء بعد الحوادث التي ذكرناها في الفصول السابقة بعدة أيام .

وقد بدأ الدوج الحديث فقال : هوذا اسبوعين قد مضيا دون ان يعود ارتين قال اني أمرّ كل يوم فأسأل عنه ولم يرد منه شيء الى الآن .

— ولكن جان مدسيس غير بعيد الآن عنا فهو في مونتو وكان يجب على رسولنا ان يعود منذ اسبوع .

— هو ذاك ولكن يقـــال ان الثلوج تساقطت بغزارة في السهول وقد تكون سدت المنافذ .

— انظر الى هذه الأخشاب التي تحترق في الموقد يا بيبو فقد كانت شجرة راسخة الاركان فباتت الآن اخشاباً تحترق .

— دع هذه التصورات ايها الدوج العزيز فان سلطتك لا يتهددها احد .

فارتعش فوسكاري وقال: أأنت رأيت ايضاً ما رأيته من معنى احتراق هذه الأخشاب ؟

— كلا ، بـــل اني ترجمت فكرك ويسوؤني ان أراك حزين النفس ضيق الصدر في حين ان كل شيء في هذا الوجود يبسم لك .

فنهض الدوج وسار الى النافذة ثم أشار الى ببو ان يدنو منه فقال له : ماذا ترى من هذه النافذة ؟

فقال ببو : أرى مدينة عامرة ملؤها الجلال والمجـــد تناطح بقصورها السحاب وتضيء مصابيح قواربها في بحيراتهـــا الزرقاء كما تضيء النجوم في السماء ، وأرى ذلك الاسطول الضخم راسماً بقربها رسو الجبال فأقول في نفسي ان كل هذا لــــك ، ثم أرى اولئك الجنود الذين يسيرون الآن بتمام الانتظام إذا جاء دور حراستهم فأقول انهم لم يعينوا إلا لخدمتك .

فتنهد فوسكاري وقال : أما الذي أراه أنا من هذه النافذة فهو ذلـــك الجسر الهائل جسر التنهدات فاني ما وقفت مرة في هذه النافذة إلا اتجهت عيناي بالرغم عني فاذا رأيت اولئك البحارة يسيرون في قواربهم ويلتفتون الى شرفات القصر اقول انهم يصبون عليّ لعناتهم ،وإذا رأيت الجنود قادمون للحراسة اقول انهم قادمون للقبض عليّ ، فان النـــاس يعتقدون يا ببو اني ملأت فينيسيا ظلمـــاً وقد غصت السجون بهم حتى اني بتُّ اسمع تنهداتهم عن بعيد .

ألم أقبض على كانديانو وهو في نضارة مجده وكان ما تعرفه من عقابه فلا يمنع ان يقبضوا عليّ كما قبضت عليه .

— هذا الرعب يا سيدي فاني لا أجد مساغاً له .

— ذلك لأنك لا تريد ان ترى فان الدم يدعو الدم وقد قلت لك ان رولانـــد كانديانو يرود حولي حامـــلاً سيف القضاء ولا بـــد ان ينفذ بي هذا القضاء .

— ان رولاند لا يلبث ان يقع في قبضتنا .

— ولكنه الآن حرّ وانت تقول يا ببو انه لا مساغ لرعبي ولكني أرى منذ حين من نظرات الضباط المحدقين بي ما يرعبني .

— لماذا لا تقبض عليهم ؟

– واني كنت أرى في الحفلات التي أعدها كثيرين من النبلاء يتكلمون حولي همساً .

– لماذا لا يزال هؤلاء النبلاء في قيد الحياة ؟

– صبراً يا بيبو الى ان تمتلىء هذه الورقة التي أمامي من اسمائهم فانها كل يوم تزيد وسأضرب ضربة هائلة أدع فينيسيا خافضة الرأس عشرين عاماً .

ولكن لا بد لي قبل ذلك من أمرين احدهما القبض على رولاند فاني لا أزال أخافه ما زالت هذه العصابات تحت قيادته .

والثاني ان يقبل جان مدسيس محالفتي وعند ذلك تعلم مقدار قوتي ولا سيما حين يصبح جيش الشيطان الأكبر تحت أمرتي .

أعرفت الآن قدر جزعي بتأخر ارتين الشاعر عن الرجوع ؟

وعند ذلك دخل خادم وهو يحمل رسالة على صينية من الفضة وقال :

– ان بيار ارتين أرسل هذه الرسالة الى مولاي الدوج وهو لا يستطيع الحضور بنفسه لأنه طريح الفراش .

فأخذ الدوج الرسالة وانصرف الخادم .

فلم يكد فوسكاري يقرأ السطور الأولى حتى صاح صيحة يأس فاصفر وجهه وسقطت الرسالة من يده .

فألتقطها بيبو وقرأ هو ايضاً تلك السطور الأولى كما يأتي :

« الى مولاي الشهير العظيم حاكم جمهورية فينيسيا »

« مولاي »

« التمس من سموكم معذرتي فان ما سأقوله هائل حتى اني لا أكاد أجسر على قوله .

« فقد لقيت من الحزن في هذه السفارة ما أنهك قواي وهذا النبأ الحزن الهائل اقوله بكلمة وهي :

« ان جان مدسيس الشهير » .

فقال بمبو بلهجة قنوط ايضاً :

— أمات جان مدسيس ؟

قال : نعم وهذه هي الضربة القاضية عليّ فاقرأ كل الرسالة فاني أحب ان أقف على كل شيء فقرأ بمبو ما يأتي :

« ان جان مدسيس الشهير قد مات هذا الرجل الذي كنت عاقداً عليه كل آمـالي بين ذراعي فقـد أصيب صبـاح الثلاثاء حين اقترابـه من أسوار كوفرنولو بضربة خنجر وقيل انـه أصيب برصاصة غـدارة كانت القاضية عليه وكان يصحبه ضابطان فقتلا قبله .

وكان قـاتله رجل غريب عن كوفرنولو لا يعرفه احـد ولكن كثيرين قالوا انـه من أهل فينيسيا وأكد بعضهم ان هـذا الرجل الفينيسي هو ابن دوج فينيسيا السابق » .

فابتسم فوسكاري ابتسام القنوط وقال :

— رولاند كانديانو .

فقال بمبو : هذا الذي كتب في لوح المقدور .

قال : تمم قراءة الرسالة فقرأ بمبو ما يأتي :

« انه حين أصيب هذه الاصابة اضطرب نظام جيشه وكان الحزن عليه لا يوصف فسار ضباطه وجنوده الى كوفرنولو وهم يبكون وعادوا بقائدهم الأكبر الى معسكرهم ثم حملوه معهم الى قصره في مانتو وهناك دنوت منه وقلت له :

— مولاي انه لا بد لك من إجراء عملية جراحية في رجلك فتشفي بعد ثمانية ايام ونعم انه يبقى أثرها ولكنه أثر شريف وان كنت غير محتاج الى هذا الشرف » .

قال : حسناً فليحضر الاطباء .

وعند ذلك أقبل الاطباء وأعوانهم واصطفوا حوله وهناك لقيت منه ما لا يخطر في بال انسان .

فانه كان يحمل المصباح بيده بينما كان الاطباء يقطعون رجله .

وقد هربت كي لا أرى هذا المنظر ولكني لم ألبث بعد هنيهة ان سمعته يدعوني اليه فدخلت فرأيت ضباطه من حوله آسفين ورأيته قد أخذ رجله المقطوعة فجعل يلاعبها بيديه ويهزأ بنا .

ولكنه بعد ساعتين عاوده الألم الشديد وهذيان الحمى فأسرعت اليه وسمعته يكرر هذا القول :

« لماذا اخترت الجريمة على العقاب ، رباه هذا هو القاضي الأكبر قد حضر » .

فاضطرب فوسكاري وقال ، القاضي الأكبر .

فقال عبو : ذلك ما اقرأه في الرسالة .

ـ حسناً اتم قراءتك فقرأ عبو ما يأتي :

وعند الصباح عاد اليه رشده فكتب وصيته وبعد ذلك حاول ان يتكلم بشأن المعارك والحروب ولكنه لم يستطع فان الموت عقد لسانه ومات مأسوفاً عليه .

وكانت بقية الرسالة تتضمن تفاصيل ذلك الموت مما لا حاجة الى بيانه فلما أتم عبو تلاوتها اطرق مفكراً فلم ينتبه لا لفوسكاري وهو يردد هذا القول :

ـ يا للمصاب انها داهية دهماء فقال له :

ـ مولاي ما هذا الجذع فاني رأيتك صبوراً في أشد من هذه الملمات .

قال : ذلك لأن الكوارث وحدها كانت تنذرني .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

فوقف فوسكاري وجعل يجول في الغرفة ويردد قول جان مدسيس

هوذا القاضي الأكبر ، الا ترى يا بمبو شيئاً من الغرابة في ان يقتل رولاند كانديانو جان دي مدسيس ؟

ـ ولكن ذلك لم يثبت كل الثبوت .

ـ بل هو ثابت كل الثبوت .

ـ غير ان رولاند لم يكن له ادنى اتصال بجان مدسيس وقد كان في فينيسيا منذ اسبوعين وهو شريد طريد فكيف يتفق وجوده في معسكر مدسيس واذا اتفق ذلك فلماذا خطر له ان يقتله ؟

ـ لماذا الا ترى ان هذا الرجل وقف على نياتي.. اني لا أعلم كيف عرف ذلك ولكنني موقن انه عارف بمقاصدي وهو انما قتله لأنه يعلم بانه قد ينقذني فنهض بمبو وقال :

ـ يجب ان اعرف الحقيقة بتمامها وأنا ذاهب الآن تواً الى ارتين الشاعر وبعد ساعة اعلم ما يجب علمه .

ـ اذهب وعد في القريب العاجل .

فخرج بمبو مسرعاً وبقي فوسكاري وهو في اشد حالات الرعب .

* * *

قبل ان يرد كتاب ارتين بثلاث ساعات دخل رجل الى منزل هذا الشاعر فسأل عنه فقيل انه مسافر .

قال : حسناً فادخل اليه في غرفة اعماله وقل له اني آت من قبل الشيطان الاكبر .

فلم يسع الخادم الا الامتثال وبعد هنيهة عاد الى الرجل فادخله الى ارتين.

فلما رأى ارتين رولاند داخلاً اليه فرح فرحاً عظيما وقال له : الحق اني بدأت ان امل هذا الأسر .

قال : ألم يعلم أحد انك بقيت في فينيسيا ؟

ـ كلا

ـ ألم تخرج من المنزل مرة ؟

ـ لا في الليل ولا في النهار

ـ والمقيمون معك في المنزل ؟

ـ كانوا جميعهم يحسبون اني مسافر حتى نسائي مـــا خلا الخادم الذي ادخلك الي .

ـ حسناً فعلت .

وعند ذلك جلس رولاند وهو مطرق فقال له ارقين :

اتأذن لي بأن اسألك ؟

ـ سل ما تشاء .

ـ أرأيت جان مدسيس ؟

ـ رأيته .

ـ أحدثته ؟

ـ نعم .

ـ بمهمتي ؟

ـ بمهمتك .

ـ ماذا قال ؟ ماذا فعل ؟

ـ انك جالس قرب مائدة الكتاب فاكتب ما امليه عليك تعلم الحقيقة

ـ الى من تريد ان اكتب ؟

ـ الى الدوج فوسكاري .

ـ الى الدوج ؟

ـ لماذا الى الانذهال ألا يجب ان تخبره بما فعلت في سفارتك ؟

ـ لماذا لا اذهب اليه ؟

ـ لأنك مريض طريح الفراش ولأنه يستحيل عليك ان تبرح الفراش .

ـ اني لا افهم ما تقول .

ـ سوف تفهم ولكن قبل كل شيء يجب ان يعلم المقيمون في منزلك انك أتيت اليه سراً في الليل وانه يجب ان يعلموا بقدومك من بكائك وتألمك .

ـ بكائي وتألمي ؟

ـ نعم فاكتب الآن فاني املي عليك المعاني وانت تلبسها ذلك اللباس الجميل من اللفظ .

فأخذ ارتين القلم وتهيأ للكتابة فقال له رولاند:

ـ ولكني أريد ان تحرص على كل كلمة قالها جان مدسيس حين نزعه .

فوثب ارتين من مكانه وقد اصفر وجهه .

ـ ماذا تقول يا سيدي ؟

ـ اقول ان جان مدسيس مات قتيلا .

ـ جان مدسيس قتيل العلى حالم .

ـ نعم وأنا الذي قتلته .

فسالت دموع الشاعر ورأى رولاند انه مخلص في حزنه صادق في دموعه وجعل ينظر اليه نظرات اشفاق .

وبعد ساعة جفت دموعه ولكنه شعر بانحطاط عظيم فقال له :

ـ لم يبق حاجة الى الكذب فاني مريض حقيقة وسأكتب ما تمليه علي ثم أعود الى فراشي ولكن لماذا قتلت هذا الرجل واية اساءة اساءها اليك ؟

قال : انـــه لم يسيء إلي بشيء ولكنه حاول ان يوقف مجرى العدالة فسحقته تلك العدالة .

فلم يجبه على ذلك وقال له : اني مستعد للكتابة فتفضل باملاء ما تريد فاملى عليه رولاند ذلك الكتاب الذي قرأه فوسكاري وبيبو .

وبعد ان أتم كتابه نادى الخادم الذي يثق به وأمره ان يسرع بايصال الرسالة الى الدوج .

فأخذ الخادم الرسالة وتوارى عن الانظار .

وعند ذلك قال له رولاند :

ـ ان الدوج سوف يرسل اليك من يسألك .

ـ تظن ذلك ؟

ـ بل اني واثق منه وربما جاء بنفسه .

ـ لقد احسنت بأخبارك اياي فاني سأنام في قاعة الشرف ولكن ماذا يجب ان اقول للدوج حين حضوره .

ـ تعيد ما كتبته اليه وتضيف الى ذلك قولك ، انه في ليلة الوفاة رأى الضباط رجلاً قدم الى المعسكر كلهم يتحدثون به .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ رولاند كانديانو

ويذكر القراء ان رولاند لم يعرف ارتين بنفسه الا الآن فمضى في حديثه فقال ان رولاند كانديانو جاء الى معسكر الشيطان الأكبر وطلب مقابلته وهناك خاصمه ودعاه الى مبارزة لا تنتهي الا بالموت دون ان يعلم احد اسباب هذه المبارزة .

هذا الذي يجب ان تقوله للدوج اذا زارك او لمن يرسله .

والآن فاعلم ان هذه المقالة تهمني كثيراً ولذلك اريد احضرها دون ان يراني أحد .

قال : اذن ادخل الى هذه الغرفة المجاورة فليس بينها وبين هذه الغرفة غير حائط رقيق من الخشب .

وبعد هنيهة جعل الشاعر يبكي ويتوجع حتى تنبه له نساؤه واسرعن اليه وهن لا يعلمن انه قد عاد فجعلن يواسينه ويسلينه .

وما زلن على ذلك حتى دخل احد الخدم وقال :

ـ ان سيدي الكردينال في غرفة الاستقبال .

فأمر أرتين عند ذلك جميع نسائه بالانصراف ودخل الكاردينال في أثر انصرافهن .

وكان رولاند قـــد سمع الخادم يلفظ اسم الكاردينال فاصفر وجهه من الغضب واشتد قلقه فقال في نفسه :

— ترى ماذا حدث وكيف جاء الى فينيسيا وزار ارتين الشاعر وأنا قد تركته مقيداً في المغارة السوداء ؟

أما بيبو فانه جلس على كرسي قرب سرير ارتين وقال له :

— لقـد كنت في سراي الدوج حين وصلته رسالتـك فأرسلني اليك كي اسألك عن بعض أمور بشأن هذه الرسالة .

— انت ترى أيها الصديق اني مريض من هذا الحادث الأليم .

— إذن هو أكيد ؟

— دون شك واأسفاه .

— أرأيت بنفسك ان الشيطان الأكبر قد مات ؟

— لو لم أتأكد موته كنت اكتب للدوج ؟

— انها نكبة فادحة .

— عليّ ايها الصديق ؟

— بل على الجميع .

فأطرق بيبو مفكراً مهموماً ولم يكن همه لوفاة جان مدسيس بل لأن رولاند قتله فقال له :

— اخبرني ايها الصديق بتفاصيل هذه الوفاة .

فاندفع الشاعر يصف له ما كتبه في الرسالة حتى إذا أتم كلامه قال له الكاردينال :

— هذا الذي اريد ان اعلمه منك فقد قرأتـه في رسالتك ولكن خفي عليّ بعض أمور في تلك الرسالة أحب ان افهمها منـك .

— سل ما تشاء .
— لم تقل لجان مدسيس شيئاً بشأن المهمة التي انتدبناك فيها ؟
— كلا .. فقد أتيت بعد فوات الأوان .
— إذن لقد مات دون ان يعلم السبب في زيارتك ؟
— نعم .
— فيستنتج من ذلـك انه هو نفسه لم يستطع ان يقول كلمة لأحد قبـل موته عن مقاصد فوسكاري .
— هذا لا ريب فيه .
— إذن لنبحث في شأن آخر أي في شأن قاتل الشيطان الأكبر .
— سل ما تشاء .
— إن قاتله كان دون شك جندياً من جنود الاعداء ؟
— كلا .. فاني أعيد على مسمعك ما كتبته الى الدوج وهو انهم كانوا يجهلون في المعسكر هذا القاتل وأما في كوفرنولو فهم يؤكدون ان قاتله كان ابن دوج .
— اذكر اسم القاتل .
— نعم لقد أكد بعض الضباط انه ذلك الرجل الذي استقبله في خيمته ليلة وفاته وجرى بينهما حديث أدى الى الخصام .
— ما اسم هذا الرجل ؟
— رولاند كانديانو .
فارتعش بمبو كأنه لم يكن يتوقع ان يسمع هذا الاسم وبدت عليه علائم الرعب ولكنه رأى ارتين ينظر اليه فخجل وقال :
— قل لي الآن ايها الصديق ألم تخبر احداً بمهمتك قبل سفرك ؟
فتردد ارتين لحظة وقال : كلا .
غير ان الكاردينال انتبه لتردده فدنا منه وقال :

ـ ويح لك ايها الشقي انك بحت بالسر .

ـ معاذ الله ان افعل واني أقسم لك على صدقي فيا أقول .

فأخذ الكاردينال يده فهزها وقال :

ـ أتعلم من كان سكرتيرك ؟

ـ أي سكرتير تعني ألعلك جننت .

ـ ذلك السكرتير الذي طالما سألتك عنه فلم تعرف شيئاً من أمره حتى انك كنت تجهل اسمه أتعرف من هو ؟

ـ أقسم بشعر مرغريتا اني لا اعرفه .

ـ أين هو وماذا جرى له ؟

ـ إنه اختفى ليلة سفري .

ـ إذن فاعلم ايها المجنون ان هذا السكرتير يدعى رولاند كاندليانو .

ـ أية غرابة تجد في ذلك إذا كان أكيداً وبماذا يستطيع ان يسيء إليّ وماذا تهمني اعمال هذا الرجل وهو قد سافر ولا فرق عندي بين ان يعود او لا يعود ؟

والذي يهمني في كل ذلك اني خسرت جان مدسيس وخسرت الفين وخمسمائة ريال كنت ارجو ان اقبضها عند رجوعي .

ـ اصغ إليّ يا ارتين أتريد ان تقبض هذا المبلغ الذي حسبت انك فقدته ؟

ـ كيف لا أريد ؟

ـ بل أتريد ان تقبضه مضاعفاً مرة بل مرتين ؟

ـ ماذا يجب ان افعل مقابل ذلك ؟

ـ لا شيء تقريباً فقد قلت ان سكرتيرك رولاند قد يعود .

ـ ربما فهو الذي قال لي هذا القول .

ـ إذن كل ما يطلب منك هو ان تحسن استقباله حين عودته وتحمله على البقاء معك ساعة او ساعتين .

ـ ليس ذلك صعب .

ـ وعند حضوره توسل الى من يخبرني ولا أخالك تتردد .

ـ كلا .. فاني ما عرفت هذا الرجل ولا أريد ان اعرفه ولا فرق عندي بين ان تقتلوه او تعفوا عنه ولذلك ارسل اليك من يخبرك حين قدومه .

ـ وفي اليوم نفسه تقبض عشرة آلاف ريال وإذا أردت فاذهب الآن الى الخزينة واقبض الف ريال .

ـ كيف ذلك ألعل الخزينة بيدك ؟

ـ نعم وسأغنيك ايها الصديق بشرط ان تخدمنا هذه الخدمة الجليلة .

ـ إذن اعتمد عليّ .

فودعه الكاردينال عند ذلك وذهب توا الى الدوج فقال له الدوج : ماذا علمت أعرفت قاتل مدسيس ؟

ـ انك لم تكن مخطئاً يا مولاي .

فاصفر وجه فوسكاري وقال :

ـ إذن هو رولاند كانديانو ؟

ـ هو بعينه ولكني عرفت من ارتين أمراً آخر يصلح كل مـا افسده رولاند .

ـ أسرع وقل ماذا علمت ؟

ـ علمت ان رولاند سوف يكون قريباً في قبضتنا .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك ان لرولاند علائق بأرتين .

ـ ماذا يرجو من علاقته بهذا الشاعر ؟

ـ لا أدري وكل الذي اعلمه ان لرولاند علائق بأرتين وانه قد يعود اليه .

ـ وعند ذلك ؟

ـ نقبض عليه .

فهز فوسكاري رأسه وقال :

ـ انك واهم يا بمبو فاننا لا نقبض على رولاند وقلبي يحدثني بأنه سيقبض علينا وحسبك دليلاً على ان الأقدار قد باتت علينا لا لنا قتل .. قتل جان مدسيس وان قاتله هو رولاند .

فأجابه بمبو بلهجة تبينت فيها السكينة . :

ـ ما حسبت انك فشلت إلا لأنك استرسلت الى حديث النفس وتشاءمت من بعض الحوادث على انك لو دافعت لنجوت وحالتنا الآن بسيطة لا تحتاج الى الإمعان إذ هي موقوفة على الجرأة فاذا بدأت بمهاجمة عدوك كنت الفائز عليه لا محالة وإذا صبرت كان الفوز له فتدبر .

ـ ماذا أعمل يا بمبو انك مستشاري الوحيد الذي أثق بصدق اخلاصه فبماذا تشير عليّ فانك ما زلت قائدي في مهام الأمور .

ـ ذلك لأني متعلق بك فلا بد لي ان اتبعك في حالتي هنائك وشقائك .

وانك تكلمني عن الاخلاص والوداد وهما كلمتان لا أفهم لهما معنى فان عظمتك خير ضامن لي وأنا لا اعتمد إلا بالقوة والإرادة ولذلك وثقت بي كما أثق بك لأننا باتحادنا نؤلف قوة وأنا على اليقين اني لو تخليت عنك كنت في خطر وكذلك لو تخليت عني فلا آمن على نفسي إذن لنتفق ولنبحث فيما يجب ان نعمله على قاعدة هذا المبدأ .

ـ نعم يا بمبو اني على مبدئك ولي بك ملء الثقة فأسر عليّ ما يجب ان افعله .

قال : ان الأمر بسيط يا سيدي .

ثم نهض الى المائدة التي كانت عليها تلك القائمة المبينة فيها اسماء الموشى بهم فاكتفى بالإشارة اليها .

فقال الدوج وقد أدرك قصده :

ـ ولكن ذلك يقضي الى ثورة ؟

ـ اني عالم ذلك يا سيدي ولكنك متى اتخذت وسائل الاحتياط أمنت الثورة فهل انت واثق من الجنود ؟

ـ نعم فان التياري مخلص لي .

ـ ذلك غير عجيب منه فانه هو ايضاً لم يقر إلا بفوزك فاعلم إذن ماذا يجب ان نفعل .

انه يجب منذ اليوم ان تدعو التياري وتتفق وإياه على سجن المشتبه بهم ويجدر في هذا المقام ان يعرف دندولو جلية الأمر كي يسبر غور مجلس العشرة ويقف على نواياهم فاذا وجدنا بينهم من يتردد وجب علينا ان نبدأ بهم .

فاستحسن الدوج هذا الرأي وكتب لفوره رسالتين إحداهما الى التياري والأخرى لدندولو ثم أرسلهما اليهما .

وعند ذلك نهض بمبو يحاول الانصراف فودعه الدوج ولما بلغ معه الى الباب قال له :

ـ ورولاند ؟

قال : اني اتعهد به .

٤٤

المطاردة

كان بمبو يعرف طباع فوسكاري حق العرفان ولذلك غادره في الحالة الفكرية التي أراد ان يضعه فيها وانصرف عنه وهو يفكر برد تحيات الناس على الجانبين ويباركهم بيده الطاهرة .

حتى إذا سار بضع خطوات لقي امرأة يحيط بها اولادها وقد اعترضت الكاردينال بطريقه وركعت أمامه وضمت يديها شأن المتوسل .

فقال لها : ماذا تريدين ايتها المرأة ؟

قالت : انهم قبضوا على زوجي في هذه الليلة وسنموت جوعاً وليس لنا معين غيره .

ـ ماذا جنى زوجك ؟

ـ وماذا عسى يجنيه يا مولاي فهو رجل لا يفتكر إلا بأشغاله التي يكسب منها قوت بنيه فيخرج عند الفجر ويعود الينا عند غروب الشمس يا مولاي وقد أتيت كي التمس إطلاق سبيله فان كلمة منك تنقذنا .

وكانت مثل هذه الحادثة تتفق لبمبو في كل يوم فيهز كتفيه ويقابل من يتصدى له بالاعتراض .

وقد حاول هذه المرة ان ينهج مع هـذه المرأة ذلـك النهج الذي تعوده ولكنه نظر الى ما حواليه فرأى كثيرين من الناس قـد وقفوا ينظرون الى المرأة وبنيها نظرات إشفاق وينظرون اليه نظرات رجاء فخطر له خاطر فجائي ونظر الى المرأة الراكعة أمـــامه تبكي نظرة المشفق وقال بصوت المتوجع :

ـ مسكينة هذه المرأة واولادها ثم قال لها:

ـ أتقسمين لي ان زوجك لم يرتكب جناية ؟

قالت : أقسم بالله يا مولاي انه بريء من كل ما يمكن ان يتهم به فما هو من أهل الشر ولكن هي وشايات المفسدين .

قال : انهضي ايتها المرأة فان زوجك يطلق سراحه اليوم فاننا عائشون في ظلال العدالة بفضل فوسكاري العادل .

فصاحت المرأة وصاح الجميع قائلين :

ـ ليحيا فوسكاري . . ليحيا الكاردينال .

فانصرف الكاردينال وهو يهزأ بهذا الشعب الهاتف ويقول في نفسه .

ـ تباً لهذا الشعب ما أشد جهله وما أسهل قيادة الشعوب فانه ينسى

الف إساءة بإحسان واحد ، فيا ايها البلهاء انكم تستحقون تلك القيود التي نقيدكم بها .

ثم ابتسم ابتسام الاحتقار وواصل سيره وهو يقول :

ـ ان فوسكاري شديد الضعف حين يتوقع السقوط ولكنه شديد القوة حين يرجو الفوز حتى انه لا يغلب ، ولذلك وجب ان ازيد بـه هذه الآمال وما عفوت عن زوج هذه المرأة إلا لأسمعه هتاف الشعب له .

وقد عاد الى قصره وهو يفتكر بهذه الأمور فكتب بضع رسائل وفي المساء ارتدى بملابس الفرسان وحاول الذهاب الى امباريا فان فيانكا وأمها كانتا متمثلتين في ضميره كساندريجو ورولاند .

ولم يسر اليها بطريق الترعة بل سار في طريق البر ولعله أراد بذلك ان لا ينبه اليه الأنظار وان يطيل الوقت كي يفتكر .

وفيما هو يسير في طريق ضيق رأى رجلاً يسير الهوينا على مسافة عشرين خطوة فارتعش إذ خيل له انه عرف هذا الرجل من قامته ومن مشيته .

وعند ذلك التف بردائه حتى انـــه ستر به وجهه وأسرع الخطى حتى تجاوز الرجل ونظر الى وجهه فقال انه ليس هو .

ثم ترك الرجل يتجاوزه فلم يسر امامه بضع خطوات حتى عاوده الشك وعاد الى إقتفاء أثره وهو يقول :

ـ لا شك ان هذا الرجل رولاند كانديانو فقـد عرفته من قوامـه ومن طريقة سيره .

ونعم ان الوجه غير وجهه ولكن أكان الوجه وجه رولاند حين لقيت سكرتير ارتين ؟ وهل كان الوجه وجهه حين قادني الى السفينة ؟ وهل كان كذلك حين لقيته في المغارة فاذا كان قد تنكر في تلك الحوادث ألا يمكن ان يفتكر ايضاً الآن .. نعم انه هو بعينه وليس في ذلك أقل ريب .

وقد جعل قلب بيبو يخفق خفقاً شديداً وأخذ ينظر الى مـا حواليه وقد

هجم الليل فلم يرَ احداً فاشتد رعبه وهلع قلبه من الخوف إذ خطر له ان رولاند قد عرفه وانه سيعود اليه .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن إذ قال في نفسه :

ـ ان رولاند قد قتل الشيطان الاكبر ولم يعد الى فينيسيا إلا اليوم كما عاد ارتين أي انه لم يتمكن من الذهاب الى المغارة فيعلم هربي منها فهو إذن يعتقد اعتقاداً راسخاً اني سجين وسأقبض عليه دون شك .

وعند ذلـك وصل الى منعطف فرأى اثنين من الجواسيس كان يعرفهما وهما واقفان قرب خمارة يصغيان الى حديث العمال فدنا منهما وعرّفهما بنفسه وقال لهما بضع كلمات سرية فانحنيا وتوارى احدهما عن الانظار وهو يركض أما الثاني فجعل يسير في أثر بمبو .

أمـا الرجل الذي حسب الكاردينال انـه رولاند فانه كان يسير بملء السكينة فيجتاز الطرقات والجسور الى ان وصل الى منزل على الشاطىء فنظر الى ما حواليه ولم يرَ ما يحمله على الريبة فدخل الى ذلك المنزل .

وبعد هنيهة عاد الجاسوس الذي كان قد ارسله برجلين فصار حول بمبو أربعة رجال مسلحين .

فاشتد خوف بمبو بنظر هؤلاء الرجال الاربعة بدلاً من ان يطمئن وقال في نفسه :

ـ ان من الجنون محاولة القبض على مثـل رولاند بمثل هؤلاء الاربعـة ولكنه قال ايضاً ان الفرصة صالحة وإذا هاجمه اولئـــك الجواسيس فإنما يخاطرون بأنفسهم ولا خطر عليّ في شيء .

ولذلك قال لهم : اني امنح كلاً منكم مائة دينار إذ تمكنتم من أسر هذا الرجل الذي رأيتموه دخل الى هذا المنزل .

فبرقت عيونهم من السرور وقالوا بصوت واحد : هلموا اليه .

فاستوقفهم بمبو قائلاً :

ـ ان هذا الرجل شديد القوة ويجب ان تحذروا لانفسكم
فابتسموا ابتسام الاستخفاف وقال أحدهم :
ـ أتريد أن نأتيك به حياً أو ميتاً ؟

قال: لا فرق في ذلك عندي فاذا قتلتموه لا جناح عليكم بل اني أكافئكم ولكن يجب ان تعلموا أن الرجل سيدافع عن نفسه وهو شديد كما اخبرتكم فقد يقتل احداً منكم .

قالوا : انها مهنتنا واذا لم نعرض انفسنا لخطر الموت فكيف نستحق المكافأة .

قال : اذا جرح أحدكم فأني أضاعف جائزته وإذا قتل لا سمح الله أغنيت عائلته .

فتحمسوا لقول الكاردينال وقالوا : هلموا بنا اليه .

وبعد ذلك ساروا الى ذلك المنزل فبلغوا إلى سلم خشبي فصعدوا عليه غير هائبين .

ولم يكن هذا المنزل مؤلفاً الا من طابقين فوقفوا عند الطابق الاول مترددين وكان هناك بابان فجعلوا يتنصتون عند كل باب فلم يسمعوا صوتا فواصلوا صعودهم الى الدور الثاني .

وهناك لم يجدوا غير باب واحد فاصغوا منه فسمعوا وقع خطوات موزونة مستمرة فايقنوا ان الرجل فيه .

اما بمبو فقد كان واقفاً عند مدخل المنزل وهو خافق القلب مضطرب الأعضاء ينظر الى نافذة عالية كان ينبعث منها نور ضعيف .

غير أن هذا النور اطفىء فجأة فأسرع الجواسيس الاربعة الى إنارة مصباح يظهر نوره ويختفي حسب مشيئة صاحبه .

وأدخل أحدهم خنجره في قفل الباب يحاول فتحه ووضع الاثنان كتفيهما على الباب ودفعاه بعنف .

* * *

كان هذا الرجل الذي تبعه بمبو رولاند ولا ندري اذا كان علم بانهم يتبعونه فانه كان مشغولا عن ذلك بالتفكير بليونور فان عودته الى فينيسيا جددت في نفسه ذلك الحب الأول الذي توهم انه نسيه وهو لا ينسى .

وكان قد حاول ان ينقض على بمبو فيقتله حين رآه في منزل ارتين ولكنه سكن روعه اذ لم يكن قرر في خطته قتل هذا الرجل في الحال .

فلما انصرف الكاردينال خرج رولاند من الغرفة التي كان مختبأ فيها فقال له ارتين :

ــ العلي تكلمت بما ينطبق على نواياك ؟

قال : نعم

ــ ماذا يجب ان اصنع بشأن ما اقترحه علي الكاردينال ؟

ــ أي اقتراح تعني؟

ــ ان أخبره حين تأتي إلي .

ــ يجب أن تخبره لأني لا أحب ان تخسر ذلك المال الذي وعدك به غير اني أعين أنا ذلك اليوم الذي يجب ان تخبره فيه بأني عندك وان تبالغ بالكتمان الى ان يحين ذلك اليوم .

وعند ذلك تركه وانصرف وفي نيته ان يجد سكالابرينو ويذهب وإياه الى المغارة السوداء .

وقد ذهب الى المنزل الكائن في الميناء فلم يجده فقال في نفسه :

عجباً اين هو فقد مضت مدة الاجازة التي منحته اياها فما عسى ان يكون حدث فان بمبو قد نجا وسكالابرينو غائب وقد يكون قتيلاً فلأذهب الى المغارة السوداء لاقف على الحقيقة .

وعند ذلك غير تنكره وسار فمر بقصر التياري فارتعش وانتفض انتفاض العصفور وعاودته ذكرى ليونور فاشتد بــه اليأس وجعل يناجي نفسه فيقول :

ـ ترى اية فائدة لي من الانتقام ما زال قضي علي ان لا أرى ليونور واذا رأيتها عن بعد زادت الامي .

نعم اية فائدة بقيت لي من الانتقام ومن المجد ومن الحياة ، نعم ان الموت أفعل معين لي على النسيان ولا بد لي من الموت اذ لا استطيع ان أعيش بهذه الذكرى .

وقد جعل يسير دون ان يقصد جهة معينة وهذه الافكار تتنازعه فمر ببيت الجزيرة وبقصر دندولو وسار الى كل مكان له فيه ذكرى من ليونور دون أن يريد فان الحب كان يقود خطواته .

وما زال على ذلك حتى اقبل الظلام فعاد الى ذلك المنزل الحقير الذي ماتت فيه أمه اذ كان ملجأه الوحيد في فينيسيا وجعل يسير فيه ذهاباً وإياباً وهو يفتكر تارة بفوسكاري الذي ضربه تلك الضربة الشديدة وتارة بالكردينال الذي نجا منه .

وفيما هو على ذلك سمع صوت كسر الباب ثم رأى الباب قد فتح فأسرع الى إطفاء المصباح وتراجع الى جهة النافذة .

أما الجواسيس الاربعة فقد دنو منه والخناجر مجردة في أيديهم فقال له أحدهم : سلم ان أردت الحياة .

فأجابه رولاند بضربة ابقته بعيداً عنه قدر مترين .

فهاج ثائر الجواسيس الثلاثة وهجموا هجوم المستميت على رولاند ونهض الرابع من سقوطه واندفع معهم بعامل الانتقام فايقن رولاند انهم سيتبعونه في هذا المكان الضيق المظلم ورأى من الحكمة ان يلبث في موقفه وان يتخذ خطة الدفاع الى أن يبطش بهم الواحد تلو الآخر .

وفيما هو على ذلك اذ سمع صيحة ارتجت لها جوانب الغرفة ورأى رجلا هائل الجثة قد انقض على هؤلاء الجواسيس انقضاض الصاعقة فالقى الرعب في قلوبهم وهجم على النافذة ففتحها ثم عاد الى أول من لقيه من الجواسيس

فحمله بيده كما يحملون الاطفال والقاه من تلك النافذة فتحطم جسمه على بلاط الشارع .

وعاد الى الآخرين وقد هلعت قلوبهم من الرعب ولم يجدوا للفرار سبيلا فجعل يلقي الواحد تلو الآخر من تلك النافذة حتى القى الأربعة .

وعند ذلك صاح رولاند قائلا :

ـ سكالابرينو ؟

قال: نعم يا مولاي انا هو وقد أتيت قبل فوات الاوان كما يظهر فلنسرع الى الفرار .

فوافقه رولاند على الهرب واسرعا بالنزول من ذلك المنزل ولكنهما لم يبلغا آخر السلم حتى وجدوا الطريق غاصة بالجنود وقد طوقت المنزل من جميع جهاته وسمعا صوت بمبو يلعلع في ذلك الفضاء ويقول :

ـ ادخلوا جميعكم واقتلوا كل من تجدونه .

فقال سكالابرينو : يا للهول .

وقال رولاند : لنخترق جموعهم .

فقال له سكالابرينو : كلا يا مولاي لنعد فاتبعني .

اما بمبو فقد كان واقفاً عند باب المنزل ينظر النتيجة وعيناه شاخصتان الى النافذة المضيئة وفكره يتبع الجواسيس الاربعة فيقول :

ـ انهم صعدوا ، لقد بلغوا الدور الأول، صعدوا ايضاً، الآن وقفوا عند الباب ، لقد كسروه ، دخلوا ، ان النور قد انطفأ وقد بدأوا القتال .

وقد بدأ عند ذلك قليلا وجعل يراقب فرأى ان النافذة قد فتحت فجأة وان جسما قد القي منها فارتجف سروراً وقال في نفسه : لقد القوه من النافذة واسترحت منه .

وعند ذلك جثا أمام الجسم الملقى كي يمتع عينيه بمنظر عدوه ويقول له كلمة تشف قبل موته .

ولكنه لم يلبث ان رآه حتى صاح صيحة رعب قائلا : انه ليس هو فما هذا الشيطان الرجيم .

وبعد هنيهة سقط رجل ثان فثالث فرابع فتيقن الكاردينال من فوز رولاند وجعل ينتف شعره من قهره ويقول :

ــ الويل لنا جميعاً فقد نجا هذه المرة ايضاً .

وفيما يحاول الهرب رأى طائفة من الجند مقبلة فأسرع اليها وأخبر قائدها بجلية الأمر فامتثل الجند له وطوقوا المنزل .

أما رولاند وسكالابرينو فأنهما عـــادا الى المنزل فكان رولاند يتبع سكالابرينو وهو لا يعلم قصـــده فذهب به الى الغرفة الثانية التي كانت تستخدمها جوانا للطبخ فركع قرب المستوقد وجعل يعالج باباً سرياً كان مطلياً بالطين كي لا يظهر بينما كان الجنود من الخارج يحاولون كسر الباب ورولاند واقف وقفة المتأهب للموت وبيديه غدارتـين دون أن ينتبه الى سكالابرينو الذي كان يشتغل بعنف شديد .

وعند ذلك كسر الجنود الباب ودخل أشدهم جرأة فاطلق رولاند عليه النار فصرعه .

ثم دخل آخر فكان حظه حظ رفيقه وفرغت الغدارتان فجرد رولاند خنجره وقد ايقن من دنو ساعته الأخيرة .

ولكنه انتبه لصوت سكالابرينو الذي كان يقول :

ــ لقد فتح الممر فاسرع يا مولاي .

فدنا رولاند منه فوجد منفذاً يتسع لأكثر من انسان .

فقال سكالابرينو :

ــ اسرع يا مولاي بالمرور .

قال : كلا بل مر انت قبلي .

فأيقن سكالابرينو ان جداله محـــال وتقدمه في ذلك الممر فتبعه رولاند وجعل يسير الى الوراء ووجهه المنفذ .

وعند ذلك دخل جميع الجنود ورأوا انهما هربا من ذلـك المنفذ فوقفوا حائرين الى ان دفعت الجرأة او الجنون احدهم الى ولوج ذلك الممر فما سار فيه بضع خطوات حتى فاجـــأه رولاند بضربة خنجر فخر صريعاً وسدت جثته ذلك المنفذ .

فسار الإثنان آمنان في رواق طويل انتهيا منه الى سلم وبعد خمس دقائق كان الإثنـــان في شارع مقفر غير مأهول ، فتنهد سكالابرينو تنهيدة ارتياح وقال .

– اني فتحت هذا المنفذ منذ عشرة اعـــوام كي أتمكن من الفرار إذا طاردني الجنود فهل كان يخطر في بال احد ان ابن الدوج يستخدم هذا المنفذ؟

فأجابه رولاند : ذلك يدل على بعد نظرك وتحسبك للعواقب فهلم بنـا وستخبرني في الطريق عن كل ما حدث لك .

* * *

ولنعد الآن الى سكالابرينو وطريقة نجاته فلقد تركناه في اشد مواقف الخطر ولم يبق بينه وبين الموت غير لحظة كما تركنا ساندريجو وصاحب الخمارة يصغيان عنـد باب القبو يسمعان آخر كلمة يقولها ذلـــك المنكود من كلمات نزعه .

أما سكالابرينو فقد كانت المياه ترفعه تباعاً الى ان وصل الى آخر درجة من درجات السلم فألقى نفسه في المياه وقد عزم عزماً اكيداً على الموت .

ولكن حب الحياة تغلب عليه فصعد وجعل يسبح حول جدران القبو الى ان علقت يده بتلك النافذة التي كانت تدخل منها المياه .

وقد اشتد رجاؤه حين شعر ان تلك القضبان الحديدية تضطرب بين يديه فانها كانت قديمة العهد وقد خلخلتها المياه وتقادم الأيام .

فأسند رجليه الى الجدار وجعل يشد قضبان النافذة بما أوتيه من القوة البدنية الهائلة فلم تكن غير دقيقة حتى كسر قضيباً .

وعند ذلك خرج من المنفذ الى الترعة وبذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من الصعود الى سطح المياه حتى إذا أيقن من السلامة تنفس الصعداء وذهب الى المنزل فغيَّر ملابسه .

وقد روى سكالابرينو لرولاند كل حكاية سجنه حتى إذا أتم حكايته قال له رولاند :

— ولكن لماذا ذهبت الى خمارة مرسي الذهب وأي شأن لك فيها ؟

فسالت دمعتان من عيني سكالابرينو وروى له حكايته بالتفصيل وهما يمشيان الى ان بلغا الجزيرة فدنا رولاند من بيت ليونور وقال له سكالابرينو :

— ألم تقل لي يا مولاي ان هذا المنزل مشتبه به ؟

قال : لقد كان كذلك أما الآن فقد انقطعوا عن مراقبته ومع ذلك وسوف نرى .

ولما وصل الى الباب طرقه فأقبل الخادم العجوز يحمل بيده مصباحاً وقال : من الطارق ؟

فأجابه رولاند قائلاً : ألعلك نسيت جان لورنزو سيدك الجديد ؟

قال : أسألك العفو يا سيدي ثم مشى أمام سيده الى المنزل وأنار بضعة مصابيح .

وقد لاحظ رولاند ان يدي الشيخ كانتا تضطربان وانه كان ينظر اليه نظرات غريبة فقال له :

— كيف ذلك ألم تعرفني بعد ؟

قال : لقد عرفتك يا سيدي من صوتك أما وجهك فما هو وجه جان لورنزو .

— هو ذاك فاني أحب ان أغيّر وجهي من حين الى حين .

فهز الشيخ رأسه وسكت .

فقال له رولاند : أرى انك تريد ان تقول شيئاً تخشى ان تقوله أمام هذا الصديق فقل أمامه ما تريد قوله .

فقال الشيخ : أقول يا مولاي ان وجهك اليوم غير وجهك يوم كنت تدعى لورنزو .

فضم سكالابرينو قبضته فقال له رولاند :

— اني اعرفه يا سكالابرينو منذ عهد بعيد فهو لا يخون رولاند ولا بد ان يكون هناك سبب خطير دعاه الى قول ما قاله وسيوضحه لنا .

فقال الشيخ : هو ذاك يا سيدي رولاند .

فارتعش رولاند إذ رأى ان الخادم قد عرفه وناداه فجأة باسمه وقال له : تكلم .

قال : لقد رأيت أمس السيدة ليونور .

فأجابه رولاند بصوت أبح قائلاً :

— هل عادت الى هنا ؟

— كلا .. ولكنها دعتني اليها في قصر التياري وهناك اخبرتني بكل شيء يا مولاي فعلمت منها حقيقة اسم جان لورنزو وعرفت كل ما عانيته من العذاب والآن فاني اعجب لنفسي كيف اني لم اعرفك المرة الاولى .

على ان السيدة ليونور اكدت لي انك ستعود ايضاً الى هنا .

— أهي قالت لك هذا القول ؟

— نعم يا سيدي وقد أمرتني ان أبالغ بحراستك حين تكون هنا فاعلم

يقيناً انك ستكون في مأمن في هذا البيت كما كنت يوم كنت تأتي اليه خاطباً فاني في تلك الاعوام التي مضت وهي اعـــوام كوارث وانقلابات فجائية اعددت مكاناً سرياً في هذا المنزل كي تختبىء فيه السيدة ليونور وأبوها عند الاقتضاء ولا يعلم احد غيري الى الآن سر هذا المكان وقد اقسمت لسيدتي ان أخبئك فيه فهل تريد يا مولاي ان تراه ؟

قال : نعم .

فسار الخادم ومشى رولاند وسكالابرينو في أثره حتى لاقوا شجرة الأرز الكبرى وكانت شجرة عظيمة بضخامتها وقـــد تدلت اغصانها حتى بلغت الارض فأزاح الخادم أحد هذه الأغصان فانكشف عن ثقب بجزع الشجرة فأراه الخادم إياه وقال له :

— إن من ينزل من هذا الثقب يبلغ الى دائرة متسعة عمقها ثلاثة امتار وقد أنزلت اليها أمس سريراً للنوم ومائدة وضعت عليها من الطعام مـــا يكفي ثلاثة ايام .

أما هذا الثقب فلا يراه احد لتدلي الاغصان عليه وفوق ذلك فقد زرعت حواليه نباتاً كثيراً لينمو كي يحكم سده كما ترى فلو اتفق لأحدهم ان يزيح الاغصان لما رأى الثقب .

فقال سكالابرينو : انه خير ملجأ وعاد الثلاثة الى المنزل ورولاند عابس الوجه مقطب الجبين فقال له سكالابرينو :

— أتريد يا مولاي ان أرجىء بقية قصتي الى الغد ؟

قال : كلا .. بل أروها الآن فاني مصغ اليك .

قال : لقد سألتني عن السبب في ذهابي الى تلك الخمارة التي كدت اموت في مياهها فاعلم يا مولاي اني قبل سفرك ذهبت الى المغارة السوداء فوجدت الأمور على أتم الانتظام وحملت اوامرك الى الزعماء ثم عدت الى قرية مستر ففاجأني فيها مصاب لم اكن أتوقعه .

فأجفل رولاند منذعراً وقال : أبي ؟
قال : كلا يا مولاي فلا تخف فان أباك لا يزال هناك بحراسة جوانا .
ـ إذن ماذا ؟
ـ بيانكا يا مولاي .
ـ ماذا أصابها ؟
ـ اختطفت .
ـ من الذي اختطفها ؟ أتعرفه ؟
ـ نعم.. فقد قالت في جوانا انه ساندريجو.
ـ هذا اللص الذي بات عدوك ؟
ـ هو ذلك اللص الذي يحقد عليك حقداً هائلا دون شك لأنه لم يختطف بيانكا إلا بغية الانتقام منك .
ـ ينتقم مني باختطافها ؟
ـ نعم يا مولاي فربما خطر له انك تحبها .
ـ ولماذا هذا الحقد عليّ ؟
ـ لأنك قهرته وأهنته أمام رجاله .
فأطرق رولاند مفكراً ثم قال :
ـ إذن ان هذا الرجل اختطف بيانكا وأبقى على أبي لينتقم مني .
ـ ربما خطر له ان ذلك يكون ابلغ في الإساءة .
ـ ولكن جوانا أين كانت ؟
ـ مسكينة هذه المنكودة فانك ستدهش لما اخبرك عنها فانها تحب ساندريجو من عهد طويل وكانت ترجو ان تكون امرأته ومع ذلك فقد دافعت عن بيانكا دفاع اللبوة عن اشبالها ولكنه تغلب عليها وقيّدها .
وبعد ذلك ذهبت الى فينيسيا وعلمت انه في تلك الخمارة وقد عرفت ما كان بيني وبينه .

ـ مسكينة جوانا فقد لقيت أشد العذاب .

ـ ولكن ليس هذا كل شيء يا مولاي فاني بعد ان نجوت من قبو الماء لم يكن يخطر لي غير خاطر واحد وهو ان أجدك فبحثت عنك في كل الأماكن التي كنا نلتقي فيهـــا وذهبت الى مستر ولقيت أباك وجوانا ثم ذهبت الى المغارة فرأيت ان بمبو قد نجا .

ـ لقد عرفت ذلك .

ـ إذن هذه هي قصتي بجملتها فاني عدت بعد ذلك الى فينيسيا وصبرت الى ان هجم الليل فجئت الى المنزل ولقيت رجلا عند بابه حسبته جاسوساً فأسرعت بالصعود ووجدتك تقاتل الجواسيس وانت تعرف البقية .

وقد رأى رولاند علائم الحزن الشديد بادية في عيني سكالابرينو فأيقن ان حزنه على بنته وقال له :

ـ اطمئن ايها الصديق فسيكون اول مـــا اعمله انقاذ بيانكا غير اني استمهلك يوماً لأرى أبي وأطمئن عليه .

قال : اني اذهب وإياك إذا أذنت .

قال : إذن هلم بنا .

٤٥

نحول جوانا

لقد عرف القراء كيف ان رولاند كان له مواصلات سرية في فينيسيا يذهب ويجيء بها دون ان يراه احد .

وكان له عدا عن تلك السفينة الكبرى التي ترسو في ميناء ليدو ثلاث سفن أخرى تسع كل سفينة ثلاثمائة مقـــاتل فكانت تسافر بشكل منتظم

تجاري كي لا تستلفت اليها انظار الرقباء ولكنها لا تبتعد ومتى عادت من سفرها بما تحمله من البضائع اطالت زمن إنزال هـذه البضائع جهد الطاقة وذلك كي تبقى اكثر أيامها في الميناء .

وفوق ذلك فان هذه السفن الأربع لم يكن يسافر منهـا غير واحدة بالمناوبة بحيث يبقى في الميناء دائماً ثلاث سفن .

وكان له ايضاً في البحيرات نحو مائة قارب من القوارب السريعة تنقله حين يشاء من البحيرات الفاصلة بين فينيسيا وبين اليابسة .

وكان له في البر كثير من المحطات للجياد وهي محطات تتصل من شاطىء البحيرات الى مغاور بيافا بحيث ان رولاند او احد رسله لو أراد البلوغ الى المغاور والعودة منها يتمكن ببضع ساعات بفضل هذه المحطات التي أنشأها.

وقد ركب رولاند وسكالابرينو احد هذه القوارب بعد ان أشار الإشارة السرية الى البحار فأطلق النوتي قاربه للريح حتى اجتاز بهما البحيرات فخرجا الى الشاطىء وركبا جوادين وسارا الى مستر .

وهنـاك لقي رولاند أباه جالساً في ردهة المنزل فأسرع اليه يعانقه ويناديه بأعذب الالفاظ .

فارتعش أبوه لهذا الحنو وقال :

ـ من هذا الذي يعانقني هكذا ؟

قال : أنا ولدك .. ولدك رولاند .

ـ ولدي ؟

ـ واأسفاه ألم تعرفني يا أبي من صوتي ؟

فسكت ذلك الشيخ المنكود الأعمى ولكنه جعـل يبحث بيديه عن رولاند ليجذبه اليه .

فركع رولاند أمامه وقال له بصوت مختنق :

ـ أبي .. أبي .. ألا تذكر ولدك ؟

فوضع كانديانو يده على رأس ولده وجعل يمرها على شعره كأنه يحاول او يري باللمس ما يراه ثم قال :

ـ نعم ان الرأس رأس ذكي كريم ولو كان لي ولد لتمنيت ان يكون مثلك.

ـ ان ولدك راكع أمامك يا أبي .

ـ نعم .. نعم .. لقد ذكرت فقد كان لي ولد فيا .. ولكن ربما كان ذلك من وساوس الجنون فاني عندما اهبط بفكري الى اعماق نفسي وعندما أبحث في قلبي عن رسوم كانت تملأه أجد كأنها قد اختفت .

نعم فقد يخال لي اني كنت كسائر الرجال منذ عهد بعيد جـــداً وان عيني كانتا تنظران بملء الارتياح والسرور الى أحباء كنت أحبهم كما أحب نفسي .. فمن انت ولماذا تقول انك ولدي فلو كان لي ولد لكان مات دون شك .. كلا ليس لي ولد .

وعند ذلك رفع يده برفق عن رأس رولاند فنهض ولده وقد تنهد تنهداً كاد يتمزق له صدره .

أما أبوه فلم يهتم إلا بتدفئة يديه على نار المستوقد .

ومع ذلك نادى جوانا وقال لها :

ـ جوانا أكرمي هذا الرجل النبيل الذي دفعه الجنون الى الإدعاء بأنه ولدي فاني اذكر كما يذكر الحـــالم اني كنت أشير اشارة بسيطة فيتسارع الخدم الى اكرام ضيوفي الغرباء .. فأين هذا العهد ومتى كان ؟

فهز رولاند رأسه وقد أيقن ان أباه لا يعود اليه صوابه ثم التفت الى جوانا كأنه يسألها رأيها فقالت له :

ـ ولكنه مع ذلك لعن مرتين فوسكاري وذكر ولده .

ـ إذن أتظنين انه يشفى ؟

ـ لا أدري ولكن الصواب يعود اليه احياناً .

فمشى رولاند بضع خطوات في الغرفة ثم عاد الى جوانا وقال لها :

ـ أرى انه لا يمكن بقاؤه هنا ؟

فاصفر وجه جوانا وقالت :

ـ وأنا أيضاً أرى هذا الرأي .

ـ قولي كل ما يخطر لك يا ابنتي .

فأطرقت برأسها وقالت :

ـ ان الذي أتى قد يعود .

ـ وعند ذلك ؟

ـ قد ينتقم منك بأبيك كما انتقم باختطاف الفتاة .

ـ ولكنك تكونين بالقرب منه تدافعين عنه .

ـ مولاي ؟

ـ اني موقن من انك تضربينه الضربة القاضية إذا تجاسر على الرجوع.

ـ مولاي ؟

ـ ماذا ؟

ـ اني اضربه الضربة القاضية دون شك لأني تعهدت لـك على ان احرص على أبيك ولكني اضرب نفسي بعد ان اضربه وسل سكالابرينو يخبرك لماذا اقول هذا القول ؟

وقد قالت هذا القول وغطت وجهها بيدها إخفاء لاضطرابها .

فتوجع رولاند وأخذ يدها بين يديه فقال :

ـ انك تحبين هذا الرجل يا جوانا ألا تعلمين انه كان يريد قتل سكالابرينو ؟

فلم تجب ولكن ظواهر اضطرابها كانت تدل على يأسها فقال لها :

ـ اني سأنقل أبي الى محل أمين وستكونين معه في مأمن أيضاً ، انك بمثابة أختي وأنا احترم حبك وأتوجع لمصابك .. ولكن دعيني أتولى أمرك واذهبي مع أبي .

فظهرت صحة العزيمة على وجهها المصفر وقالت بملء السكينة :

أسألك العفو يا مولاي فاني كنت انتظر عودتك لاقول لك .
وهنا توقفت عن الكلام وقد تلعثم لسانها فقال لها رولاند :
ـ تكلمي ايتها الأخت الحبيبة وأعلمي يقيناً انك مهما قلت لي فاني ابقى مديناً لك بالجميل الى الأبد .
قالت : اني لا استطيع البقاء مع ابيك فاصفح عني . اذ لا بد لي ان اذهب الى فينيسيا.
ـ ليكن ما تريدين فانك تذهبين اليها معي ومع سكالابرينو أي مع اخوين يحبانك ويحترمانك ويدافعان عنك .
فهزت رأسها وقالت : كلا بل يجب ان أذهب وحدي الى فينيسيا .
فقال لها برفق : انك تريدين الذهاب اليه لتريه أليس كذلك ؟
ـ كلا بل لادافع عنه .
فاجهشت بالبكاء وقالت بصوت مختنق :
ـ اني اؤثر الف موت علىان أنالكما بأذى وأنتما كل ما أحبه واحترمه في هذا الوجود ولكنه حياتي التي اعيش بها وان قلبي يحدثني بشر مصاب وانك كبير النفس فلا شك عندي انك صفحت عن ساندريجو من اجلي ذلك ما اقرأه في عينيك ولكن .
ـ ولكن ماذا تكلمي ايتها الاخت العزيزة .
فمسحت جواتا دموعها التي كانت تحرق عينيها وقالت :
ـ نعم لقد تمعنت ملياً خلال هذه الايام العشرة التي مضت فرأيت ما سيحدث كأنه قد حدثفانك تعفو عنساندريجو اكراماً لي ولكنساندريجو لا يتجاوز عن حقده عليك وهذا الذي أريد ان أمنعه ولو بسفك دمي فأني حين يخطر لي أنك ستلتقي مع ساندريجو يجمد الدم في عروقي من الرعب .
ـ اذن انت تريدين السفر ولا سبيل الى تغيير افكارك ؟
ـ كلا فلا بد من السفر .

ـ ليكن ما تريدين ولكن اذكري دائماً ان لك أخوين لا تبرحـين عن فكرهما أتعرفين منزل جزيرة أوليفو ؟

ـ نعم .

ـ انك تجديننا هناك متى أردت وإذا لم تجدينا تجدين من يخبرنا بأمرك أفهمت ما أقول ؟

ـ نعم .

ـ حسناً فمتى تريدين أن تسافري .

ـ في الحال .

ـ كيف ذلك الا تدعين لي وقتاً لأعد لك معدات السفر .

ـ لقد تأهبت لكل شيء فاستأجرت مركبة منذ ثلاثة أيام وهي تنتظرني في الغد للسير بي الى البحيرات وهناك استأجر قارباً وأذهب به إلى فينيسيا والآن استودعكما الله .

فعانق سكالابرينو جوانا وهو يتلفظ بألفاظ القانطين وعانقها رولاند وهو يتوجع ليأسها .

وعند ذلك ذهبت الى والد رولاند فركعت أمامه وقالت :

ـ أنت الذي أحببته ، أنت الذي كنت تحب تلك الميتة النبيلة التي غفرت لي ولا أزال أقدس أسمها لأنها باركتني ودعتني بنتها ان روح هـــذه المرأة الطاهرة ترف حوالنا وهي تعلم يقيناً ما أكابده من عناء هذا الفراق .

فرفع الشيخ الأعمى يده على رأسها ولا ندري أكان ذلك منه اتفاقاً أم استنار عقله في تلك اللحظة بشعاع من أشعة الصواب .

وعند ذلك نهضت وسارت مسرعة بعـد ان اشارت إشارة وداع الى رولاند وسكالابرينو .

وقد لبث الرجلان مدة واجمين ساكتـين الى ان تحرك الشيخ حركة استلفتت انتباه ولده والتفتت اليه .

وفي الوقت نفسه قال سكالابرينو :

ـ أتأذن لي يا مولاي ان أذهب بسيدي الدوج الى المغارة السوداء .

فهز رولاند رأسه دون ان يجيب فقال له سكالابرينو :

ـ ثق يا مولاي انه يكون هنـاك في مأمن من كل طارىء فان تلك الحادثة التي جرت لبمبو نبهت الزعماء فزادوا القوة والمحافظـة وأنت أدرى بسهولة الدفاع في تلك المغارة .

قال : ان أبي سيذهب الى فينيسيا .

ـ إلى فينيسيا ؟

ـ نعم فاعد لنا مركبة تنقلنا نحن الثلاثة .

ـ وماذا أصنع بجوادينا ؟

ـ دعهما في المحطة واجتهد ان يكون وصولنا في الليل .

فأسرع سكالابرينو الى الامتثال وبعد ساعة عاد بالمركبة .

فأخذ رولاند بيد أبيه وسار به الى المركبـة دون ان يعترض ولكنه اكتفى بسؤاله قائلا :

ـ إلى اين تذهبون بي ؟

فلمعت عينا رولاند ببارق رجاء وقال:

ـ الى فينيسيا أفهمت ، تلك المدينة التي كنت حاكما عليها وقمت فيها بسراي الدوج مع امرأتك سيلفا وابنك رولاند .

فظهرت على الشيخ عدم الاكتراث وقال :

فينيسيا ، نعم لقد سمعتهم يقولون عن هذه المدينة انها جميلة .

فتأوه رولاند وقال : وأسفاه ثم ركب المركبة مع سكالابرينو بجانب أبيه وبلغوا الى فينيسيا في جنح الظلام فسار بأبيه الى بيت الجزيرة .

٤٦

أرتين

لقد تركنا بمبو عند منزل الرصيف وقد أمر الجنود بالدخول الى المنزل للقبض على رولاند وأقام ينظر تلك اللحظة السعيدة التي تحقق بها آمال حياته .

وبعد هنيهة رجع الجنود وفي مقدمتهم قائدهم فقال القائد للكاردينال:

ـ لقد قتل منا ثلاثة فاذا اضفناهم الى الذين سقطوا من النافذة بلغ المجموع سبعة فاذا اتفق لنا بضع ليال مثل هذه الليلة اصبحنا من غير بوليس.

فلم يكترث بمبو لهذه الأقوال وقال : وهو ؟

ـ اذا كنت تعني به الذي دخلنا للقبض عليه فقد استحال الى دخان وهذا أحسن ما يقال عنه في هذا المقام .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أن الرجل ورفيقه ، لأنهما كانا اثنين لا واحداً ، سارا في الطريق التي يسير الدخان عادة للصعود الى السماء .

ـ أهربا من المستوقد ؟

ـ هذه هي الحقيقة .

فغضب الكاردينال غضباً شديداً ولولا حضور الجند لشتم اقبح شتم ولكنه تجلد وأمر بعض الجنود ان يفتشوا بيوت الحي بجملته وأمر آخرين يراقبوا المنزل ثم انصرف الى المنزل وقد ضاقت الدنيا في عينيه واشتد خوفه حتى أنه جعل يفكر في طريقة تمكنه من الفرار لشدة فزعه من رولاند فأرتأى ان يترك الدوج وفينيسيا خفية ويذهب الى رومة فيلجأ الى البابا وهناك يكون في مأمن من رولاند .

ولكنه لم يلبث ان اقر على هذا الرأي حتى تمثلت له بيانكا فهاجت مكامن غرامه وشغلته عن الخوف ورأى انه لا يستطيع العيش بعيداً عنها لاسيما وقد تمثل له ايضاً ساندريجو فهاجت غيرته وزادته هياماً ، فأقـام يفتكر في خطة كان قد وضعها بشأن بيانكا فما زال يعالجها حتى استقامت فذهب الى فراشه ونام في تلك الليلة امناً واثقاً من النجاح .

وفي صباح اليوم التالي ذهب تواً الى ارتين فخلا به وبعد حديث مختلف سأله فجأة عن نسائه فقال له : كم يبلغ عددهن ؟

فقـال : سبع نساء وأني أرجو ان اجعلهن تسعا فمتى تكامل عندي هذا العدد اطلقت علي كل واحـدة منهن اسم عروسة من عرائس الشعر فاسمي الواحدة كليو والثانية تربيسكور .

فقاطعه الكاردينال قائلا : لا تكمل ذكر هذه الاسماء وافترض انـك جئتهن بفتاة جديدة .

ـ اذن لا يعود يعوزني غير واحدة لتتم عندي العرائس التسع .

ـ اصغ يا ارتين فاني أحدثك عن فتاة طاهرة كالزنبقة نفورة كالغزالة التي لم تألف وجه الصياد .

ـ وهل هي حسناء ؟

ـ ان جمالها يخلب العقول فما رآها أحد حتى فتن بها اما أنا فلا أعلم إذا كانت حسناء فاني ما احببت جمالها بل احببتها وقد كنت أحسب نفسي قويا شديداً واني ما خلقت إلا للسيادة وسحق الشعوب ولكن هذه الفتاة علمتني الخضوع وانستني الاطماع ومعاني السيادة وبت اعاني في حبها عذاباً شديداً فأصبحت في حالة تحمل على الاشفاق .

ـ ولكني لا اجد في كل ذلك ما يدعو الى العذاب وانت تقول انـك تحبها وانها جميلة فلماذا تتعذب ؟

ـ افترض ايها الصديق ان إحدى نسائك قد اهانتك وبصقت في وجهك فماذا تفعل ؟

ـ أجلدها بالسوط حتى أمزق جلدها .

ـ وافترض ان التي تفضلها من نسائك قالت لك انهـــا تؤثر ان ترى خنفساء على ان تراك فماذا تفعل ؟

ـ أضع لهــا مائة خنفساء في كيس فأزودها بها وأطلق سراحها وأبحث عن سواها .

ـ أرأيت إذن كيف انك لم تحب أما أنا فاني أعد إهانتها مديحاً ولكنها لا تقول لي انهــا تجدني اقبح من الضفدع ولا تحتقرني بــل تعاملني بأشد من ذلك أي انها تشمئز وتنفر مني نفور المرء من الرائحة الكريهة .

ـ إذن لم يبق عليــك إلا ان تأخذها بالقوة ومتى فعلت ذلـك وعاملتها بالقسوة خافتك وذهب ذلك النفور .

ـ لقــد حاولت ذلك فلم انجح أيهــا الصديق وفوق كل ذلـــك فان لي مزاحماً فيها .

ـ هل هي تحب هذا المزاحم ؟

ـ لا أعلم .. ولكني لا أظن ان بيانكا تحب ساندريجو .

ـ أتقول بيانكا ؟

ـ هذا هو اسمها .

ـ أهي بنت امباريا ؟

ـ هي بنفسها فهل عرفتها ؟

ـ كلا ولكني عرفت ان لامباريا فتاة تدعى بهذا الاسم ولكنك قلت لي ان لك مزاحماً فيها ؟

ـ نعم وهو مزاحم لا استطيع التخلص منه الآن لأني لا ازال محتاجاً اليه وقد قضي عليّ ان اعقد لها بيدي عقد القران .

ـ بماذا تحتاج الى هذا المزاحم ؟

ـ لأني اعتمد عليه في القبض على رولاند كانديانو حين يأتي الى هنا .

ـ إذن لا يجب ان تختار بين الكره والحب ؟

ـ لا أريـد ان اختار بينهما بل اريد كليهما واريـد ان أظفر برولاند كما أظفر ببيانكا ولا عيش لي إلا إذا فزت بهذه الأمنية أما رولاند فاني معتمد في شأنه على ساندريجو .

ـ مزاحمك ؟

ـ نعم .. وأما بيانكا فاني معتمد بشأنها عليك .

ـ انك تعلم مقدار إخلاصي لك ؟

ـ ذلك لا ريب فيه عندي فاسمع ما انتظره منك .

ـ ان زواج بيانكا وساندريجو لا بد من عقده .

ـ متى ؟

ـ لا أعلم بعد فانه منوط بساندريجو ولكن بيانكا تحتجب على أثر عقد القران .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك منوط بي فسأرضي ساندريجو كل الرضى بحيث لا يكون له من هذا الزواج غير حفلته .

ـ وماذا يكون من بيانكا ؟

ـ انها تكون ضيفتك أفهمت الآن ؟

ـ اني معجب بذكائك يا عمو .

ـ أعزمت على مساعدتي ؟

ـ نعم فاني أساعدك بذلك كل المساعدة .

فارتاب الكاردينال بقوله وقال له : كيف تقول بذلك ألعله يوجد أمور لا تستطيع مساعدتي فيها ؟

فأسرع ارتين الى التنصل من هذه وقال له :

ان سوء الظن من حسن الفطن ولكن مثلي مع مثلك لا يحمل على الريب ويسوؤني ان تشككك بي وأنا أوفى صديق .

ـ لا بأس ايها الصديق فاعذرني فاني لا اعود الى الظنون .

ـ اني اعذرك دون شك اذ اعلم يقيناً انك لا تندفع الى هذه الظنون الا لاضطرابك ولنعد الآن الى ما كنا فيه فقد قلت لي اني اقبض خمسة الاف ريال يوم تدخل بيانكا الى منزلي .

ـ ليكن ما تريد ولكن صداقتك هذه المرة ستكلفني كثيراً .

ـ لا يحق لك الشكوى فاني لا اقبض من خزينتك بل من خزينة الجمهورية فقل لي الان ما تريد .

ـ أريد ان تضيف بيانكا عندك وان تعرفها بنسائك كأنها واحدة منهن

ـ ان الغيرة تدفعهن الى البكاء ولا أطيق بكاء النساء .

ـ ولكنك تعرف طريقة تخفيف الدموع .

ـ حسناً فماذا تريد بعد هذا ؟

ـ أريد انه متى باتت الفتاة عندك ان تتعهد لي بأن لا يراها غير نسائك .

ـ أتعهد .

ـ هذا هو القسم الاول من مشروعي وهو سهل كما تراه وقد بقي الثاني فقل لي الديك امرأة بين نسائك موصوفة بالذكاء والدهاء .

ـ اذا كان الدهاء من الذكاء فكلهن ذكيات .

ـ اتحسب انهن يستطعن اغواء فتاة نقية وتغيير اخلاقها ؟

ـ ذلك لا ريب فيه فلا يمضي شهر حتى يغيرن اخلاق التي تحبها .

ـ ليس هذا كل الذي اريده .

ـ ولكنك شديد الظلم بصداقتك .

ـ لا بأس فسننظر في حساب صداقتك وظلمي فاذا رجحت كفة ظلمي

وضعت اثقال الذهب في كفة الصداقة الى ان تتساوى الكفتان .

ـ أنه خير قول خيالي لا ينطق به غير الشعراء .

ـ بل انه قول ذهبي ولذلك اعجبك فقل لي الآن ألم تضجر من اقامتك في فينيسيا ؟

ـ كيف اضجر من هذه البلد ، بلد الحب والفنون ؟

ـ أما انا فاني اضجر .

ـ اذن سافر ؟

ـ هذا ما نويت عليه ولكني اذا سافرت وحدي اشتد ضجري .

ـ يظهر انك تريد ان أصحبك .

ـ لقد فهمت قصدي .

ـ وانا مستعد لصحبتك .

ـ ولكنك لا تستطيع الابتعاد عن نسائك .

ـ ألم افارقهن حين ذهبت الى الشيطان الأكبر وما فعلته من قبل أفعله اليوم .

ـ ولكن هذه المرة يجب ان تسافر مع نسائك.

ـ أي انك تريد إخراج بيانكا من فينيسيا وان لا يعلم أحد بأمرها ما زالت مع نسائي .

ـ هو ذاك.

ـ الى اين تريد ان اذهب بها ؟

ـ سأعين لك المكان حين الاقتضاء والآن فلنلخص اتفاقنا فانك قبضت الف ريال وستقبض اربعة الاف فتكون الجملة خمسة .

ـ إنك بارع بالحساب .

ـ وهذه القيمة مقابل اقامة بيانكا عندك عشرة ايام ، اي ان غذاء هذه الفتاة يكلف خمسمائة ريال في اليوم .

ـ وتعليمها ؟

ـ لقد أصبت وقد بقي لـــك عندي خمسة الاف ريال تقبضها خارج فينيسيا .

ـ هو ذاك .

ـ إذن لقد رضيت بجميع اقتراحاتي ؟

ـ دون شك الست صديقك الخاص ؟

وعند ذلك افترق الصديقان فذهب بمبو الى منزله فوجـــد ساندريجو ينتظره فقابله ضاحكا ودخل به الى غرفة اعماله فقال له :

اعينت يوم القران ايها القائد العزيز ؟

فنظر ساندريجو اليه محدقاً وقال له : ذلك منوط بك .

فاصفر وجه الكاردينال اذ خشي ان يكون عرف شيء عن مقاصده وقال له :

ـ كيف يكون أمر زواجك منوط بي ؟

قال : اني خرجت الآن من منزل امباريا وقد الححت عليها ان تعين يوم الزواج فأجابتني قائلة :

« اذهب واستشر الكاردينال بمبو قبل ان تأتي على أمر نهائي » .

فأتيت اليك وها انا قد نقلت لك اقوالها فلا حاجة الى تذكيرك بعهودك

ـ كلا فاني لا انساها .

ـ لا شك عندي بأنك لا تنسى ما حييت بأنك مدين لي بالحياة ولكني خلقت يا سيدي ضعيف الثقة بالامتنان وعهدي ان من يصنع جميلاً لا يجب ان يكتفي عنه بالامتنان لان الامتنان مجاني ولا شيء يؤخـذ مجاناً في هذا الوجود ولذلك ارجوك ان تعين يوم الزفاف .

فأجابه الكاردينال دون تردد قائلا :

ـ ذلك سهل ما زال قد أنيط بي فاني أجعله في اقرب حين .

ـ انه كلام معقول ولكني لم افهم معنى « في اقرب حين » فكأنك لم تعين موعداً .

ـ إذن إسمح لي بدوري ان اذكرك بعهدك ؟

ـ تفضل .

ـ إنك أقسمت بأن تأتينا برولاند كانديانو ميتاً أو حياً.

ـ وسأبر بقسمي فاعطوني بيانكا اعطيكم رولاند بعد اسبوعين من حفلة الزواج فاني سأجيئكم به مغلول اليدين والرجلين الا إذا اضطررت الى قتله وفي هذه الحالة آتيكم برأسه .

فقال له الكاردينال ببطء :

ـ اتأتينا برأسه بعد اسبوعين ؟

ـ اني ما تعودت ان احنث بيمين .

ـ الا تخاف ان يحول حائل دون انفاذ هذا القصد ؟

فابتسم ساريجو ابتسام استخفاف وقال :

ـ لا يوجد مانع في الوجود يحول بيني وبين هذا الرجل .

ـ ولكن العاقل يحسب لهذا الأمر الف حساب .

ـ قلت لك انه يجب حسبان كل شيء حتى موت خطيبتك .

ـ ولو ماتت خطيبتي فان ذلك لا يمنعني عن الوفاء بتعهدي .

ـ لقد وثقت الآن بكلامك واننا سنظفر برولاند بعد اسبوعين ولذلك فقد بات من فائدتنا ان نعمل عقد قرانك ونحن الآن في يوم الثلاثاء فهل تريد ان يكون يوم السبت .

ـ ان هذا اليوم يوافقني وأنا اعتمد عليك إذن باقناع امباريا فقد خيل لي انها لا تزال تتردد .

ـ ذلك منوط بي فاطمئن.

ـ ويجب ايضاً اقناع بيانكا .

ـ ولكني لا اعرفها .
ـ أحق ما تقول ؟
ـ نعم فاني لا استطيع ان اتولى هذه المهمة .
ـ لا بأس فلا تهتم اذن الا بالايام وبان يكون الموعد يوم السبت .

وعند ذلك افترقا فلما بقي الكاردينال وحـــده ظهر الاضطراب على وجهه وقال في نفسه .

اني لم الق في المغاور السوداء ما لقيت هذه الساعة من العذاب فاعطني ايها اللص الشقي رولاند وانا اتكفل بان اضع القيود في عنقك والقيك في تلك الآبار . أأنت تكون زوج بيانكا ؟

وهنا ضحك ضحكا هائلا وهاج ثائره فلم تعد اليه سكينته الا بعد ساعة فذهب الى امباريا وقال لها :

اننا سنزوج يوم السبت صديقنا ساندريجو بينتك بيانكا .
فاصفر وجه الحظية وقالت : يوم السبت ؟
قال : نعم وهنا يجب علينا ان نقنع بنتك بالرضى بهذا الزواج .
ـ نعم :
ـ ان بيانكا لي وانت لساندريجو اليس هذا اتفاقنا ؟
فاشارت برأسها إشارة الموافقة فقال لها :

ـ لا تقلقي لشيء فان الحفلة تكون يوم السبت إذا تمكنت من اقنـاع بنتك ولا بد من اقناعها .

ولكن بعد الحفلة تذهب بيانكا في طريق وساندريجو في طريق آخر .
اما أمر بيانكا فهو منوط بي وأما ساندريجو فهو منوط بك فتدبري .
وعند ذلك تركها وانصرف وهي لا تعي لفرط اضطرابها .

- ٤٧ -

دهاليز سانت مرك

في ذلك الزمن كان رئيس بوليس فينيسيا يدعي جينارو وهو في الاربعين من عمره اسمر الوجه رشيق الحركات كثير المطامع شأن معظم الموظفين في الجمهورية التي كان قومها يتنازعون السلطة فيها كل يوم .

فكان جينارو يطمع بمنصب دندولو كما كان التياري يطمـــع بمنصب فوسكاري وكما كان فوسكاري يطمع بتحويل تاجه الدوقي الى تاج ملكي .
وكان متولياً زعامة البوليسين الظاهر والسري ولم يكن فوق يده غير يد دندولو وفي ذلك ما يدل على خطورة المنصب الذي كان يتولاه .

وفوق ذلك فقد كان له لذة عظيمة بمهنته فلم يؤثر عنه انه مال الى سواها أو مال مع اهواء الشبيبة فلم يكن له حليلة أو خليلة ولم يولم وليمة ولم ينتزه مع أحد فكانت نزهته انه يتنكر تارة بملابس البحارة ويطوف في المدينة ويجتمع بمشاهير اهل الشر كصاحب خمارة مرسى الذهب وأمثاله فيقف منهم على كل ما يجري في المدينة بحيث لا يفوته شيء من خفاياها .

وكان من عادته ان يقول ان أخص ما يجب ان يبني في المدن الكبرى السجون وكان يخطر له ان يبني سجناً هائلاً يسع كل المدينة وان يؤلف هيئة لا يكون فيها غـــير فريق من الوطنيين فيكون قسم مسجونين وقسم سجانين .

ففي اليوم التالي لذلك اليوم الذي رأينا فيه بمبو سار من عند ارتين الى ساندريجو ومن ساندريجو الى امباريا كان جينارو رئيس البوليس واقفــاً أمام مرآته يصلح شعره وهو يناجي نفسه فيقول :

ـ ان دندولو خلق ليكون رئيساً لديوان التفتيش كما خلقت انا لأكون ملكا لاسبانيا وهو فوق جهله أمور هذا المنصب الكبير لذي يتولاه قد عهد الي بكل أمر وتوارى عن الانظار بحجة اعتنائه بصهره الجريح .

ولكن من الذي جرح التياري .. وفي كل حال فقد اتصل بي ان دندولو يحاول الاستقالة ومن عسى يتولى منصبه الخطير الاي .. نعم سأتولى منصبه ولماذا لا أتولاه الأني لست من النبلاء .. هوذا ببر وهوذا فوسكاري نفسه فانهما كانا من عوام الناس .. نعم ان الفرصة دانية ولا بد لي من اغتنامها .

والآن فلأشرب كأس خمر فان ما سأفعله يحتاج الى قوة .

وعند ذلك شرب كأس خمر اسبانية وعاد الى مناجاة نفسه فقال :

ـ اني لو لقيت الدوج لقلت له انك يا مولاي في حالة كئيبة وانك والجمهورية في أشد خطر فلو استشرتني في أمرك لما وصلت الى ما وصلت اليه الآن ولما أشرت عليك ان تثمل عيني الدوج كانديانو وتسجن ابنه بل اشرت عليك ان يكون العقاب العكس فكان الحزن قتل الاب وكنت أمنت شر الولد .

والآن فانك لو دخلت الى الخمارات وطفت بالبحارة او جلت في الشوارع العامة لما سمعت غير حديث الأعجاب برولاند كانديانو ذلك عدا من تلك العصابات الهائلة التي يتهددك بها في كل حين فاذا جئتك بهذا العدو اللدود يا مولاي الدوج اتجعلني رئيساً لديوان التفتيش ؟

هذا ما يجب ان احدث به الدوج حين اظفر برولاند فلأبدأ الآن بالبحث عنه .

ولا شك ان رولاند من أهل الحيلة والدهاء ولكني اشد منه دهاء فاني اعرف عنه ما لا يعرفه عن نفسه فهو يعتقد انه لا يحب ليونور وانا أرى الحب ماثلاً في جميع حركاته واعماله وهو يعتقد انه لن يعود الى منزل

الجزيرة وأنا واثق من انه لا بد ان يعود اليه نعم فانه يشبه العصفور يدرج الى عشه فليذهب الى العش بل الى هذا القفص .

وقد خرج عند ذلك من منزله وهو مطمئن فتفقد خمارتين الى ان انتهى الى خمارة مرسي الذهب .

أما صاحب الخمارة فقد عرفه بالرغم عن تنكره فانحنى أمامه بملء الاحترام فقال له رئيس البوليس .

ـ ما لديك من الاخبار يا برتولو ؟

قال : لدي خبر خطير يا سيدي .

ـ ما هو هذا الخبر ؟

ـ هو ان سكالابرينو الهائل ، يد رولاند اليمنى ، قد مات .

فبرقت عينا الرئيس بأشعة الفرح وقال : إذا كنت صادقاً فيما تقول يا برتولو كافأتك بعشرة دنانير ولكن هل انت واثق مما تقول ؟

ـ دون شك فانا الذي قتلته .

ـ أنت ؟

ـ نعم فقد جاء الى الخمارة فما زلت اسقيه حتى نام الى الأبد .

ـ إذن مر بي غداً لتقبض مكافأتك .

ـ ليس هذا كل اخباري يا سيدي فقد بقي ساندريجو .

ـ لا تحدثني بعد الآن عن هذا الرجل اذ لم يبق فائدة من البحث في شأنه .

ـ لماذا العلكم قبضتم عليه ؟

ـ كلا بل لأن الحكومة استخدمته .

وقد تركه الرئيس منذهلا وهو يقول في نفسه .

لقد قتل سكالابرينو فلا بد لي بعد ذلك من القبض على رولاند .

وما زال يسير حتى وصل الى بيت الجزيرة فتسلق جدار الحديقة والقى بنفسه اليها .

وهناك وقف هنيهة يتمعن ويقول :

لا بد من واحد من امرين وهما أما ان يكون رولاند هنا فأسرع وأعد بعشرين رجلا يقبضون عليه ميتاً أو حيـــاً أو لا يكون هنا فأجد الخادم العجوز فاني احاول التعرف بهذا الابله من عهد بعيد فقد أقف منه على كثير من الأمور .

وعند ذلك تقدم في الحديقة حتى وصل الى المنزل فرأى الأنوار كثيرة فيه ولكنه لم يستطع أن يرى احداً .

فدنا من النافذة فوقف تحتها وسمع صوت رجل يقول :

ــ أتقيم الليلة هنا يا مولاي ؟

فأجابه آخر قائلا : نعم يا فيليب فاني محتاج الى ليلة رابعة وعساي ان أجدها في هذا المكان .

فايقن رئيس البوليس ان الصوت الأول صوت الخادم وان الصوت الثاني صوت رولاند .

وقد كاد فؤاده يطير سروراً لاعتقاده الراسخ أنه سوف يقبض عليـه فتراجع يمشي الهوينا ويختبيء بين الاشجار كي لا يراه احد حتى إذا وصل الى سور الحديقة حاول ان يتسلقه .

وعند ذلك شعر ان يداً من حديد قد قبضت عليه فحـاول ان يجرد خنجره وشعر ان يداً غلت يده وأنه لا يستطيـع الفرار .

كان جينارو مشهوراً بثبات الجأس فلم يذعر لهذه الحادثة وقال لذلك الرجل الذي كان قابضاً عليه .

اني أعطيك الف ريال اذا اطلقتني .

فكان جواب الرجل ان حمله بين يديه كما يحملون الاطفال وعاد بــه الى المنزل .

فلما رأى الرئيس ذلك الرجل على نور الصباح دهش دهشاً شديداً دون ان يذعر وقال من أرى .. سكالابرينو !

ثم أجال نظره في الغرفة فرأى رولاند وفيليب والتفت الى سكالابرينو وقال له :

اهنئك بيديك فانها تشبهان الكلاليب .

ونظر رولاند الى سكالابرينو نظرة السائل فأجابه قائلا:

أن الأمر بسيط وذلك اني كنت عائداً من المدينة فرأيت رجلا يتسلق سور الحديقة فتسلقت السور في أثره وقفوت خطواته وقبضت عليــه وهو يحاول الرجوع من حيث أتى.

فقال له رئيس البوليس وقد نظر اليه نظرة اعجاب ، احق ما تقول ؟

ـ كيف أكون كاذباً وانت الآن هنا ؟

ـ اذن اهنئك ببراعتك فما كنت احسب انه يوجد من يستطيع اقتفاء أثري دون أن اشعر به .

وعند ذلك التفت اليه رولاند وقال له : من انت ؟

قال : بحار فقير يلجأ الى مروءتك فانك تستطيع يا سيدي ان تسلمني الى الجنود فاسجن وقد اقيم في سجني خمسة اعوام لا أرى في خلالها النور .

ـ ماذا أتيت تعمل هنا.. كن صادقاً في قولك فلا أسلمك الى الشرطة.

فقال الرئيس في نفسه :

ـ لقد نجوت بحمد الله فان الأمر سينتهي بيننا انــه ينعم علي ببعض دريهمات اشفاقاً علي ويطلق سراحي فاعود اليه بعد نصف ساعة لمكافأته .

وعند ذلك أطرق برأسه مستحيياً كأنه يخجل ان يعترف بزلته .

فقال له رولاند .

ــ تكلم وقل الحقيقة .

قال : اني أخجل يا سيدي من الاعتراف بهذه الحقيقة ولكنك وعدتني انك لا تسلمني الى الشرطة .

ــ وأنا موف بوعدي إلا إذا كذبت فتممن قبل الاعتراف إذا شئت لأني لا أطلق سراحك إلا بشرط الصدق .

ــ الحقيقة يا سيدي اني فقير وان اعمالي لا تجري على ما أريد منذ عهد طويل .

ــ أأنت بحار ؟

ــ إني بحار بالظاهر يا سيدي ومـــا هذه الملابس التي البسها إلا ملابس تنكر فاني لا أمتهن مهنة البحارة فأجتاز الترعة بالعابرين وأنا أغني وأنشد وأنشد الأشعار كلا يا سيدي فان هذه المهنة مهنة أهل الكسل .

ــ إذن ما هي مهنتك ؟

ــ هي ان أتسرب في ظلمات الليل الى المنازل التي لا يجيدون حراستها وان اتفقدها دون ان يشعر بي أحد ثم اعود منها بمـــا يتيسر سرقته بملء الاحترام .

وإني لا أزور غير المنازل الكبيرة ولا أسرق عـادة غير مـا خف حمله وغلا ثمنه وذلك لأني شديد الإعجاب بالجوهرات .

ــ أي انك تحترف مهنة اللصوصية ؟

ــ هو ذاك واأسفاه فان المرء خلق ليعمـل وإنمـا يعيش الفتى كيما يضر وينفع ولما كانت أشغالي لا تسير على محور النجاح كما ذكرت لك ولم يكن لي درهم أقتات به خرجت الليلة هائماً على وجهي واليأس ملء قلبي حتى وصلت الى هذا المنزل فدخلت الى حديقته ودنوت منه فسمعت أصواتاً ورأيت نوراً فرجعت قانطاً على ان أعود اليه في الغد فقبض عليّ هـــذا الرجل وهذه حكايتي .

وكان رولاند يصغي الى حديثه كل الإصغاء وعند ذلـك سمع في الحديقة صوت صفير فارتعش رولاند وسكالابرينو وتنبه جينارو .

فنهض رولاند وقال لسكالابرينو : احرص على هذا الرجل كل الحرص وبالغ في إكرامه فانه السيد جينارو رئيس بوليس فينيسيا وقـد أراد ان يشرفك الليلة بزيارته .

ثم خرج من تلك الغرفة وقد ترك جينارو فيها مصعوقاً من هذه المفاجأة .

وقـد سار تواً الى الأرزة الكبرى وهناك صفر مثل الصفير الذي سمعه فظهر له في الحال رجل وقال له :

— مولاي ان الأمر يجري في هذه الليلة .

— أتقدر ان تذهب بنـا ؟

— نعم.. دون خطر .

— حسناً فانتظرني هنا .

ثم عاد الى المنزل فقال لرئيس البوليس :

— انك يا مسيو جينارو أسيري .

فأيقن الرئيس انه لا سبيل له الى المفر وسكت .

فقال له رولاند :

— نعم انك أسيري وسأعاملك كما كنت تعاملني إذا اتفق لك ان تأسرني.

قال : لا سبيل بعد ذلـك الى الإنكار فأنا هو حقيقة رئيس البوليس ولكنني اقتصر على سؤالك عن هذه المعاملة التي تريد ان تعاملني بها .

قال : ماذا كنت تصنع بي لو كنت أسرتني .

— كنت أسلمك الى الحكومة وهنا تنتهي مهمتي .

— وماذا كانت تصنع بي المحكمة ؟

— إنها تسلمك الى الجلاد .

— وماذا يصنع الجلاد ؟

– يقطع رأسك إلا إذا أرادوا الاكتفاء بشمل عينيك بل ازيد على ذلك انهم كانوا يحاكمونك ويحكمون عليك في هـــذه الليلة نفسها ولا يصبرون الى الغد .

وقد قـال الرئيس هذه الأقوال لاعتقاده انه يؤثر بهـا تأثيراً حسناً على رولاند ولكنه حدّق في وجه رولاند فلم يرَ شيئاً من علائم التأثر فقـال في نفسه : لقد قضي عليّ ولم يبق سبيل الى الرجاء .

فقال له رولاند :

– انك أتيت تهاجمني في منزلي يا جينارو دون ان أسيء اليك بشيء .

– ولكن واجباتي تقضي عليّ بذلك يا سيدي وقد أردت إنقاذ الجمهورية.

– بل قل انك اردت ان تقدم رأسي الى مجلس العشرة بإحدى يديك وتلتمس بالثانية المكافأة عن هذه الخدمة اليس كذلك ؟

قال : هو ذاك يا سيدي فلم يدفعني الى مهاجمتك غير الطمع .

فبرقت عينا رولاند ببارق سرور وقال :

– إذن قد هاجمتني فغلبتك وكنت تريـد ان تسلمني الى محكمة فينيسيا فأنا أسلمك الى محكمة الجبال فتحكم عليك بنفس العدالة التي تحكم عليّ بهـا محكمتك .

– محكمة الجبل يا سيدي إذن قل لي بصراحة انك تريد قتلي .

– ذلك منوط بالمحكمة لا بي .

وعند ذلك سمع رولاند قرعاً على الباب بشكل خاص فقال للطارق : ادخل .

فدخل ذلك الرجل الذي لقيه رولاند عند الارزة وقـال له : لقد أزف الوقت يا مولاي .

– حسناً فلنذهب .

وقد أشار إشارة الى رئيس البوليس وانصرف دون ان يهتم لأسيره .

فنهض سكالابرينو الى الرئيس فتأبط ذراعه وجرد باليد الثانية خنجره وهو يقول :

– إن كلمة واحدة تبدو منك تدعوني الى معاقبتك فـــلا توقفني في مواقف الجلادين .

قال : إطمئن فلا أقول شيئاً .

وسار هذا الموكب الصغير يتقدمه رولانـد والأسير بين حارسيه وهمـا سكالابرينو وذلك الرجل الى ان بلغوا الشاطىء .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقد اطفئت أنوار الترعة ولم يبق غير نور واحد كان يضيء في قارب .

فمشى رولاند الي ذلك القارب وصفر نفس الصفير الذي صفره في الحديقة عند الارزة فخرج له في الحال رجل وقال له وقبعته في يده :

– إلى أين يريد مولاي ان يذهب ؟

فنزل الى القارب وقال : الى سانت مارك .

ثم نزل رئيس البوليس يحيط بـه الرجلان وسار بهم القارب فوقف بعد نصف ساعة عند سانت مارك .

وهنا نزل جميعهم فقال الرئيس في نفسه : الى أين يذهبون بي ؟

وقد سرى الرعب الي قلبه فقد كان يتوهم في البـدء انهم سيخرجون به فينيسيا وينقلونه الى الجبل ولكن أنزلوه عند سانت مارك فماذا يريدون ان يصنعون به .

ومـا زالوا يسيرون به حتى وقفوا عند احد أبواب تلك الكنيسة وبعـد هنيهة كان داخل الكنيسة وهي مضاءة بنور ضعيف .

فقال الرجل الذي يرافقهم : اسرعوا قبل فوات الوقت .

ثم تقدمهم فدخل من وراء الهيكل في باب ونزل منـــه على سلم وهم يتبعونه حتى اجتازوا ثلاثين درجة .

وهنـاك ساد الظلام فأنار الرجل مصباحاً ورأى رئيس البوليس انـه في إحدى مغاور تلك الكنيسة وهي مغارة متسعة بنيت فيها القبور .

فذهب الرجل الى أحد هـذه القبور وفتحه بلولب خفي فدخل رولاند قبـل الجميع وتبعه رئيس البوليس وسكالابرينو وذلـك الرجل فلما دخلوا جميعهم اقفل الباب من ورائهم .

وهناك رأوا نافذة تطل من ذلك القبر على قاعة رحيبة يستطيع الناظر أن يرى كل ما يجري في تلك القاعة ويسمع كل ما يقال من الحديث دون ان يراه احد .

فالتفت رولاند عند ذلك الى رئيس البوليس وقال له :

ـ انظر واسمع ولكن حذار ان تفوه بكلمة أو تكون من الهالكين .

وقد وقف سكالابرينو فوق رأسه والخنجر مجرد بيده .

وعند ذلك اطفيء النور الذي كان ينير القبر وأخفي ذلك الذي جـاء برولاند .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فكانت دقاتها في ذلك السكون تشبه اجراس الكنائس في ساعات الموت فلم تكد تدق الدقة الثانية عشرة حتى اشرقت القاعة فجأة بالانوار .

فهمس رولاند باذن الرئيس قائلاً : انظر جيداً .

فالصق الرئيس وجهه بنافذة القبر وقد دهش لما رآه حتى أنه نسي موقفه فقد رأى اثني عشر رجلاً ظهروا في تلك القاعة وهم يحملون المشاعل واصطفوا حول القاعة ولبث كل منهم واقفاً قرب مشعله وفي وسط القـــاعة مصطبة كبيرة لم يكن عليها احد ولكن كان عليها كراسي وبعد هنيهة جعل الناس يتواردون الى تلك القاعة وكلهم مبرقعو الوجوه فكان كل قادم يقف أمام واحـــد من حملة المشاعل حتى بلغ عدد الوقوف حول كل مشعـل اثنى عشر رجلا .

فعلم جينارو ان حملة المشاعل هم رؤساء تلك العصابة .

وقد جلس أربعة على كراسي المصطبة فقال رئيس البوليس في نفسه .

ـ ترى من عسى ان يكون هؤلاء المجتمعون المتنكرين وماذا يريدون ألعلهم اجتمعوا لمحاكمتي .. أهذه هي محكمة الجبال الهائلة . ولكن كلا ان ذلك لا يمكن ان يكون لأنهم لو كانوا يريـــدون محاكمتي لوجب ان يكون رولاند معهم وهو بجانبي فمن هم وماذا يريدون ؟

وعند ذلك وقف أحد الرجال الأربعة الذين كانوا جالسين على المصطبة فانتزع برقعه والقاه الى الأرض .

فذعر الرئيس ذعراً عظيماً فان هذا الرجل الذي اظهر وجهـــه والذي يظهر أنه رئيس هـــذه الجمعية السرية كان قائد جيش فينيسيا العام ، أي التياري .

اما التياري فانه وقف وخاطب الحاضرين قائلا :

ـ ايها الاخوان تفضلوا وانزعوا براقعكم حسب عاداتنا في كل اجتماع كي نأمن الخيانة ونثق انه لا يوجد بيننا رجل غريب .

فنزع الجميع براقعهم وبرزت الوجوه فجعل كل منهم يحيي الرفاق بكلمة أو بابتسامة أو اشارة ثم ساد السكوت .

أما رئيس البوليس فقد كان دهشه لا يوصف فجعل ينظر الى جميع اولئك المحتشدين فعرف معظمهم وكان كثيرون منهم في حاشية الدوج ومنهم من كبـــار الضباط وبعضهم من ضباط الإسطول وآخرون من النبلاء فقال في نفسه :

ـ ترى ماذا يريدون من هذا الاجتماع السري بل لماذا رولاند الذي كان يستطيع ان يقتلني جاء به الى هذا الاجتماع وأوقفه في مواقف يرى فيه اولئك الناس دون ان يروه .

أما التياري فانه مضى في حديثه فقال :

ـ ايها الاخوان أرى ان عددنا قد تم وقد عرفتم جميعكم ان ساعة العمل دنت فاشكركم لحضوركم والتفافكم حولي .

وكان يتكلم بلهجة السيادة ولم يكن بين الحاضرين من يخطر له ان ينازعه تلك السيادة فقد كانت علائم الامتثال بادية على الجميع .

فقال التياري:

ـ نعم لقد تم عددنا ولا ينقصنا غير واحد وهو دندولو .

فظهرت علائم القلق على جميع الوجوه بحيث استدل رئيس البوليس ان غياب دندولو يتوقف عليه أمر خطير .

ورأى التياري انهم يتوقعون منه ان يخبرهم باسباب هذا الغياب فقال :

ـ ان حمل يدي في عنقي ايها الرفاق يدلكم على اني كنت جريحا وذلك أني اضطررت الى المبارزة مع دندولو بسبب مسألتنا الكبرى فما ترددت هنيهة عن تجريد حسامي في وجه والد امرأتي وهو شبه أبي ولكني اعترف ان يدي اضطربت وذلك طبيعي خلافاً له فان يده لم تضطرب وأصاب بجسامة زوج ابنته .

أما السبب في هذه المبارزة فهو ان دندولو اخبرني فجأة انه لا يريـــد الانخراط في سلكنا وأنه تمعن في الأمر فرأى بعد التفكير ان الحكمة وصالح الجمهورية يقضيان ببقاء فوسكاري رئيساً وان المصلحة العامة تقضي بان لا يحدث تغيير على الاطلاق فاضطررت الى مبارزته .

فارتفعت الاصوات وقال كثيرون :

ـ من يضمن لنا انه لا يخوننا ؟

فابتسم التياري وقال :

ـ لقد حملته على ان يقسم على ان لا يبوح بكلمة مما يعرفه بل فعلت خيراً من ذلك فقد أكرهته على الاقامة في قصري ووضعت عليه الرقباء واليوم اكرهته على الاستقالة من منصبه بحيث لم يبق لدينا ما نخشاه .

فصعد عند ذلك رجل الى المصطبة واضطرب الرئيس حين رآه إذ عرف أنه اميرال الاسطول .

أما الأميرال فانه التفت الى الجمهور وقال :

ـ سادتي وإخواني .

ان ما أراد عمله رفيقنا العزيز ورئيس جمهوريتنا في المستقبل لا يستطيع ان يعمله سواه.

ويسؤني جداً ، ان اتبين هذا الضعف من دندولو ولكني على ثقتي انه لا يخون أرى انه لا بد من قتـــله حرصاً على شرفنا وسلامتنا ومستقبل مشروعنا .

فصاح الجميع قائلين :

فقال الأميرال : هو ذاك ويجب ان نقر على ذلك منذ الليلة فاسمعوا ما اقترحه .

اني اقترح على ان نقترع على ثلاثة منا وهؤلاء الثلاثـة الذين تصيبهم القرعة يذهبون الى قصر التياري حيث يقيم دندولو فيقترحون عليه مبارزة شريفة فاذا لم يقبل بها طعنوه طعنة خنجر تكون القاضيه وإذا قبل بارزه الثلاثة كل بدوره حتى يقتله واحد منهم .

فوافق الاكثرون على هذا الاقتراح ونزل الاميرال عن المصطبة .

أما التياري فقد قطب حاجبيه وقد علم القراء كيف ان دندولو كان مقيما في قصر التياري لم يصدق بكل ما رواه إلا بأمر واحد وهو استقالة عمه للانصراف الى العناية بليونور فماذا يصنع متى ذهب هؤلاء المؤتمرون الى منزله وماذا يكون من ليونور متى علمت مقاصدهم واسترسلت الى اليأس .

ولذلك استرعى الجمهور السمع وقال :

ـ ايها السادة الاخوان اني لا اوافق على اقتراح الاميرال فلو قتـــل دندولو في منزلي فكيف اوضح هذه الحادثة ؟

علي اني اؤكد لكم ان والد امرأتي مقيم في منزلي واني مبالغ في مراقبته فاذا قتلناه الآن اثرنا الظنون فيحدث الناس بما يكون وبما لا يكون .

على انا اذا صبرنا الى اليوم التالي لفورنا لا نخاف دندولو سواء كان ميتاً او حياً ولذلك اسألكم ان تعتمدوا علي بكل ما يتعلق برئيس ديوان التفتيش فأنا المسؤول عنه .

وكان التياري يتكلم والاضطراب ظاهر في لهجته فحمل الجميع اضطرابه على محمل النسب وفوق ذلك فقد كان بالتياري ثقة لا حد لها وما زال قد تعهد بعمه وتحمل تبعته فلا سبيل الى مقاومته .

ولذلك وافقوا جميعهم على اقتراحه حتى الاميرال نفسه وكان من الذين خدعوا باضطرابه ايضاً رئيس البوليس فقال في نفسه :

– اني لم اكن أعهد بأن التياري يحب عمه الى هذا الحد بل كنت أحسب ان الأمر على عكس ما رأيت ولكن فلأسمع .

وعند ذلك قال التياري :

– ليقدم الآن الزعماء تقاريرهم .

فرأى رئيس البوليس ان الاثني عشر مؤتمر الذين جاءوا في البدء بمشاعلهم قد تقدموا من التياري واعطوه اوراقا مختلفة .

فأخذ التياري الاوراق وجعل يقرأها مع ثلاثة كانوا بالقرب منه .

حتى إذا اتم تلاوتهـــا ذهب الى أحد القبور ففتحه ووضع فيه تلك الأوراق .

فارتعش الرئيس سروراً ونسي ان رولاند وسكالابرينو واقفان وراءه .

وعند ذلك خلا التياري باثني عشر رجلا من الحاضرين وجعلوا يتداولون فدامت المداولة ساعة .

وبعد ذلك عـــاد المتداولون الى مواقفهم امام المشاعر وساد السكون الرهيب هنيهة فانهم سيسمعون القرار النهائي .

وقد صعد التياري الى موقفه الأول وقال بصوت جهوري :
« أيها الاخوان ،

ان جمعيتنا مؤلفة من النبلاء وقواد البر والبحر ومن كل من يتولى منصباً عالياً في فينيسيا او كان ذا وجاهة فيها .

أمـــا عامة الشعب فـــلا نعتمد بهم إذ ليس بينهم من يحب فوسكاري وسينظرون بجملتهم الى سقوطه بغير اكتراث .

ونحن متفقون على المناصب التي يتولاها كل منكم في الحكومة الجديدة فلا حاجة الى البحث في هذا الموضوع .

ولكني أقسم أمامكم أيها الاخوان وأمام ارواح اولئك الموتى التي ترفرف حولنا وأمام الله الحاضر في هذا الهيكل اني لا أخل بحرف من الشروط التي عاهدتكم عليها واني امنح كلا منكم ما وعدته به في اول يوم من فوزنا .

والآن فاعلموا انكم جميعكم قد اقسمتم لي ايضاً يمين الوفـاء والاخلاص » .
فرفعوا جميعهم أيديهم وقالوا بصوت واحد :
— إننا نجدد اليمين .

فقال التياري :

— إذن فاعلموا اننا متأهبون وقد اعددنا كل ما ينبغي من الوسائل وكل منكم يعرف موقفه وما يجب ان يفعل بحيث لم يبق علينا إلا تعيين اليوم الذي يجب ان نضرب فيه الضربة الكبرى ونحن قـــد اجتمعنا وتداولنا لتعيين ذلك اليوم .

فاعلموا إذن اننا لا نجتمع في هذا المكان بعد اليوم فهو اجتماعنا الأخير .

وأنتم تعلمون ايهـــا الاخوان ان فوسكاري لم يحتفل بعد تلك الحفلة التقليدية التي يحتفل بهـا كل دوج يتولي فينيسيا وهي تلك الحفلة التي نسميها « زواج الدوج ببحر الادرياتيك » .

وبناء على إلحاحي وإلحاح بعض رجالنا رضي فوسكاري ان يحتفل بهذه الحفلة في آخر العام أي في زمن قريب .

ففي هـذا اليوم ، أي في يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك ، يكون موعد زواجه بالموت .

أما موعد اجرائنا فسيكون موعد هذه الحفلة فمنذ إطلاق اول مدفع من مدافع الاحتفال يعمل كل منكم بما عهد اليه فهل توافقون على هذا الموعد؟

فصاح الجميع هاتفين لالتياري إشارة الى الموافقة . وعند ذلك قال لهم:

ــ إذن استودعكم الله الى يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك .

فمدت الأيدي اليـه من كل صوب وصافحه الجميع وهم يهنئونه بالفوز وهو يقبل تهنئاتهم بالشكر .

وبعد ربع ساعة تفرق الجميع وعـاد الظـلام والسكون الى تلك القاعة وبقي جينارو رئيس البوليس وهو حائر مضطرب يسائل نفسه مراراً هذا السؤال فيقول :

ــ ترى لماذا أراد رولاند ان احضر هذه المؤامرة ؟

وعند ذلك فتح باب القبر الذي كانوا فيه ودخل ذلك الرجل الذي جاء برولاند اليه وهو يحمل مصباحاً ، فخرج رولاند في البـــدء وتبعه رئيس البوليس بين الرجل وسكالابرينو فصعدوا السلم حتى وصـــلوا الى ساحة الكنيسة .

وفيما هو يسير معهم وقد نسي نفسه لفرحه بهذا الاكتشاف رأى ان سكالابرينو قد وقف هو ايضـــاً والتفت الى ما حواليه فرأى ستة رجال جالسين على كراسي وأمامهم الشموع .

فذعر وقال في نفسه : ترى أية حـادثة جديدة ؟ ومن هم هؤلاء الستة الذين يشبهون القضاة ؟

ثم رأى صندوقاً طويلا يشبه التابوت فذعر وقال : ما هذا ؟

فأجابه صوت قائلاً : إنه تابوتك .

فاشتد رعبه ولم يعرف من الذي قال له هذا القول .

ثم سمع رولاند يقول لأولئك الستة :

— يا زعماء الجبل ان الاجتماع الذي كنا عزمنا على عقده في بيت الجزيرة سنعقده هنا واننا في مأمن .

ولكننا قبل ان نبحث في أعمالنا اطلب اليكم ان تؤلفوا شكل محكمة لمحاكمة هذا الرجل .

فقال احدهم : ماذا فعل المتهم ومن الذين يشكوه ؟

قال : أنا .

قال : تكلم إذن ايها الرئيس فاننا مصغون اليك وسنحكم عليه حسب شرائعنا المستقلة .

فقال رولاند : ان اتهامي ينحصر بكلمة وهي ان هذا الرجل يدعى جينارو أي رئيس بوليس فينيسيا .

فقال احدهم : هل التهمة ثابتة عليه ؟

— إنه جاء في هذه الليلة الى جزيرة اوليفو للقبض عليّ أليس ذلك أكيداً يا جينارو ؟

قال : ذلك لا ريب فيه ولكني قد فعلت واجباتي .

فقال أحد القضاة :

— ان الاقرار صريح فلا سبيل بعد ذلك الى المحاكمة ولم يبق بد من ان ينفذ فيه العقاب حسب شرائعنا ثم وقف وقال :

— ان مهمتك يا جينارو تقضي عليك بمطاردتنا نحن الذين نحاول إعطاء الحرية والاستقلال لهذا الشعب المضطهد .

وان شرائعكم تحكم على كل من تقبضون عليه منا بالإعدام وكذلك شرائعنا فانها تحكم عليك بالإعدام لأنك من أعدائنا فتأهب للموت .

فقال رولاند : اني أطلب المتهم حق الدفاع عن نفسه .

فنظر الستة الى رولاند نظرة انذهال فقال احدهم :

— دافع إذن عن نفسك يا جينارو فقد سمعت اننا نعتبرك من أعدائنا وإننا نقضي عليك بالموت لأنك لو قبضت على واحد منا لقضيتم عليه مثل هذا القضاء وقد أراد رئيسنا الأكبر الذي أخرجنا من الظلمة الى النور وعلمنا ما لا نعلم من اسرار الحياة ان تدافع عن نفسك فدافع إذا استطعت.

قال : اني لا اعتبركم قضاة .

— وهل الذين يحكموننا منكم قضاة أعظم منا ؟

— نعم لأنهم يحاكمون باسم شرائعنا .

— ونحن نحكم باسم شرائعنا ايضاً أمـا انتم فتحكمون بالظلم والكذب فتجورون على الضعيف والفقير وترهبون الغني والقادر أما نحن فان شرائعنا تمنح حق هذه الحياة لكل إنسان وتبنى على المساواة وأنتم تختارون قضاتكم من بينكم فكيف تنكرون علينا ان نختار قضاتنا من بيننا ؟

قال : حسناً فاني اعتبركم قضاة ولكنكم لا تستطيعون الحكم عليّ لأني قمت بواجباتي .

— أتحسب من واجباتك قتل أمثالك في الإنسانية او تسليمهم الى الجلاد ليقتلهم ؟

— كلا اني أقبض على أمثالي بل على الذين يسيئون الى الهيئة الاجتماعية.

— أي الذين يسيئون اليكم أنفسكم وكذلك نحن فاننا نقتل من يسيء الينا .

— إذن كنتم تفعلون نفس ما نفعله لكنتم ايضاً مثلنا .

— هو ذاك غير ان مقاصدنا تختلف عن مقاصدكم ولكن الواسطة واحدة وهي الحرب الناشبة بيننا .

ـ إذا كان ذلك فلم يبق لي سبيل الى الدفاع لأني أصبحت أسير حرب فافعلوا بي ما تشاؤون .

وقد أطرق برأسه وضعفت عزيمته فقال له رولاند :

ـ هذا الذي كنت ادفعك الى قوله يا جينارو وهو ان تعترف انك أسيرنا وانك أسير حرب وانه يحق ان نعاملك معاملة عدو لدود .

ـ اقتلوني اذن ما زلت كما تقولون .

ـ اصغ إلي يا جينارو فان أبي حين كان دوجاً لم يسىء الى حرية الشعب بشيء ولم يخالف نظام الشرائع ولكنه كان يعتبر ان أفقر بحار وأعظم نبيل متساويان لدى القانون وهذا هو ذنبه الوحيد الذي جوزي عنه بشمل عينيه كما تعلم وجوزيت أمي بالموت يأساً وجوزيت أنا بالسجن ستة أعوام في أعمق الآبار .

فاعلم يا جينارو ان الذين انفذوا هذا العقاب الهائل كانوا فوسكاري وبيبو والتياري وقد عرفت جرائمهم الهائلة وانهم لم يبلغوا الى هذه السلطة إلا بعد ارتكاب هذه الجرائم ومع ذلك فانك تخدمهم .

فكيف تقول انك تفعل واجباتك بالقبض علي وانما أنا أريد معاقبة المجرمين بل اني أريد ان اعمل عملاً نافعاً يستفيد به جميع الناس وكان عليك ان تختار بين العقاب والجريمة ولكنك اخترت الجريمة بخدمة أهلها .

جرد نفسك يا جينارو من شوائب الاغراض ولا تفتكر بظاهر تلك الالفاظ الرنانة كالواجبات والعدل والشرائع بل افتكر بحقيقة معانيها تجد انك اخطأت بخدمة هؤلاء المجرمين الذين لا يستخدمون الشرائع الا للعبث بالشرائع ولا يتذرعون بالواجبات الا للاخلال بالواجبات .

فتأثر رئيس البوليس لأقوال رولاند وترقرق الدمع في عينه فقال له رولاند :

ـ ان دمعة واحدة تشتري زلات كثيرة فتمعن يا جينارو بكل ما رأيته

وسمعته الليلة في الدهاليز السرية واذهب فانك حر مطلق السراح .

فكادت عيناه تخرجان من وجهه لفرط انذهاله وقال : أنا حر طليق ؟

ثم سقط مغمياً عليه كأنه لم يطق احتمال هذا السرور الفجائي بعد أن سمع بأذنه حكم الاعدام عليه وبعد أن رأى بعينه التابوت .

فلما استفاق لم يجد نفسه حيث كان بل وجد انه كان طريحاً على شاطىء الترعة .

فاسرع الى منزله فوضع رأسه بين يديه وتاه في مهامه التفكير .

* * *

عندما ذهب رولاند الى كنيسة سانت مارك كان عالماً بما سيراه فقد كان له كثير من المخلصين بين المؤتمرين مع التياري وقد وقف منهم على نيات هذا القائد .

وكان في وسعه احباط هذه المؤامرة غير انه رأى ان يهيج الحزبين حزب فوسكاري وحزب التياري فيقسم قوتها ويضعفهما وكلاهما خصمه فقد ثبت جلياً أن الأميرال لم ينخرط في سلك هذه المؤامرة الا بايعازه .

وعلى ذلك فان الدوج والتياري سيقتتلان أشد قتال دون ان يعلما ان رولاند الذي سحقهما .

فلما أتاه ذلك الرجل حين قبض سكالابرينو على جيناريو وعلم منه ان الجلسة ستعقد هذه الليلة خطر له ان يصحب معه رئيس البوليس .

وذلك أنه منذ قبض عليه كان يفتكر بأن هذا الرجل قد يفيده فائدة عظيمة ويتمعن الفكرة في طريقة استخدامه الى ان خطر له ذلك الخاطر الفجائي وهو أن يدع رئيس البوليس يعلم بأمر المؤامرة ويعلم جميع المؤتمرين فيخبر فوسكاري دون شك بما رآه فتنشب الحرب الأهلية بين النبلاء المنقسمين الى قسمين فيضعفان بعد هذا القتال فيغتنم رولاند فرصة

هذا الضعف ولا يجد مقاوماً شديداً حين يضرب ضربته الكبرى .

ولذلك أطلق سراح رئيس البوليس بعد ان أوهمه انـه محسن اليه بهذا العفو وبعد ان أوقفه على هذا السر الهائل

* * *

أما جينارو فانه بعد أن لبث في منزله مضطرباً نحو ساعتين عادت اليه السكينة وعاد الى التفكير والإمعان .

ومن غريب أمره أنه كان يبذل جهداً عنيفاً كي لا يفتكر برولاند ولكنه لم يكن يستطيع التفكير الا به فكان يسمع قوله له :

ـ انك حر مطلق السراح .

فيهتز لهذا القول ويقول : ان من واجباتي ان اقبض عليه وسأفعل أما الآن فلافتكر بغير هذا الشأن .

٤٨

جوانا

تركنا جوانا وقد خرجت من المنزل بعــد ان ودعت رولاند واباه وسكالابرينو وذهبت توا الى فينيسيا فلم تقم في ذلـك المنزل الذي كانت تقيم فيه مع سكالابرينو بل استأجرت غرفة في شارع ضيق يشرف على ساحة سانت مارك .

ولم تكن قد وضعت لنفسها خطة فان هذه المنكودة لم يكن لها غـير فكر واحد وهو انقاذ ساندريجو من رولاند .

وكانت خطتها شديدة الصعوبة فانها كانت تريد انقاذ ساندريجو ولكنها كانت تحاول في الوقت نفسه إكراه ساندريجو على عـدم قتل رولاند أو سكالابرينو .

فلما وصلت الى فينيسيا كان اول همها ان تجد ساندريجو فاقامت اربعة ايام وهي تبحث عنه كل يوم في الميناء والأرصفـة والشوارع الى ان كانت الليلة الخامسة فلقيته عند ساحة سانت مارك ولكنها وقفت حائرة منذهلة لا تعلم اذا كانت خدعتها عيناها لانها رأت ذلك اللص بملابس الضباط .

فلما ثابت من ذهولها كان ساندريجو قد دخل الى قصر بهو فوقفت عند ذلك الباب تنتظر خروجه .

وبعد نصف ساعة خرج ساندريجو وسار فاقتفت أثره وهي لا تعلم ماذا تصنع الى ان وقف عند باب منزله وهم بالدخول فالتفت منذهلا اذ شعر بيد لطيفة قد وضعت على كتفه ورأى جوانا فقال :

ـ انت هنا في فينيسا !

قالت : نعم وقد اتيت لاحدثك يا ساندريجو .

ـ اذن ادخلي ايتها العزيزة لتعلمي مقدار سروري بلقياك .

فدخلت واياه واجلسها فقال لها بلهجة الهازىء :

الا تزالين في حراسة الشيوخ والفتيات .. اني اهنئك بهذه المهمة ولكني اعجب لفتاة جميلة مثلك لا تزال في نضارة شبابهـا كيف تقضي على ذلك الشباب وتدفن نفسها حية كي تخدم المجانين .

ولكنك اتيت اخيراً واذا شئت أجعل لك مركزاً هنا فلا تعجبي لقولي الذي لا ينطبق على ظواهر منزلي الحقيرة ولكن لا تغتري بالظواهر فانه لا يمضي زمن وجيز حتى ابلغ ما لم يكن يخطر في بال .

وكل ما أرجوه ان لا تكوني حاقدة علي فقـــد قضت علي السياسة ان

اتصرف معك كما تصرفت واعلمي اني قادر على افادتك فاذا شئت ادخلتك الى منزل امرأة شهيرة فلا تجدين عندها الا الخير اتقبلين ؟

فاجابته قائلة :

ـ ساندريجو اني ما اتيت إلا لانقذك .

ـ ممن تنقذينني ؟

ـ من رولاند كانديانو .

فوقف ساندريجو وقد توقف الحقد في عينيه وقال :

ـ رولاند كانديانو ذلك الرجل الذي اهانني وداس كبريائي .

اني اكرهه بملء جوارحي ويسرني انك اتيت لانذاري يا جوانا بعد ان اسأت اليك تلك الاساءة فقولي يا جوانا كل ما تعلميه عنه فقد عرفت نياته دون شك واين هو مختبيء فلا تمضي ساعة حتى يبيت قتيلا .

ـ كلا يا ساندريجو انك لا تقتل رولاند .

ـ لا اقتله ابداً ؟

ـ كلا .

ـ ومن يمنعني ؟

ـ أنا .

ـ انك مجنونة دون شك .

ـ تفرس في وجهي اترى مني ما يدل على الجنون ؟

ـ اني لا افهم ما تريدين فقد قلت لي انك اتيت لانقاذي من رولاند ثم تقولين انك تمنعينني عن قتله فكيف يتفق هذان القولان ؟

ـ لقد قلت ما قلته يا ساندريجو فاصغ الي واعلم انه إذا قتلك رولاند مت انا يأساً ولذلك اتيت لأنقذك ولكنك اذا اردت قتله فاقتلني أنا قبله .

فضحك ساندريجو وقال :

– اني لا أفهم شيئاً من اقوالك لأنك تريدين ولا تريدين في وقت واحد فاوضحي ما تقولين .

– ذلك لأني لا أريد ان تموت ولا ان يموت هو ايضاً فاعذرني يا ساندريجو إذا كنت لا أحسن التعبير عن افكاري فلا تنظر إليّ هذه النظرات ألا ترى اضطرابي ؟

– ولكن ألم أقل لك اني اكره هذا الرجل كرهاً لا تصفه الاقلام واني لا يهنأ لي عيش إلا بقتله فاذا كنت لا تريدين ان اقتله فقولي لي على الأقل كيف تريدين إنقاذي ؟

– ذلك لأني أعلم عن رولاند ما لا تعلمه وإذ كنت قد عرفت شيئاً فقد فاتتك أشياء ، ألا ترى ذلك الاعصار حين يثور فيجرف كل مـا يمر به في السهول وهكذا رولاند فانه سيمر بفينيسيا مرور الاعصار والويل لمن يقف في سبيله ، فلماذا تريد ان تتصدى له يا ساندريجو ، اني اضمن لـك بأنه لا يمسك بسوء بشرط ان لا تقف في سبيله .

– لقد فهمت الآن .

– ماذا فهمت ؟

– فهمت ان رولاند ارسلك إليّ لأنه يخافني .

– انك منخدع يا ساندريجو فان رولاند لم يكلمني كلمة عنك بل أنا الذي كلمته وقرأت بين عينيه انه يعفو عنك إكراماً لي بشرط ان تنسحب من المعركة .

– أي بشرط ان أبرح فينيسيا .

– نعم هو ذاك فلنسافر معاً يا ساندريجو أتريد ان أسافر معك الى حيث تشاء وأكون معك كما تشاء .

– أأتيت الى فينيسيا لتقترحي عليّ مثل هذا الاقتراح ؟

– نعم .

– ان اقتراحك صالح مقبول ولكن يوجد مانع يحول دون تنفيذه .

– كرهك لرولاند أليس كذلك .. واأسفاه اني كنت أود ان تعرفه حق العرفان .

– إذن كان يزيدني كرهاً ولكن ليس الكره الذي يحول دون اقتراحك.

– إذن ماذا ؟

– الحب .

فصعقت جوانا لهذا التصريح ومضى ساندريجو في حديثه فقال :

– نعم اني محب واني محبوب ويوم السبت سيعقد قران القائد ساندريجو في كنيسة سانت مارك ويحضر حفلة قرانه نبلاء فينيسيا والآن فاذا اردت ان تعرفي خطيبتي فاعلمي انها تدعى بيانكا .

فسقطت جوانا على كرسيها واهية القوى وأتم ساندريجو حديثه فقال:

– أرأيت كيف اني لا استطيع ان أبرح فينيسيا في الوقت الحاضر فاذهبي الآن يا جوانا فقد اوشك ان يهبط الظلام ومتى تزوجت وسكنت في منزلي الجديد سأستقبلك على الرحب .

وكان هذا اللص السفاك يكلم تلك المنكودة وهو يشاور نفسه بين ان يبقيها عنده أسيرة او يفتك بها كي يمنعها عن ان تقابل رولاند .

ولكن خطر له انه اذا تركها تنصرف يتعقب أثرها ويعلم اين يقيم رولاند إذ لم يكن لديه شك لفرط غروره بنفسه ان رولاند يخـــافه وانه ارسل جوانا اليه .

أما جوانا فان كلمات ساندريجو ضعضعت حواسها فقالت له :

– الى اللقاء القريب ثم انصرفت وهي تتمتم بكلمات لا تفهم .

وأما ساندريجو فانه خرج في أثرها الى ان عرف المنزل الذي دخلت اليه.

فانصرف وعاد بعد نصف ساعة يصحبه جاسوس فدله علي المنزل وقال

له : انها تقيم هنا فيجب ان تعرف أين تقيم بالتدقيق كي لا أجد صعوبة حين الدخول اليها .

فأجابه الجاسوس قائلا : ذلك سهل .

قال : حسناً فسأقف في موقف المراقبة وسأرسل لك معيناً فاذا خرجت فاتبعها وإذا زارها احد فارسل إلي في الحال من يخبرني ثم تركه وانصرف بينما كانت جوانا في غرفتها الصغيرة تشهق بالبكاء .

***

بينما كانت جوانا تبكي وتنتحب وتنظر واليأس ملء قلبها الى تلك الهوة العميقة التي فتحت أمامها كان ساندريجو قد دخل الى منزله ووقف يصلح شعره أمام مرآته ويتأنق في لباسه .

حتى إذا أتم لبس ثوبه الجديد قال في نفسه :

— من يستطيع ان يعلم انه يوجد في هذا الثوب ذلك اللص السفاك ساندريجو ، كلا حتى ان رفاقي القدماء قد لا يعرفونني .

حتى إذا أتم لباسه ولبس قبعته نظر الى المرآة نظرة أخرى وابتسم وقال :

— لا شك ان النصر سيكون حليفي وسأظفر بقلب بيانكا في حفلة الليلة .

ذلك ان ساندريجو كان كسواه من الشبان الأغرار الذين منت عليهم الطبيعة بشيء من الجمال فانهم يحسبون ان النساء رهن لحظة من لحظاتهم .

على ان قتله لرولاند كان اسهل من فوزه برضى بيانكا .

ولم يكن ساندريجو وحده يهتم بهذه الحفلة التي ستعقد فيها خطبته هذه الليلة في قصر امباريا بل ان رولاند ايضاً كان يود حضورها فقد لبس ملابسه

ولم يغيّر ولم يتنكر فلا ندري أكان ذلك لإفراطه في البسالة أم انه كان له قصد خاص .

غير انه لبس برقعاً من المخمل الأسود حسب العادة في تلك الايام وخرج من المنزل في الساعة الحادية عشرة ونصف أي بعد بدء الحفلة بساعتين .

ولما خرج من المنزل الى الردهة وجد كثيرين من الرجال مجتمعين فيها فقال لهم :

— هل هيأتم رجالكم ؟

قالوا : نعم فانهم في مراكزهم منذ ساعتين .

— حسناً فسأخرج من الحفلة في الساعة الثانية تقريباً بعد انتصاف الليل فلا تصنعون شيئاً فاذا بلغت الثانية والنصف ولم تروني فابدأوا الهجوم .

فانحنى اولئك الزعماء بملء الاحترام وتفرقوا بحيث لم يبق غير سكالابرينو فقال :

— أتظن يا مولاي اننا نفوز ؟

قال : اطمئن يا سكالابرينو فان القصر سيطوقه مائتا رجل وهذا العدد كاف لاختطاف فتاة .

قال : لقد أصبت يا مولاي فان ثقتي بك لا حدّ لها واني اعتقد اعتقاداً كبيراً انك سترد لي ابنتي ولكن قلبي يحدثني بمصاب لا اعلم ما هو .

— لا تخف شيئاً فقد علمت ان بياندكا كانت في قصرها في الساعة الثامنة من هذه الليلة .

فأطرق سكالابرينو هنيهة مفكراً ثم قال :

— لقد عهدت يا مولاي الى كل من رجالنا بمهمة يقضيها إلا أنا .

قال : ليس من مهمة اعهد اليك بها سوى انه يجب ان تقف أمام باب قصر امباريا الى الساعة الثانية والنصف .

– لماذا لا تريد ان اعمل شيئاً .

– لأنك أب قد يدفعك الحنو الى فعل ما يفسد عملنا فدعني أقضي هذه المهمة مع رجالنا وهلمّ بنا الآن فقد حان الأوان .

* * *

ولنعد الآن الى جوانا فان هذا النبـأ الذي تلقته من فم الذي تحبه عن بيانكا قد صعقها فاسترسلت الى البكاء حتى إذا نضبت دموعها قالت :

– كلا انه لن يتزوجها وذلك مستحيل .

ثم خرجت من منزلها هائمة على وجهها وهي تردد هذا القول كالمجانين .

ومـا زالت تسير حتى رأت انها بلغت شاطىء الترعة الكبرى وهنـاك لقيت بحاراً وقالت له :

– هل لك ان تدلني على قصر امباريا ؟

فمد البحار يده مشيراً الى قصر يبعد نحو مائة خطوة .

فقالت : اهذا هو قصر امباريا ؟

قال : نعم هو ذلك القصر المتلالىء بالانوار إذ يظهر ان ليس لهذه المرأة بنتاً وانها تحتفل الليلة بعقد زواجها .

فارتعشت جوانا وسارت الى ذلك القصر .

٤٩

أم او حظية

كانت امباريا قد عقدت هذه الحفلة بأمر بيبو فجاءها الناس على اختلاف الطبقات وكانت حفلة نادرة المثال فان المحظيات في ذلك العهد كان لهن منزلة كبيرة ولا سيما من كانت مثل امباريا وكان يظهر عليها في تلك الليلة انهـا

متأثرة تأثراً عظيماً فانها كانت تضحك ثم يصفر وجهها ثم تقطب حاجبيها ثم تعود الى الضحك وكل ذلك لغير سبب ظاهر .

وقد كانت لم ترَ بنتها منذ ثلاثة أيام فان الغيرة كادت تمزق قلبها الفاسد.

ففي الساعة الخامسة من تلك الليلة دخلت الى بنتها تتبعها خادمة تحمل صندوقاً صغيراً فأمرت الخادمة ان تضع الصندوق في الغرفة وان تذهب لإحضار البقية .

فامتثلت وعادت بعد هنيهة بثوب من الحرير الأبيض فوضعته على المقعد.
أما بيانكا فانها كانت تنظر الى هذه الملابس نظرات تشف عن الرعب .

فلما انصرفت الخادمة دنت امباريا من بنتها فقبلت جبينها ثم فتحت الصندوق فأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ الثمين ومشطاً مرصعاً باللؤلؤ ايضاً ونطاقاً مرصعاً بالالماس ثم اخرجت تاجاً صغيراً رصع بالحجارة الثمينة المختلفة فأخذت تلك الحلى بيدها وقالت :

— كيف ترين هذه الحلى يا ابنتي ؟

قالت : انها من ابدع المجوهرات .

— ولكن جمالها يزيد متى كانت عليك .

— عليّ أنا ؟

— نعم يا ابنتي فاني أحب ان تلبسيها كي أرى كيف تكون عليك مع الثوب الأبيض .

فوقفت بيانكا وقد تبين الذعر في عينيها فقالت :

— ماذا تريدين مني يا أماه اني احب ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة .

— أتعدين اعظم حفلة أحييها في فينيسيا من الأمور الهائلة ؟

— إذن لقد احضرت لي هذه المجوهرات وهذا الثوب كي احضر تلك الحفلة التي سمعت الخدم يتحدثون بها ؟

— نعم يا ابنتي فاني أريد ان تفتني الأبصار وان تهيجي قرائح الشعراء

واعلمي يا بيانكا انك قد تجاوزت السن الذي تنحصر فيه البنات في المدارس وفي الغرف وآن لك ان تظهري أمام الناس فان هـذه العزلة تقتلك وأنا لا أريد لـك إلا الحياة فانك تعلمين انك ابنتي الوحيدة وانك كل مـا أحبه في هذا الوجود .

وبعد ان قالت لها هـذا القول وقفت تتمعن في جمالهـا فاصفر وجهها فجأة وقالت :

— نعم ان جمالك بديع فتان لا يلبث الناظر اليك ان يراك حتى يتدله في حبك ، وأما أنا ..

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وقالت :

— ما بالك يا أماه ومـا هذه الأقوال الغريبة التي اسمعها منك انك تعذبينني .

فبذلت امباريا جهـداً عنيفاً حتى تمكنت من ضبط نفسها فضحكت وقالت :

— الحق اني مجنونة فاعذريني يا ابنتي فاني متأثرة لفرط سروري بك فان هذه هي المرة الأولى التي تجتمعين بها مع الناس .

ثم أشارت الى المقعد وقالت :

— انظري الى هذا الثوب الابيض يا بيانكا فقد اعتنيت به عناية خاصة وستظهرين بـه كالملكات ولكن كاد يفوت الأوان يا ابنتي وسألبسك إياه بيدي .

فتأوهت بيانكا وقالت :

— اني لا أحضر هذه الحفلة يا أماه .

فارتعشت امباريا وخامر قلبها شيء من الرجاء ولكنها مع ذلك لم تجد بـداً من اقناعهـا على حضور الحفلة فان عواطف الأمومة وعواطف الغيرة كانت تتنازع في قلبها .

فقالت بيانكا :

— انك تعلمين يا أمي شدة نفوري من هذه الحفلات فلماذا تحاولين إكراهي على حضورها وماذا اعمل بحفلة لا اعرف احداً من اهلها ؟

فأجابتها بصوت مختنق وهي تتمنى ان لا تتمكن من اقناعها .

ولكن ذلك لا بد منه يا ابنتي .

— لا افهم ما تقولين وهذا الذي يعذبني فقد أشكل عليّ فهم مقاصد الناس حتى أمي وقد آن لنا ان نتوضح يا أماه بملء الاحترام .

— تكلمي يا ابنتي وسليني عما تشائين أجيبك .

— نعم فاني أحب ان اعلم قبل كل شيء لماذا تقولين ان حضور هذه الحفلة لا بد منه ولم تقولي هذا القول قبل اليوم ولماذا كنت تحجبينني عن العيون حتى اوشكت ان تسدي عليّ منافذ النسيم والآن تريدين ان اظهر في قاعتك لجميع الناس ؟

— ذلك لأن اليوم غير أمس ولكنك تجاوزت عهد الحداثة فأصبحت صبية وغداً تصبحين امرأة حسب النظام العام .

فاصفر وجه بيانكا وقالت :

— ذلك يدل انك تريدين تزويجي .

— هو ذاك .

— وعلى ذلك فقد اخترت لي الزوج .

— وهذا أكيد ايضاً .

— وإذا قلت لك اني لا أريد ان اتزوج واني ارجوك ان تذهبي بي من فينيسيا .

— أجيبك ان زواجك ضروري .

— ولمن ؟ ما زلت لا أريد الزواج .

— لي أنا .

فساد بين الأم والبنت سكون يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة .

فأطرقت امباريا برأسها وكانت عيناها ترسلان شراراً خلافاً لبيانكا فانها كانت تراقب أمها بملء السكينة ولكن علائم صحة العزيمة كانت بادية عليها فان نبأ زواجها قد أثر بها تأثيراً عظيماً ولكنها علمت انه لا يزال لديها أمور كثيرة يجب ان تعلمها فتمكنت من ضبط نفسها وقالت :

— أرى يا أماه منذ عهد بعيد ان لديك أمور خفية تحاولين كتمانها عني فاني عشت كل مدة حداثتي وحدي ولما جئت اليك جعلت حاجزاً منيعاً بيني وبينك ومع كل ذلك اشعر انك تحبينني واني أحبك .

ثم انك لا تخرجين بي للنزهة إلا حين هجوم الظـــلام وتبرقعين وجهي ووجهك ايضاً ببرقع كثيف كأنك لا تريدين ان يعرفك احد حين أكون وإياك وهنا في نفس هذا المنزل اعيش معتزلة منفردة لأسباب لا اعلمها حتى سئمت هذا العيش وهذه الالغاز ولكن ليس هذا كل شيء فانك الى الآن لم تقولي لي شيئاً عن أبي .

— أبوك ؟

— نعم أليس لي أب ؟

فاضطربت امباريا اضطراباً شديداً إذ لم يخطر في بالها ان ابنتها ستسألها يوماً عن أبيها فنسيت في تلك اللحظة ساندريجو وبمبو والحفلة وبدت على وجهها صفرة الخجل وهي لم تخجل في حياتها فقالت لها :

— اسكتي يا بيانكا فلماذا تريدين ان تخجليني ؟

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وحدقت بهـــا كأنها تحاول ان تقرأ دخائل قلبها في عينيها وقالت :

— أي خجل تعنين يا أماه انك قد اندفعت في القول فلم يبق لي بد من ان أعلم .

— بيانكا أرجوك ..

— كلا اني أريد ان أعلم .

ـ إذا كان لا بد من ذلك فاعلمي .. ثم غطت وجهها بيدها وقالت : ان أباك لص لم يرك في حياته ولا يعلم بوجودك .

ـ يا للهول .

ـ نعم يا ابنتي هذا هو السر الهائل الذي اكرهتيني على ان أبوح لك به فاني كنت أحاول أن اكتم عنك عيشي الذميم ولكنك أبيت الا اكراهي على القول .. نعم يا ابنتي اني تلك الحظية الشهيرة التي يدعونها امباريا .

وهنا اختنق صوتها بالبكاء فقالت بيانكا بلهجة حنونة :

ـ كفى أيتها الأم العزيزة فاني سأنسى كل ما سمعته منـــك الآن فليمت الماضي ولنبرح هذه المدينة الى بلاد لا يعرفنا فيها أحـد فافتخر بك وأقول هذه امي التي أحبها .

فهاجت العواطف المختلفة في صـــدر امباريا وتمثل لها أنها إذا برحت فينيسيا اضطرت الى فراق ساندريجو فسقطت عواطف الأمومة لمجرد هذه الذكرى وقالت :

ـ اني أريد يا ابنتي ان أسافر فان كل سعادتي ان أكون انا وإياك ولكن ذلك مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ لا تسأليني مزيداً ولكن اعلمي انه قـد مر في أيامي الماضية حوادث دعت الى يأسي اذا لم تنقذيني قضى علي .

ـ تكلمي يا أماه فاني مستعدة لانقاذك .

ـ اذن فاعلمي يا بيانكا انه لا ينقذني غير زواجك ولا تحسبي اني اريد أن اضحي سعادتك على هيكل أغراضي فان ذلك الرجل الذي يحبك ويريد زواجك يشغل منصباً خطيراً في فينيسيا وهو في مقتبل الشباب جميل قوي تتمنى كل حسناء ان تكون زوجته فستكونين معـــه غنية محبوبة محترمة وتموت أمك سعيدة لأنها تراك سعيدة .

فاجابتها بيانكا قائلة : كلا يا أماه اني لا اتزوج هذا الرجل ولا سواه .
فأجابتها أمها كأنها لم تسمعها :
ـ بل يجب ان تحبينه فهو الذي انقذك وأرجعك الي .
ـ معاذ الله ان أحبه بل أكرهه .
ـ تكرهينه ؟
ـ نعم .
ـ لماذا هذا الكره وبماذا اساء اليك ؟
فاصفر وجه بيانكا وقالت :

الي .. انه لم يسيء الي بشيء .. ولكني اسألك بدوري يا أمـاه ان لا تسأليني شيئاً .
ـ أتريدين أن أقول لك الحقيقة يا ابنتي اذن فاعلمي انـــك تكرهين ساندريجو لانك تحبين سواه .
ـ نعم فانك تحبين ابنها الشقية رولاند كانديانو .
فأجابتها بانذهال صادق قائلة :
ـ رولاند كانديانو . اني لا أعرف هذا الرجل .

ـ بل انك تعرفينه فهو الذي اختطفك من هنا وهو الذي أوهمنـا في البدء انه طبيب وهو الذي ذهب بك الى قرية مستر وأقسم على ان يشقيني ويقتلني . نعم انك تحبين الرجل الذي اكرهه وهو رولاند كانديانو .

فتنهدت بيانكا تنهداً عنيفاً وقد سمعت أمها تذكر لها انها تحب هـذا الرجل وعرفت انه يدعى رولاند كانديانو فاضطربت اضطرابـاً عظيماً ولم تستطع احتمال هذا التأثير فسقطت مغمياً عليها .

ولم يطل اغماؤها فلما استفاقت وجدت أمهـا جاثية بقربها فقالت لها فجأة :
ـ بماذا كنا نتحدث يا أماه أليس بحديث الحفلة ؟

قالت : نعم وبغير هذا الحديث ايضاً .

قالت : لا تذكري لي بالله غير حديث الحفلة .

— ولكنك أبيت ان تحضريها.

— أنا قلت ذلك..اذن لقد كنت مخطئة فاني أحب ان احضرها وأحب أن أرى .

فاضطربت امباريا وقالت في نفسها : ترى ما الذي يحملها الآن على حضور الحفلة ومن الذي تحب ان تراه ألعلهـا ترجو أن ترى رولاند ثم قالت لها :

— أحق ما تقولين :

قالت : نعم فاذهبي ودعيني ألبس وحدي فاني أحب أن اكون جميلة كما تقولين .

فذهبت امباريا وهي معجبة لهذا الانقلاب وبيانكا وحدهـا فجعلت تضع في صرة بعض اشياء كانت تحبها وهي ساكنة هادئة غير أنها كانت معجبة بنفسها لهذا العزم الفجائي الذي اوحي اليها .

وبعد ان تمت معداتها اخذت الصرة بيدها وفتحت باب غرفتها فخرجت منه الى ساحة ومن تلك الساحة الى رواق ضيق انتهت منه الى سلم فنزلت عليه حتى انتهت الى باب من ابواب القصر كانت تخرج منـه للنزهة كل ليلة مع أمها .

وقد فتحت ذلك الباب وخرجت مسرعة وهي لا تفتكر الا بالابتعاد عن امها .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة ، أي ان الظلام كان قـد خيم على فينيسيا ، ولكن القوارب كانت مصابيحها مضيئة وبعد ان ابتعـدت نحو خمسمائة خطوة من القصر وقفت وقالت في نفسها :

— رباه الى اين اذهب وماذا اعمل وما يكون مصيري ؟

وقد اضطربت في امرها اذ لم يكون لهـا اصدقاء ولا ام ولا بيت ولا مال غير بضعة دريهمات كانت في جيبها وما كان عليها من الحلى .

ولكنها كانت تؤثر عذاب البرد والجوع والفقر بل كانت تؤثر الف موت على ان تعود الى امها بعد ان علمت من فمها انها محظية وانها تريـد ان تبهرجها وتزينها لتبيعها في سبيل اغراضها .

وعند ذلك خطر لها خاطر فجائي انار ظلمات يأسها فنادت بحـاراً وقالت له :

— هل تريد ان تجتاز البحيرات ؟

قال : حباً وكرامة يا سيدتي .

فنزلت الى القارب وسار بها يخترق العباب فقال لهـا البحار : في اي شاطىء تريد سيدتي ان تنزل ؟

قالت : في الشاطىء المؤدي الى طريق مستتر .

– ٤٩ –

رجل الغابات

عندما نزلت بيانكا من القارب الى الشاطىء كانت الساعة قـد بلغت الحادية عشرة .

فوقفت وحدها في ذلك المكان المظلم المقفر الى ان توارت السفينة عن انظارها .

ولبثت على ما كانت عليه من الشجاعة والصبر حتى اذا مشت قليـلاً ورأت انها لا ترى غير الظلمات ولم تعد تسمع انين الميـاه ولم تعد ترى غير تلك الظلمات التي كان الهواء البارد يطارد غيومها المتبعثرة شعرت ان تلك الشجاعة قد فارقتها وان الرعب قد بدأ يتولاها .

وكان البحار قد دلها على طريق مستتر وهي قريبة منها فجعلت تشجع نفسها وتوسع الخطى .

وكانت الأشجار الباسقة مغروسة على جانب الطريق فكان الهواء يحرك اغصانها فتخرج اصواتاً يتمثل للفتاة انها تقول لها :

— الى اين تذهبين ايتها الصغيرة الحسناء .. ليس اب ولا ام ولا اخ ولا زوج أهكذا تسيرين وحدك في هذا الظلام المخيف ؟

فكانت ببانكا تجيب هذه الاصوات فتقول في نفسها :

— هناك في ذلك البيت الصغير في مستتر اجد الأم والأخت.. اجد جوانا اجد ذلك الشيخ الجليل .. وربما وجدته هو .. نعم ان نظرة منه تنسيني الامي وكلمة من فمه ترد الي الرجاء المفقود .

وما زالت تشجع نفسها بهذه الاقوال وتسير حتى وجدت نفسها في غابة متوسط الطريق .

فوقفت مذعورة فان الغابة كانت كثيفة فتمثلت لها اشجارها رجالا من العمالقة سود الملابس سود الوجوه وخيل اليهـــا ان حفيف تلك الاشجار كلمات يهمس بها اولئك العمالقة بعضهم في اذان بعض .

وكيف لا ترعب تلك المنكودة ولو سار الرجل الشجاع في مثل الغابة في ظلام الليل لما تمكن ان يصون نفسه من الرعب .

وفيما هي على ذلك مر بها ايل وهو يركض ويصوت ولو علمت انه ايل لاطمأنت ولكنها لم تكن قد سمعت من قبل ذلك الصوت ولم تستطيع ان ترى ذلك الحيوان لشدة الظلام فـذعرت ذعراً لا يوصف وجعلت تركض وهي لا تعي إذ لم يخطر لها في ذلك الحين غير خاطر وهو ان رجل الغابات يطاردها .

وذلك ان الخرافات كانت كثيرة في ذلك العهد ومنها خرافة كانت كثيرة

الشيوع وهي انه يوجد في كل غـــابة رجل وحشي الأخلاق له وجه إنسان وجسم نمر فلا يظهر فيها إلا بالليل ويمزق من يعثر به بأظافره ويفترسه .

وكانت بيانكا تعرف هذه الخرافة فلما شعرت ان الأيـــل قد مرّ بها أيقنت انه رجل الغابة فطارت نفسها من الذعر وجعلت تركض كما قدمناه .

مع ان بيانكا كانت متعلمة خير تعليم وقد ثقف العلم عقلها ولكن ذلك العصر كان عصر خرافات حتى ان العلماء انفسهم كانوا يعتقدون بها .

وقد لبثت تركض منذعرة فتقع وتنهض وتسقط وتقوم ومـا زالت على ذلك حتى اشرق الفجر .

وقد التفتت الى ورائها إذ خيّل لها انها سمعت وقع خطوات فرأت انه ليس الوهم الذي كان يدفعها الى الاعتقاد بأن رجل الغابات يطاردها بل رأت حقيقة ان رجلاً يطاردها .

وعند ذلـك جعلت تركض قانطة وهي واثقـة انه لم يبق لهـــا رجاء بالإفلات من رجل الغابات .

ولكن الرعب قد هدّ حيلها لا سيما وقد رأت بعينها ما كانت تراه بعين الخيال فصاحت صيحة منكرة وسقطت جاثية على ركبتها وشعرت بأنفاس ذلك الرجل الذي يطاردها تهب على رأسها .

ولكنها لو التفتت ورأت ذلك الرجل لكان ذعرها منه أشد من ذعرها من رجل الغابات .

* * *

٥٠

تابع رجل الغابات

في الساعة العاشرة من تلك الليلة كان المدعوون قد بدأوا بالوفود الى قصر امباريا وقد جـاء ساندريجو وبمبو وغيرهم وجميع من في فينيسيا من المحظيات واخذ رولاند كانديانو يتأهب للحضور كما تقدم .

وكانت امباريا اعلنت لزائريها ان الحفـلة لا يكون فيها رقص لأنها ستكون قاصرة على تعريف اهل فينيسيا ببنتها وبصهرها القائد ساندريجو .

ولكن الموسيقى كانت تصدح في القـاعة الكبرى وقـد غصت القاعات بالمدعوين ومع ذلك فان امباريا لم تظهر واليك تفصيل ما حدث .

انها بعد ان تركت بنتها دخلت الى غرفتها وهي لا تعي لفرط اضطرابها فانها باتت تغار من بنتها غيرتين احداهما لأنها ستكون زوجة ساندريجو كأنها نسيت اتفاقها مع بمبو وان هذا الزواج سيكون بالظاهر فقط .

والثانية لأنها ظهر لها ان بنتها تحب رولاند وهي لا تزال تحبه ايضاً ذلك الحب الاول الذي لا يزول تأثيره من القلب مهما طرأ على هـذا القلب من الاغراض .

وإنما عادت الى غرفتها كي تتأنق بلباسها وتكشف بنتها بالجمال الاصطناعي إذ كانت دونها بالجمال الطبيعي .

وبعد ان اقامت ساعتين امام مرآتها تحيط بها نساؤها ذهبت الى بنتها ودخلت الى الغرفة التي كانت فيهـا فوجدت ان الثوب الابيض لا يزال على المقعد وصندوق الجوهرات لا يزال في موضعه فقالت في نفسها :

ـ انها لم تلبس فهي لا تريد ان تحضر الحفلة .

وعند ذلك دخلت الى غرفتها الخاصة فلم تجدها فنادت خادمتها وسألتهن عنها فبحثن عنها في جميع الغرف فلم يجدنها .

فأيقنت انها هربت وأمرت خادماتها ان يكتمن هذا الأمر وقد اقفلت عليهن الابواب مبالغة في الحرص على الكتمان وعادت الى غرفتها وهي متأثرة لفراق بنتها ولكن غير تأثرها في المدة الأولى فانها حين اختطفوا بنتها اول مرة كانت أماً مجردة أما الآن فان حبها غير مجرد .

وقد أقامت مدة طويلة في غرفتها ثم خرجت الى قاعة الاحتفال فاستقبلها ساندريجو وسار بهـــا الى كرسي كبير يشبه العرش في تلك القاعة وجلس بجانبها يحدثها فجعلت تنادمه وقد نسيت بنتها .

وفيما هما على ذلـك مرّ بهما رجل مبرقع عرفته امباريا بالرغم عن برقعه الكثيف فأخذ بيدها وقامت معه بعد ان استأذنت من ساندريجو فجعلا يسيران في القاعات وهما يتحدثان بصوت منخفض .

وقد سألها الرجل قائلاً :

ـ أين بيانـكا ؟

فقالت له : انها لا تحضر .

فتنهد الرجل كأنه قد نزل عن عاتقه حملاً ثقيلاً وقال :

ـ انك لا تنسين ما اتفقنا عليه وهو ان بيانـكا تكون لي بعد الزواج .

قالت : ان الزواج لا يعقد بعد غد ولن يعقد .

فارتعش الرجل وقال : ماذا تعنين ؟

قالت : اصغ إليّ يا بيبو فسأطلعك على أمر أحب ان يكون مكتوماً عن الجميع حتى عن ذلك الرجل الذي يكاد يفترسنا بعينيه لشدة شوقـه الى معرفة ما نتحدث به .

فنظر بيبو من خلال برقعه الى ساندريجو فرأى عينيه تتقدان وراه نهض وهو يحاول ان يأتي اليهما فقال لها :

ــ اسرعي بما تريدين ان تقوليه فانه قادم الينا .

قالت : ان بيانكا قد اختطفت منذ ساعتين واظن انها ذهبت الى رولاند في مستتر فتصرف الآن بما يوحيه اليه دهاؤك .

فوضع بيبو يده على جبينه وقد شعر ان دماءه تلتهب في رأسه ولكنه ثاب الى رشده لفوره فانحنى أمام امباريا وافترق عنها .

وعند ذلك دنا ساندريجو من امباريا وقال لها :

ــ ماذا يريد هذا النذير السوء وهو من هو ؟

قالت : انه صديقي وسيكون من اصدقائك فانه من ظرفاء فينيسيا .

فاطمأن باله وسألها قائلاً : أين بيانكا فاني لم أرها بعد ؟

ــ انها ستحضر قريباً .

* * *

أمـــا بيبو فانه حين ترك امباريا ذهب تواً الى حيث تقيم بيانكا ففتح غرفتها ورأى الثوب الأبيض لا يزال على حاله والجوهرات لا تزال في موضعها فارتعش سروراً وقال في نفسه : انها لم تكذب في ما قالته لي .

وعند ذلك اسرع الى الخروج من القصر فركب قارباً وأمر البحار ، ان يسرع به الى اجتياز البحيرات وان ينزله في طريق مستتر .

فلما توسط البحيرات رأى قارباً عائداً الى فينيسيا فقال للبحار : يمكن محادثة من في هذا القارب ؟

قال : ذلك سهل يا سيدي .

قال : إذن أدن منه حتى تلاصقه .

ففعل وسأل بيبو بحار ذلك القارب قائلاً :

— من أين انت آت ؟

قال : من الشاطىء المؤدي الى طريق مستر .

— انك ذهبت بفتاة صبية اليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي .

— حسناً فواصل سيرك ولكن احذر ان تكون كاذباً وقل لي نمرة قاربك .

قال : ان نمرته عشرة وما قلت لك غير الحقيقة .

قال : إذن امض في سبيلك وأمر بحاره ان يسرع جهد الإمكان .

وبعد هنيهة بلغ به الشاطىء فأمره ان ينتظره وسار حتى بلغ الغابة.

ولم يكن يعلم أين تقيم في مستر ولكنه يرجو ان يظفر بها في الطريق قبل دخولها لأن طريق مستر واحدة فجعل يوسع الخطى ثم جعل يركض الى ان سمع وقع خطوات أمامه فجأة فوقف مرتعشاً فانه رأى بيافكا على قيد عشرين خطوة منه .

وكان اضطرابه شديداً حتى انه لبث واقفاً في مكانه وهو يحسب انه يركض كما يصيب الراكض في الحلم .

ولم يثب الى رشده إلا حين رأى الفتاة قد أخذت تركض حتى كادت تتوارى عن انظاره فزال اضطرابه واندفع في أثرها كالسهم حتى أدركها وقد سقطت جاثية على ركبتها فابتسم ابتسام الظافر وقال :

— انها باقت لي هذه المرة دون منازع .

٥١

سفينة الحب والموت

بعد انتصاف الليل بقليل تفقد رولاند رجاله حول قصر امباريا ليرى اذا كان كل في موقفه فانه كان قد أعد المعدات لاختطاف بيانكا بحيث بات الفوز مضموناً لديه .

وبعد ذلك دخل الى القصر ونظر نظرة عامة في تلك القاعـة المتسعة فرأى امباريا تبتسم لساندريجو ابتساماً ساحراً وأيقن انها تهوى هذا اللص .

فجعل رولاند ينتقل من موقف إلى موقف باحثاً عن بيانكا فلم يجدهـا حتى انه قلق عليها وأيقن أنها غير موجودة في هذه الحفلة الذي أعدت لها فعاد الى القاعة التي كانت فيها امباريا جالسة في صدرها جلوس الملكات فلم يجدها ولم يجد ساندريجو فبحث عنها فلقيها واقفين عند نافذة تطـل على الترعة فاحتال حتى تمكن من الوقوف بقرب هذه النافذة وراء ستارة بحيث كان يسمع حديثها ولا يريانه فسمع ساندريجو يقول :

ـ إذن هي تأبى حضور الحفلة ؟

قالت : لقد توسلت اليها مراراً كما قلت لك ولكن لنـدع البحث في شأنها الليلة وغداً نفتكر ببيانكا أمـا الليلة فأرجو ان تكون بجملتك لي أتريد ؟

ـ لكن ماذا تريدين ؟

ـ قل عني مجنونة اذا شئت ايهـا الحبيب فان هذه الحفلة تضجرني ولا افتكر بالساعة التي سنختلي بها حتى اتنهد .

ـ ان الليل يتقدم .

ـ نعم ولكن أتعلم ما خطر لي ان افعل حين ينصرف المدعوون وتنتهي الحفلة .

ـ ماذا خطر لك ؟

ـ اتعدني بتحقيق هذه الأمنية ؟

ـ دون شك .

فلم تكترث امباريا للناس الذين يرونها فطوقت ذراع ساندريجو بذراعها واسندت رأسها الى كتفه فقالت :

ـ اني أعددت سفينتي الجميلة الخاصة بالحفلات الانيقة وأمرت ان يضعوا فيها الخيمة الداخلية وفرشوا فيها البسط الحريرية والوسادات المحلية بحيث باتت شبه عش للعاشقين .

والذي أريده هو أن ندرج الى هذا العش بعد تفرق الناس وتتم لذة الحياة على تماوج السفينة اللطيف .

فلم يشأ رولاند ان يسمع اكثر مما سمع وانصرف وهو يقول في نفسه :

ـ أن بيانكا مقيمة في غرفتها دون شك ولا بد من اخبارها بأننا سنختطفها كي لا تضطرب وقد بات اختطافها سهلاً ما زالت هذه الأم الشقية مشغولة عنها بغرامها الفاسد .

وبعد ربع ساعة ثبت له ان بيانكا غير موجودة في القصر فعاد الى القاعات وكانت امباريا تحدث الناس ضاحكة باشة امنة طوارق الايام وارتين واقف بين عصابة من الفتيان يجادلهم في الشعر ويوازن بين الشعراء فدنا منه رولاند فلمس كتفه فأشار اليه ان يتبعه .

فامتعض الشاعر وتبعه مكرها وهو لا يعرفه حتى اذا خلا به وعرفه ارتعش خوفاً عليه لوجوده في هذا القصر وقال له ؟ بماذا تأمر يا مولاي ؟

قال : أريد ان تذهب الى امباريا فتقول لها ان لديك نبأ سرياً خطيراً تريد أخبارها به .

ـ ما هذا النبأ ؟

ـ لا تقلق له واتبع هذه المرأة الى حيث تذهب بك وعلي البقية .

فذهب ارتين ممتثلا وراء رولاند يحدث امباريا ثم رأى الاثنين يسيران فاقتفى اثرهما .

وقد اجتازت القاعات حتى بلغت الى غرفة مقفرة ودخلت اليها .

فحاول ارتين ان يتبعها ولكن رولاند سبقه الى هذا الباب فدخل مكانه واقفل الباب .

أما امباريا فانها جلست على مقعد وقالت : واني مصغيـــة اليك فاننا وحدنا الآن .

وقد نظرت عنـــد ذلك الى الرجل الذي تحدثه فعلمت انه غير ارتين ووثبت من مكانها الى الباب .

غير ان رولاند حال بينها وبينه وقال لها : بملء السكينة .

ـ اعلمي يا سيدتي انك اذا خطوت خطوة أو صحت صيحة جازيتك عن جرائمك بموت سريع تستحقينه من عهد بعيد .

فارتعشت رعباً لهذا الصوت وقالت لمحدثها : من أنت ؟

فرفع رولاند البرقع عن وجهه فتراجعت امباريا منذعرة وسقطت على المقعد الذي كانت عليه وقد وهت قواها من الرعب .

أما رولاند فانه جلس بجانبها وقال لها :

ـ اطمئني وأعلمي يقيناً انك إذا أصغيت الي بسكينة لا أمسك بسوء .

قالت : ماذا تريد ؟

قال : انك اعددت في قصرك حفلة باهرة اهنئك بانتظامها ولكني أما أن اكون مخطئاً أو تكون هذه الحفلة عدت لغرض من الأغراض .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ لقد اكدوا لي وأنا واثق مما يقولون انك أردت في هذه الحفلة ان تقدمي بنتك لأهل فينيسيا اليس كذلك ؟

فاضطربت وقالت : هذا أكيد .

قال : ولقد قيل لي انك لا تريدين الاقتصار على تقديم بنتك بل انك تريدين عقد خطبتها على القائد ساندريجو اليس كذلك ؟

ـ هذا أكيد ايضاً .

ـ اذن فاعلمي اني بحثت في جميع قاعاتك فوجدت الخطيب ولكني لم أجد الخطيبة فخطر لي ان اسألك عن السبب في تخلف بنتك عن هذه الحفلة التي اعدت لها .

فارتعدت امباريا إذ علمت أو خيل لها انها علمت ما يدفع رولاند الى سؤالها عن هذا الشأن لاعتقادها انه يحب بيانكا وانها تحبه وأنه لم يخاطر بحياته ويأتي الى هذه الحفلة الا وقد دفعه يأس الغرام فهاج تأثرها وايقنت ان اضطرابها لم يكن الا اضطراب غيرة لأنها شعرت بانها لا تزال تحب رولاند فقالت له بصوت يتهدج :

ـ أريد ان أعلم باي حق تسألني هذه الأسئلة ؟

فابتسم رولاند وقال :

ـ لقد التقينا قبل هذه المرة ودار بيننا حديث يشبه هذا الحديث يومئذ فبات يحق لي ان أراقب اعمالك وأن اسألك عما أريده

وقد قال لها هذا القول بلهجة تبين فيها الوعيد فخافت أمباريا وقالت له :

ـ اني أجيبك على سؤالك فأقول ان بيانكا لم تحضر هذه الحفلة لانها ابت ان تحضرها .

ـ بل انك كاذبة .

فاطرقت برأسها لهذه الاهانـة دون ان تجيب وهي لو خرجت من فم سواه لمزقت عنقه باظافرها .

ولكنها رأت ان رولاند يستطيع ان يهينها دون ان تستطيع مجاوبته فهل نشأ ذلك عن خوفها منه لأنه عارف باثامها كلا بل انها شعرت بسرور لهذه الاهانة كما يفرح بعض النساء حين يضربهن عشاقهن .

ولذلك اجابت رولاند بلهجة ادهشته فقالت :

— ارحمني فاني اذا قلت لك ان بيانكا أبت حضور الحفلة فما ذلك الا لأني لا استطيع ان اقول غير ما قلت .

قال : ولكن يجب ان تقولي فاني اريد ان أعلم ما جرى لبيانكا .

— إذن انت تحبها ؟

وعند ذلك تفجرت الغيرة في صدرها حتى انها لو ظهرت لهـا بنتها في تلك الساعة لقتلتها .

فلما سمع رولاند قولهـا لبث ساكناً منذهلاً فاعتبرت امباريا سكوته اعترافاً بذلك الحب فهاجت هياج اللبوة ووقفت وقالت بصوت مختنق:

— انك إذاً تحبها .. حسناً فستضحك قليلاً لتعذبني بما يخطر الك من انواع العذاب الذي عذبتني به قبل.. انك اهنتني واحتقرت كبريائي فاني تعودت ان أفوز على جميع القلوب بنظرة ما عدا قلبك . نعم انك لم تشفق علي ولم ترحمني حين طرحت قلبي عند قدميك بل انك سحقت هذا القلب وجئتني الآن تقول انك تحب ولكنك لا تحبني ولا تحب ليونور بل تحب بيانكا .. إذن فاعلم قبل كل شيء امراً لم تكن تعلمه من قبـل وهو ان بيانكا لا تحبك فقط بل تعبدك عبادة .

فارتعش رولاند وكانت تبتدره الحدة ولكنه كظم غيظه إذ كان يريد ان يعلم كل شيء .

ونظرت امباريا الى وجهه فرأته قد اصفر وبدت عليه علائم الانفـة والاشمئزاز فقالت :

نعم انك تأنف ان تسمع مثل هـذه الأقوال ولا تحترم قول غرام يخرج من محظية فيخدش سمعك يا حضرة النبيل .

إذن فاعلم ان بيانكا تحبك وليس هذا كل شيء ايهـا العزيز .. وهنا ضحكت ضحكة المنتقم .

انك تحب بيانكا ولكن يوجد رجل آخر يحبها وهو من أخلص اصدقائك إذ انه بمبو الذي اختطفتها منه مرة .. اما وقد عرفت ذلك الآن فتعذب كما عذبتني .. أتعلم أين هي بيانكا .. اين هي تلك الفتاة النقية الطاهرة التي لا عيب فيها إلا انها ابنة المحظية .. انهـا الآن بين ذراعي بمبو وأنا التي ألقيتها بين ذراعيه فابحث عنها واظفر بها اذا استطعت .

وعند ذلك سكتت وهي عرضة لنوبة عصبية كانت تهز اعضاءها .

فغضب رولاند غضباً عصبياً وجرّد خنجره وهو يقول في نفسه :

— لقد دنت ساعة هذه المرأة فلتمت .

ولكنه ما لبث ان اغمد خنجره وقال في نفسه :

— كلا لست أنا الذي يجب ان يعاقبها على هذه الجريمة .

وقد نظر الى امباريا نظرة صعقتها ثم خرج وهو يقول :

— مسكينة بيانكا اني أتيت لنجدتها بعد فوات الأوان .

ثم خرج من القصر واسرع الى أحد زعماء عصاباته فقال له :

— سر بعشرين رجلاً الى قصر الكاردينال وادخل اليه بالرضى او بالعنف فاذا وجدت بمبو فيه فجئني به الى بيت الجزيرة ميتاً او حياً .

فأسرع الزعيم ممتثلا وتوارى عن الأنظار .

وقد وقف رولاند حزيناً منقبضاً يفكر في هذه الفتاة المنكودة ويقول في نفسه :

— اني ما ابقيت على أمها إلا لأنها تحبها أمـا وهي التي دفعتهـا الى بمبو فلتمت فانها لا تستحق الحياة .

وعند ذلك وضع برقعه على وجهه وارتدى بردائه بحيث لم يعد يعرف وسار الى حيث كان سكالابرينو .

فلما رآه سكالابرينو قال له : ماذا حدث أيها الرئيس ؟

قال : اتبعني .

وقد أخذ يسير على شاطىء الترعة وهو يفحص القوارب الراسية فيها وسكالابرينو يتبعه دون ان يجسر على سؤاله الى ان وقف أمام سفينة جميلة عظيمة الاتقان فقال له : أترى هذه السفينة ؟

قال : نعم .. ولكن بيانكا ؟

قال : صبراً واعلم ان هذه السفينة للمحظية امباريا أسمعت ؟

— نعم سمعت ولكن قلبي يحدثني بمصاب .

— لقد قلت لك صبراً فاصغ الى كل ما اقوله .

— اني مصغ .

— إذن فاعلم ان المدعوين سيخرجون قريبـــاً من قصر امباريا وتسود السكينة في ذلك القصر ولكنك تبقى في موقفك فلا تفارقه .

— هنا ؟

— هنا او في غير هذا المكان كما يوحي اليـــك فعندما ترى الجميع قد انصرفوا ترى امباريا آتية الى هذه السفينة مع ساندريجو أفهمت ؟

— نعم ولكن فاعلم إذن ان امباريا وساندريجو سيذهبان للتنزه في هذه السفينة ولا اقول لك شيئاً بشأن هذا الرجل وهذه المرأة فـان البقية عليك أما الآن فافترض انه حدثت نكبة وان ابنتك لا نستطيع ان نردها اليك هذه الليلة .

— إنني أؤثر يا مولاي ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة فان بيانكا ماتت اليس كذلك ؟

— كلا انها لم تمت كما ارجوه .. ولكن اسمع ..

وعند ذلك أخذ يده بين يديه وجعل يحدثه بصوت منخفض فيسليه ويعزيه حتى إذا أتم حديثه وقف سكالابرينو على جلية الأمر لم يبك ولم يتنهد بل قال :

— حسناً يا مولاي .

فابتعد رولاند عنه وذهب فاختبأ وراء شجرة وجعل يراقب فرآه قد اقترب من السفينة التي دله عليها وجعل يحادث البحار الذي كان فيها فقال في نفسه :

— لقد فهم قصدي وقد قضي على امباريا القضاء المبرم .

وعند ذلك انصرف وذهب الى جهة قصر الكاردينال دون ان يرى ودون ان يرى سكالابرينو ايضاً امرأة واقفة على الرصيف تنظر اليهما .

أما هذه المرأة فقد كانت جوانا .

* * *

وأما سكالابرينو فانه دنا من سفينة امباريا .

وكان من عادة امباريا ان تميّن لسفينتها بحاراً من النوبيين السود غير انها حين كانت تحاول ان تتوغل في البحيرات تختار رجلاً من الأشداء الاقوياء كي يحميها عند الاقتضاء من القرصان .

وكان هذا الرجل جالساً في مؤخر السفينة ينتظر والنماس قد دب في جفنيه .

فناداه سكالابرينو وقال له: لي كلمة اقولها لك من قبل السيدة امباريا.

فأسرع الرجل اليه وقال له : ماذا تريد ؟

قال : لا أعلم ولكن إحدى نساء السيدة امباريا تنتظرك عند باب القصر .

قال : ماذا تريد مني ؟

قال : خير طريقة لمعرفة ذلك ان تذهب اليها .

قال : لقد اصبت وسار في طريق القصر وسكالابرينو يصحبه .

وكان الظلام شديد الحلك فلم يسر البحار بضع خطوات حتى انقض عليه سكالابرينو فألقاه الى الأرض وصفر صفيراً خاصاً فأسرع اليه نحو عشرة رجال فقال لزعيمهم :

— خذوا هـــذا الرجل ولا تسيئوا اليه ولكن لا تطلقوا سراحه قبل صباح غد .

فقبضوا عليه ووضعوا الكمامة في فمه وانصرفوا آمنين .

وعند ذلك ذهب الى السفينة بعد ان أخذ رداء البحار ومشمله وجلس في مؤخر سفينة امباريا مكانه ووضع رأسه بين يديه فكان يظهر انه نائم والحقيقة انه كان يفتكر بأمور هائلة .

* * *

عندما ثابت امباريا الى رشدها رأت ان رولاند قـد انصرف فقالت في نفسها :

— انه ذهب للتفتيش عن بيانكا ومحاولة الوصول اليها قبل بمبو ولكنه سيضل سعياً فانه لا يعرف الطريق التي سارت بها خلافاً للكاردينال فانه يعرفها .

وقد فرحت فرحاً وحشياً حين خطر لها ان ابنتها ستقع في قبضة بمبو وان رولاند يطوف باحثاً عنها في فينيسيا واليأس ملء قلبه .

وعند ذلك قامت الى مرآتها فأصلحت وجهها وعادت الى قاعاتها فخطر لها ان رولاند قد يكون باقياً في القصر وانها تستطيع القبض عليه .

ولكنها رأت ان ذلك محال إذ لا يمكن ان يبقى في قصرها بعد ان اظهر لها نفسه فجعلت تسائل نفسها قائلة :

– ترى لماذا لم يبطش بي بعد ان جرحته هذا الجرح الهائل ؟

ألعله أشفق عليّ أم يريد ان ينتقم مني انتقاماً أشد من القتل .

وعادت الى الاختلاط بالناس الى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل حيث تفرقوا فتوكأت على ذراع ساندريجو وخرجت به الى السفينة فصعدت اليها ولم ينتبها الى سكالابرينو إذ حسباه البحار فانه كان لابساً رداءه وهو في مؤخر السفينة فقالت : سر بنا في عرض البحيرات الى حيث تشاء .

فسار سكالابرينو بتلك السفينة يمخر العباب وجلس العاشقان تحت تلك الخيمة وقد أرخيت ستائرها الحريرية وتبرقع القمر بالغيوم كأنه خشي ان يرى ما كان يتوقع ان يراه من المناظر الهائلة .

وفي الوقت نفسه كان قارب حقير يتبع تلك السفينة الفخيمة الى حيث سارت دون ان ينتبه اليه احد .

* * *

ولبث العاشقان يتنزهان نحو ساعة في البحر وقد شغلا بما هما فيه عن مراقبة سكالابرينو الذي كان قد توغل بهما حتى لم يعودا يريان المدينة .

وعند ذلك قال لها : لنعد الى البر .

قالت : بل لنقم هنيهة أيها الحبيب .

قال : ولكننا قد تأخرنا .

قالت : ألم يسكرك الحب كما اسكرني وما علينا إذا تأخرنا بل ما علينا إذا بقينا كذلك الى الأبد ؟

– ذلك لأني . .

– ماذا ؟ قل كل ما خطر لك .

– ذلك لأني أريد ان أرى بيانكا .

فارتعشت امباريا فجأة لقوله الذي نبّه فيها عواطف الأمومة ولكنها كانت مضطربة اضطراباً عظيماً لفرار بنتها ولطاردة بيو لها ولظهور رولاند ولتلك الساعة التي قضتها مع ساندريجو وقد هاجت هـذه العواطف المختلفة ثائرها حتى كادت تجن فضحكت ضحكاً عصبياً وقالت :

— بيانكا ؟

فقلق ساندريجو وقال : نعم بيانكا .

فخطر لها عند ذلك ان تبوح له بكل شيء وان تستبقيه لها فقالت :

— أتريد حقيقة ان ترى بيانكا ؟

— نعم ألا يحق لي أن أراها ؟

— ولكنها تكون نائمة في القاعة .

— لا بأس فهي تغفر لخطيبها هذا الخطأ ولا سيا حين تعلم ان قلقي عليها شديد فاني اريد ان اعلم لماذا لم تحضر الحفلة .

فضحكت ضحك الجانين وقالت :

— أتريد ان تعرف الاسباب .. حسناً فأنا اقولها لك .. انهـا لم تحضر لأنها تكرهك ولأنها تنذعر من مرآك فلِمَ تفتكر بها وهي تكرهك في حين أنت معي وأنا أعبدك ؟

— اني اريد ان تكون لي بجملتك ولا أريد ان تقطع الغيرة قلبي .

وعند ذلك طوقت عنقه بذراعيها العاريين ولكنه دفعها عنه وهو يقول :

— اني اريد ان أرى بيانكا .

فاتقدت عيناها بشرار الغضب وعضت الغيرة قلبهـا فهاجت انتقامها وأثارت جنونها فضحكت ضحك المنتقم وقالت :

— إذا كنت تريد ان تراها فاسرع في أثرها .

فقبض ساندريجو على يدها وقال لها :

— ماذا تعنين ؟

قالت : اعني انها ليست في فيفيسيا وانها هربت منك وان بمبو يطاردها ولا بد ان تكون في حوزته الآن .

فزأر ساندريجو زئير الأسود الضواري وصدمها صدمة عنيفة القتها على الارض .

فابتسمت وقالت له : اقتلني .

قال : أين هي ايتها الشقية ؟ تكلمي .

وقد قبض بيده على عنقها وحاول خنقها فقالت له :

ـ لا أعلم .

قال : وبمبو ؟

ـ في طريق مستتر .

ـ في طريق مستتر .. لقد فهمت كل شيء .

وعند ذلك نهض عنها وأسرع الى باب الخيمة فنادى البحار قائلاً :

ـ ويحك أسرع بنا الى البحر .

وقد فتح ستائر الخيمة فمزقها ولم يكد يرى البحار واقعاً في وجهه على نور القمر حتى صاح صيحة هائلة وقال :

ـ ماذا أرى ؟

أهذا سكالابرينو أم خياله ؟

فقال له سكالابرينو : بل هو بعينه ايها الفاجر الغادر ثم طعنه بخنجره طعنة هائلة فاخترق الخنجر صدره وتركه مغمداً به فهوى على ظهره قتيلاً وباتت قبضة خنجره في صدره تشبه شكل الصليب .

وقد رأت امباريا هذا المنظر الهائل والذعر ملء قلبها فلم يغمى عليها ولم تستطع ان تصيح صيحة اذا كان مثلها مثل من يصاب في حلمه بالكابوس .

وعند ذلك رأت سكالابرينو يدنو منها فحلت عقدة لسانها وقالت :

ـ رباه من هذا .. أوالد بيانكا ؟

قال : نعم أنا هو أيتها الأفعى .

ولم يقل بعد ذلك كلمة بل انه قبض على شعرها فجرها به الى طرف السفينة .

وهناك حملها بيديه القويتين ودفع بها الى البحر فهوت الى الاعماق .

وقد هوت السفينة لهذه الحركة العنيفة التي فعلها سكالابرينو وانقلبت .

وخرج صوت على قيد بضعة أمتار يمزق حجاب السكون .

غير ان سكالابرينو لم يسمع ذلك الصوت فجعل يسبح حتى بلغ الشاطيء وتوارى عن الانظار .

٥٢

قبلة جوانا الأولى

ان ذلك الصوت الذي مزق حجاب الفضاء خرج من قارب صغير كان يقفو أثر سفينة امباريا .

وذلك ان جوانا كانت واقفة في ذلك القارب وقد رأت كل تلك الحادثة الهائلة التي لم تستمر اكثر من دقيقة دون ان تستطيع إنقاذ ساندريجو فصاحت تلك الصيحة التي لم يسمعها سكالابرينو لفرط اضطرابه .

وكانت قد أتت وهي نفسها لا تعلم ما تعمل ولكنها كانت موقنة من انه ستحدث فاجعة تقضي على رجائها القضاء المبرم فانها جاءت الى فينيسيا وليس لها غير قصد واحد وهو انقاذ ساندريجو ومنعه من الاعتداء على رولاند .

وقد عرف القراء كيف انها عرفت من ساندريجو نفسه انه يحب بيانكا فهربت الى قصر امباريا ليلة الحفلة وعولت على ان تدخل اليه بالسر فتقابل بيانكا .

ولكنها لم تلبث ان رأت سكالابرينو واقفاً عند باب القصر وقفة حملتها على الريبة فاضطربت خطتها لوثوقها ان سكالابرينو انما كان كامناً لساندريجو كي يقتله .

وقد وقفت عند ذلك لا تفارق سكالابرينو لحظة وهي تتعذب عذاباً شديداً لغيرتها من بيانكا وخوفها على ساندريجو .

ثم رأت ان سكالابرينو أبعد البحار وأقام مكانه في السفينة فقالت في نفسها :

ــ لم يبق شك ان امباريا ستتنزه في هذه السفينة مع بيانكا وساندريجو ولذلك أسرعت إلى قارب صغير فأقامت فيه تنتظر كما كان ينتظر سكالابرينو .

إلى ان انتهت الحفلة ورأت ساندريجو قادماً الى السفينة وامباريا تتوكأ عليه بدلال فاشتد خفقان قلبها وقالت :

ــ ويح له انه يحب الأم ويحب البنت ويحب كل حسناء تبدو له الا أنا وما ذلك إلا لأني صادقة في حبه .

وجعلت السفينة تسير ببطء وجوانا في اثرها وهي تكاد تجن لاضطرابها فانها كانت تارة تهم أن تنادي ساندريجو وتحذره وتارة تعقد الغيرة لسانها فتئن انين الموجع وتطرق برأسها فتبكي .

الى أن حدثت تلك الحادثة التي تقدمت وبلغ سكالابرينو الشاطىء سابحاً فأسرعت الى تلك السفينة التي انقلبت وهي تصيح والهة فتنادي ساندريجو دون أن يجيبها أحد .

فنسيت من هو ذلك الرجل ولم تعد تذكر غير غرامها به فتقول ويلاه لقد مات قتيلاً فأي رجاء بقي لي بعد الحياة ؟

وعند ذلك رأت على ضوء القمر ثوب امرأة ابيض عائماً على سطح الماء فأسرعت اليه وجذبته حتى تمكنت من حمله بمن فيه الى السفينة .

وهناك ركعت بجانب امباريا وحاولت أن تخنقها وقد أصيبت بما يشبه الجنون .

وعند ذلك شعرت ان امباريا قد تحركت ثم رأتها فتحت عينيها وقالت: من أنت ؟

قالت : أنا التي أحبه .

ـ تحبين من ؟

ـ ساندريجو .

وقد هاج تأثرها عند ما ذكرت اسمه وعاودها فكر القتل ولكنها رأت ان امباريا قد ضحكت ضحكا عصبياً وقالت :

ـ تحبين ساندريجو .. هذا هو .. انظري.

فنظرت المنكودة الى الجهة التي أشارت اليها فرأت على ضوء القمر جسم ساندريجو يتمرجح فوق سطح الماء قرب السفينة المنقلبة فالقت بنفسها الى الماء وبلغت الجثة فطوقت عنق ساندريجو بذراعيهـا بحيث امتزج الجسمان ولم يظهر منهما فوق الماء غير الرأسين .

وعند ذلك وضعت فمها على تلك الجثة الباردة بحنو لا يوصف وقبلته تلك القبلة الاولى فكانت الأخيرة وهوى الجسمان الى الأعماق .

٥٣

امباريا

كان سكالابرينو قد ألقى نفسه الى المياه ساعة انقــلاب السفينة وسار سابحاً حتى بلغ الشاطىء فذهب الى بيت الجزيرة .

وكان رولاند ينتظره فكان أول ما قاله سكالابرينو انه سأله عن بنته.

فأجابه رولاند قائلا :

ـ اننا لم نعــلم شيئاً يعد عنها فقد بحثنا في منزل الكردينال فـلم نجدها فيه .

فاطرق سكالابرينو برأسه اطراق القانطين ولم يقل كلمة فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

ـ تشجع ايها الصديق فان بيانكا قوية صادقة العزيمة فلا خوف عليها من بمبو وسنجدها كما فارقناها والآن قل لي ماذا صنعت بساندريجو ؟

ـ قتلته .

ـ امباريا ؟

ـ اغرقتها.

فجعل رولاند يتمعن بوجه هذا الرجل الذي يخبره بهذه الأسرار الهائلة بملء السكينة. كأنه يروي رواية عادية .

* * *

أما سكالابرينو اذ كان صادقاً بشأن ساندريجو فقد كان مخطئاً بما رواه عن امباريا فانها لم تغرق كما توهم وقد رأينا جوانا انقذتها .

فلما غرقت جوانا مع ساندريجو بقيت امباريا وحدها في القارب ورأسها بين يديهـــا لا تعي على شيء ولا تفتكر بهـذه المرأة وجعلت الأمواج تقذف القارب وتعيده الى الشاطىء من تلقاء نفسه .

ولما انتبهت من سبات غفلتها كان الصبح قد أشرق والقارب قد بلـغ الشاطىء فانتبهت ونظرت الى ما حولها فرأت بعض الناس ينظرون اليها من الشاطىء نظرات الانذهال فبذلت جهداً عنيفاً حتى نسيت ما مر بها وتمكنت من تسكين اضطرابها .

وعند ذلك دنت منها أحد النساء اللواتي كن على الشاطىء فقالت لها :
هل السيدة سقطت في الماء ؟

قالت : نعم هل يوجد بحار يستطيع ايصالي الى منزلي ؟

فأسرع رجل الى قاربها وقال لها ، اني لست بحاراً يا سيدتي ولكني استطيع ايصالك فالى اين تريدين ان تذهبي ؟

قالت : الى قصر امباريا .

وجعل القارب يسير ببطء وجزعها يشتد فقالت الرجل : ارجوك ان تسرع السير وهناك اكافئك خير مكافأة .

قال : ان مشاهدتي ذلك الجمال الذي تعجب به ايطاليا بأسرها خير جزاء لي .

فنظرت امباريا اليه نظرة الفاحص فرأته لابساً ملابس تدل على الفقر فافتكرت هنيهة بماذا يجب ان تكافئه الى ان خطر لها خاطر فانتزعت مشطاً من شعرها مرصعاً بالحجارة الكريمة فدفعته اليه وقالت :

ـ اني لا اكافئك بشيء لكونك اوصلتني ولكني أرجو ان تقبل مني هذا التذكار مكافأة لك عما قلته لي .

فأخذه الرجل شاكراً واندفع يجذف فجعلت امباريا تنظر الى القصور التي تمر بها الى ان مرت بقصر التياري فرأت امرأة واقفة في نافذة مفتوحة تنظر نظرات تشف عن السويداء .

فاسرعت وادارت وجهها وهو تقول :

ـ ويلاه ... انها هي .. ليونور .. رحماك اعفي عني .

وبعد هنيهة وصلت الى قصرها وهناك غيرت ملابسها وعالجوها بالاستدفاء ثم نهضت بعد الظهر وهي نشيطة كعادتها وقد نسيت أو تناست كل ما مر بها فلم تعد تخاف غير أمر واحد .

وهو انهـــا كانت تتوقع في كل لحظة ان ترى رولاند او سكالابرينو داخلاً اليها .

ولم تكن تفتكر بشيء غير هذا فان بنتها كانت تمثل لها كانسان عرفته من زمن بعيد ولم تكن تعجب الا لأمر واحد وهو انها كيف تحن على بنتها هذا الحنان وهي تكاد الآن لا تذكرها وباتت تشبه في قلبها نباتاً غرس في ارض قاحلة .

وكذلك بيبو وساندريجو فقد ذهبا من مخيلتها وباتت تذكرهما كما يذكر المرء حلماً بعيداً بحيث لم يبق ماثلاً لهـا غير رولاند كانديانو فجعلت تبكي بكاء اليا وعرفت انها منذ أتت الى فينيسيا لم تكن تحب حباً خالصاً غير رولاند وانها لا تزال تهواه .

ومن عجيب امرها كانت تحبه بقدر ما تخافه فهي قد تبذل حياتها في كلمة غرام تقولها له ولكنها تبـــذل كل مرتخص وغال كي لا تراه لشدة ذعرها منه .

ومما زاد اضطرابها انها رأت ليونور في النافذة فعدت هذه الرؤيا انذاراً لها بنكبة عظيمة وأقامت في غرفتها تفتكر بهذه الأمور الهائلة بينما كان رولاند يعتقد انها ميتة .

ثم خطر لها خاطر كان خلاصة ابحاثها وهي انها لم تجيء الى فينيسيا الا من أجل رولاند وان رولاند يحتقرها ويكرهها دون شك وانه قد يكون هو الذي سلح سكالابرينو ودفعه الى ما فعل .

وقد تجسم هذا الخاطر في مخيلتها حتى تمكن الرعب في قلبها ورأت انه لم يبق لها بد من الفرار .

وعند ذلك نادت وكيلها وتداولت وإياه نحو ساعتين حتى اذا انتهت المداولة نهض وهو يقول :

ــ سأنفذ كل أوامرك يا سيدتي وسأحضر لك بنفسي ثمن القصر وما فيه من الأثاث والرسوم .

قالت : ما عدا الرسم الذي أخبرتك عنه .

قال : دون شك يا سيدتي ولم يبق عليّ الآن إلا ان أعلم الى أية مدينة من المدن الايطالية تريدين ان أوافيك .

قالت : الى رومة .

وعند ذلك انصرف الوكيل وجمعت امباريا كل ما كان عندها من الحلى الثمينة والذهب وبرحت القصر في ظلام الليل دون ان تصحب معها احداً من خدمها فركبت قارباً واجتازت به البحيرات فلقيت وكيلها ينتظرها على الشاطىء وقد أعد لها مركبة فركبتها واجتازت بها ايطاليا مسرعة وهي تبذل الذهب بسخاء في الطريق كي لا يعيقها عائق عن مواصلة السير الى ان وقفت بها المركبة في صباح يوم عند باب احد القصور في رومة فتنفست الصعداء وقالت :

ــ الآن نجوت .

وقد دخلت الى قصرها وجعلت تتفقد غرفه بفرح لا يوصف وهو فرح أمان بعد الخوف وللحال أمرت بإصلاح ذلك القصر ووزعت رقاع الدعوة على فتيان رومة تبشرهم بعودتها اليهم كما كانت تلك الحفلة التي أعدتها في فينيسيا حفلة الوداع .

وفي الليل اضطجعت في سريرها وجعلت تناجي نفسها فتقول :

ــ أف لفينيسيا وترعاتها وشوارعها الموحلة وجواسيسها الأدنياء وخناجر رعاعها اللامعة وكل ما يرغبني فيها فلتسقط فينيسيا ولتحيا رومة وشمسها الذهبية وفتيانها الظرفاء فاني هناك لم اكن غير الحظية الحسناء وأما هنا فاني ملكة الحظيات .

وقد نامت تلك الليلة آمنة مطمئنة وقد ماتت في قلبها بيانكا وبيبو وساندريجو حتى رولاند كانديانو فقد مات الجميع لديها من عشيقها دافيليا الذي قتلته بيدها الى ساندريجو الذي قتل أمام عينيها .

وكان قصرها من اجمل قصور رومة وهو مبني في شارع لا يقيم فيه غير النبلاء والكرادلة وكبار السيدات فاحدثت عودتها تأثيراً عظيماً في تلك العاصمة .

وبعد اربعة ايام اعدت حفلتها الشائقة فكانت حفلة بديعة ظهرت فيها امباريا بجمالها الرائع .

حتى إذا انتهت الحفلة تفرق المدعوون وهم يعجبون بلطف امباريا وهي لاهية بفوزها فرحة بانتصارها .

ولم يبق من بين جميع اولئك المدعوين غير واحد فدنا منهـا بعد ان انصرف جميع الناس ونزع برقعه فصاحت امباريا صيحة رعب قائلة :

ـ بمبو ؟

فانحنى الكاردينال امامها وقال : نعم أنا هو فما بالك ذعرت مني ؟

فاصفر وجه امباريا وقالت له بصوت يضطرب :

ـ ماذا أتيت تعمل هنا أبقيت علائق بيننا ؟

قال : دون شك .

قالت : ما هي ؟

قال : ابنتك يا سيدتي .

٥٤

جنون بيانكا

فلندع الآن امباريا مع الكاردينال ولنعد الى فينيسيا بل الى ضواحيها اي الى تلك الغابة التي تركنا بيانكا فيها .

فلقد تركناها وقد أدركها بمبو فذعرت ذعراً لا يوصف وتوهمت انه رجل

الغابات بينا كان بمبو ينظر اليهـا وقد فرح فرح الوحش الضاري وقـد ظفر بالفريسة .

أما بيانكا فانها التفتت وهي تكاد تجن رعبـاً فعرفت بمبو ووثبت لفورها بعد ان كانت قد سقطت جاثية على ركبتيها وقالت له :

— من انت ؟

فقال لها بلهجة المتعطف :

— كيف ذلك ألا تعرفين من أنا ؟

— نعم لقد رأيتك مرة أو مرتين ولكني لم اعرفك فمن أنت ؟

فتنهد بمبو تنهداً عميقاً وقال :

— إذا كنت تريدين معرفة اسمي فقـد سمعته مراراً وسمعت الناس يلفظونه بملء الاحترام فاني ادعى بمبو وأنا كاردينال وأسقف فينيسيا أي اني رجل عظيم ولا حد لسلطتي في فينيسيا .

وقد جمعت من الذهب والجواهر ما لا يقدر بثمن ولي قصر يناطح السماء فعندما يمر به الناس ينظرون اليه نظرات تشف عن الرعب والاحترام لأن جميع الناس يعلمون ان الدوج آلة في يدي فاذا اردت قطعت الرؤوس وإذا اردت فتحت ابواب السجون بكلمة تخرج من فمي .

— وماذا تريد مني ؟

— أريد ان اضع هذه السلطة وهذه الثروة تحت قدميك فاصغي إليّ ايتها الفتاة إذا قلت لك من أنا وسأقول لك من انت .

انك تدعين بيانكا وامك تدعي امباريا فانت ابنة الصدفة والإتفاق إذ ليس لك أب يعرف أي انك لست شيئاً مذكوراً .

وان أمـك تدعى امباريا أتعلمين ما معنى هذا الاسم .. انـه يفيد معنى الحب الفاسد والشهوات المنكرة وانه اسم إمرأة تكون ملك الغني فهي مثال الخجل والحطة والعار وانت ابنة هذه المرأة فـاذا رآك الناس لا يقولون

هوذا فتاة حسناء قد مرت بل يقولون هذه هي امباريا وهذا كاف للدلالة على انك ابنة الخجل ورجائي ان تكوني فهمت قولي فماذا تقولين ؟

فلم تجبه بيانكا بحرف ولكن عينيها كانتا تتكلمان عنها بأفصح لهجة تدل على الاحتقار .

فاضطرب بمبو وقال في نفسه : أأكون كردينالاً عظيماً وتحتقرني ابنة محظية ولكنها الحسن الطالع في قبضة يدي ثم قال لها :

ــ أما الآن فقد عرفتني وعرفت نفسك وعرفت اني بفضل سلطتي وثروتي اخضع اجمل النساء لارادتي وانك أنت لا ينظر اليك رجل نظرة اخلاص على جمالك فانهم لا يحبون بنات المحظيات حباً صادقاً بل يشترونهن شراء كما يشترون امهاتهن فكيف تسكتين بعد ذلك وقد قلت لك اني أتيت لأضع سلطتي وثروتي تحت قدميك .

فقالت بصوت سمعه بمبو :

ــ يا الله ما أشد هذا القبح .

ولم تقل هذا القول خصيصاً بل أنه خرج من فمها من تلقاء نفسه حتى انها لم تكن تريد أن يسمعه .

فاصطكت اسنان بمبو ولكنه كظم غيظه وقال :

ــ نعم اني قبيح ولكن الجمال الحقيقي هو جمال النفس لا جمال الوجه وانك لم تعرفيني بعد حق العرفان فقد كنت منذ بضعة أعوام أدنى من البحارة في المنزلة فاصبحت اليوم وأنا اعظم عظيم في البلاد وكل ذلك بفضل ما أوتيته من الصبر وقوة الارادة وحسن الحيلة فاذا عرفت ما فعلت فاعلمي ما سأفعل وهو قول لم اقله لأحد سواك بل هو قول لم أكد أجسر على ان اناجي به نفسي فاني كنت استطيع بما أنعم به الله علي من الذكاء والرجاء ان أذهب الى رومه وأبلغ فيها ما تشاء مطامعي ولكني تخليت عن جميع ذلك من أجلك .

وقد سكت هنيهة عله يسمع كلمة منها فلم تفه بحرف فقال لها :
ـ ما بالك لم تجيبيني ألم تسمعي ؟

قالت : كلا .

قال : كلا بل سمعتني ولم تفتك كلمة من أقوالي فاصغي الي أيضاً ايتها الحسناء واعلمي اني لقيت فيك من العذاب ما لم يلقه بشر منذ رأيتك فهل تعطفين علي بنظرة رضى وإذا كان عذابي ودموعي لا يؤثران على قلبك ولا يجدان فيه ذرة من الرحمة فما انت من النساء .

وبعد فماذا اسأت اليك فكرهتني هذا الكره أني لم أكلمك مرة وانت لا تعرفيني فلا يمكن ان تكرهيني ولكني اقرأ سطور الكره بين عينيك .

ولماذا هذا الكره وانت تعلمين يقيناً اني أحبك أصدق حب وأني سأكون السلم الذين ترقين عليه الى قمة المجد واني أبذل كل ما لدي من سلطة ونفوذ ووجاهة ومال في سبيل سعادتك فكيف لا ترحميني الا يمكن ان اجد في قلبك القاسي ذرة من الاشفاق ؟

قالت : كلا .

فتنهد عند ذلك تنهداً عميقاً واحمرت حدقتاه ومد يديه اليها فتراجعت مذعورة ولكنها كانت متأهبة للدفاع .

فارتجف بمبو ورأى بفطرته الفاسدة أنه لم يبق له بد من استعمال العنف فهجم عليها وهو يقول :
ـ ستكونين لي بالرغم عنك .

ولكنه قبل أن يبلغ اليها تراجع وهو يصيح صيحة ألم والدم يقطر من يده .

ذلك ان بيانكا اسرعت الى امتشاق مدية كانت قد خبأتها في صدرها وطعنته بها حين هجم عليها .

ولكنه لم يبال بذلك الجرح وهجم عليها ثانية فتراجع ايضاً وقد أصيب بجرح آخر في ذراعه .

فان بيانكا كانت واقفة والمدية في يدها وقد عزمت على ان تدافع عن نفسها دفاع القانطين فاذا لم تفز بدفاعها قتلت نفسها .

وقد دام هذا الخصام بينهما بضع دقائق وبيانكا على غاية الحذر إذ كانت تعلم يقيناً انه إذا قبض على يدها تمكن من الفوز عليها .

ولكنه لم يتمكن من الوصول الى يدها فلما أصيب بالجرح الخامس مسح الدم عن وجهه وابتعد عنها خطوتين فقال :

ـ كفى فاطمئني فاني لا أمد يدي اليك ولكني لا أعلم ماذا يكون مصيرك في هذه الغابة المقفرة والى اين تذهبين .

اني لا اسألك شيئاً الآن بل اسألك ان تعودي معي .

فلم تجيبه بيانكا ايضاً وأشارت برأسها إشارة سلب فقال لها :

ـ الا تريدين ان تعودي معي ؟

فاشارة الإشارة نفسها فقال :

ـ إذن اصغي الي فلا اكلمك بعد الآن وانصرف وحدي إذا لم اقنعك واعلمي اني أريد ان أرجعك الى فينيسيا وهذا لا بد منه وثقي اني لا اكلمك كلمة في الطريق ولا أدنو منك وانك لا تريدين ان تكوني لي فليكن ما تريدين ولكني لا أريد ان تكوني لسواي .

ولما رآها مصغية اليه مضى في حديثه فقال :

ـ اني سأدع لك الخيار بعد هنيهة بين أن تعودي معي إلى فينيسيا وبين ان تذهبي الى حيث تشائين فاذا رضيت ان تعودي معي اقسمت لك اني احترمك واذا أبيت انتقمت وكان انتقامي هائلا لا يخطر في بال انسان .

وهنا لا بد لي أن أخبرك كيف يكون انتقامي فاعلمي .

اني كلمتك في بدء حديثي عن أمك وأنت ربما تعتقدين انها محظية فقط

ولكنك واهمة في اعتقادك فان لأمك قصراً في فينيسيا تنفق عليه خمسمائة الف ريال في العام وانت تجهلين كما يجهل جميع الناس كيف كان استيلاؤها على هذا القصر .

فاعلمي اذن ان صاحب هذا القصر كان يدعى جان دافيليـا وهو من اعضاء مجلس العشرة ومن كبار النبلاء .

أما هذا الرجل فقد مات قتيلاً بعد ان كتب وصيته بيومين وقد ترك في وصيته هذا القصر لمحظية امباريا.

انك لم تفهمي بعد فافهمي فان الذي قتل جان دان دافيليا كان امك .

فذعرت الفتاة وقالت : يا للهول .

قال : يظهر ان حديثي بـــدأ يؤثر عليك والآن فاعلمي ان لدي أدلة وشهود من كبار النار يشهدون ان أمك القاتلة فماذا تقولين اتسكتين ايضاً .

وهنا سكت قليلاً بينما كانت بيانكا تبذل جهداً عنيفاً كي تمنع نفسها عن الاغماء فمضى في حديثه فقال :

ـ انك اذا صحبتني الى فينيسيا ابقيت هذا السر مكتوماً فلا أبوح به لأحد وإذا اضطررت للعودة وحدي وشيت بأمك حين وصولي فقبضوا عليها وقتلوها بعد اسبوع .

ولو كان بيبو الح عليها لارتابت في قوله ولكنه قال لها هذا القول وادار ظهره فسار سيراً بطيئاً .

وقد كان موقف بيانكا في تلك الساعة حرجا إذ كان يجب عليها ان تختار بين موتها وبين موت امها .

وقد تمثلت لها أمها بايدي الجنود وهي مساقة الى ساحة الاعدام فارتعشت فرائصها ومشت في أثر بيبو .

أما الكردينال فشعر انها تسير وراءه فلم يلتفت وفرح فرحاً لا يوصف وعظم في عيني نفسه إذ تمكن من اخضاع هذا الظبي النفور .

ولبث سائراً ساكتاً ولكنه كان من حين الى حين يشعر بلهيب الجرح الذي أصابه ويفتكر انه لولا هذه المدية التي كانت معها لكان فوزه مضموناً فيثن انين القانطين ويفتكر بطريقة تمكنه من تجريدها من هذا السلاح .

وفيما يفتكر بذلك خطر له فكر هائل وهو أن هذه الفتاة تسير وراءه وانها قد تطعنه بين كتفيه طعنة تكون القاضية فالتفت فجأة فرآها تسير على قيد بضع خطوات منه والمدية مشهورة بيدها فعاد الى المسير .

وما زالا سائرين حتى وصلا الى الشاطيء ورأى البحار لا يزال ينتظر في القارب فأشار اليها أن تصعد اليه .

أما بيانكا فانها ترددت لحظة في البدء ثم تمثلت لها أمها يسيرون بها الى ساحة الاعدام فارتعشت واسرعت بالصعود الى القارب .

٥٥

العذراء

عرف القراء ان ارتين الشاعر كان من اشد الناس جبناً في حين انه كان يفاخر الناس بجرأته وانه لم يعترف بهذا الخوف الا لرولاند .

وهم يذكرون ايضاً انه هو الذي دعا امباريا الى محادثته بأمر خطير فلما وصل وإياها الى الغرفة دخلت قبله ودخل رولاند مكانه في اثرها واقفل الباب في وجهه .

وقد عاد ارتين عند ذلك الى القاعات وهو راض عن نفسه لأنه خدم رولاند خدمة كان حليفها الفوز .

ولكنه ما لبث ان هلع قلبه من الخوف إذ قال في نفسه :

ـ ان امباريا عدوة رولاند اللدودة وانه لا بد من حدوث خصام بينهما

يكون الفوز فيه لرولاند لا محالة وان امباريا سوف تذكر انـه هو الذي خدعها هذه الخدعة فترسل احد أعوانها فيقتله شر قتل .

ولم يكد يخطر له هذا الخاطر حتى هرول مسرعاً الى منزله فاقفل الابواب وتحصن به كأنه في حصن يهاجمه الاعداء .

وعند ذلك رأى أنه لا يستطيع الرقاد لشدة خوفه فجمع نساءه وجعل يعاقر واياهن المدام ويروي لهن النوادر المختلفة عن شجاعته النادرة المثال حتى اقبل الصباح وهو على ما هو فيه .

وفيما هو على ذلك قرع الباب الخارجي بعنف فهلع قلبه وأرسل أحـد خدمه يستطلع فعاد وهو يقول :

ـ ان الطارق الكاردينال بمبو يصحبه امرأة .

فأمره أن يسرع بفتـــح الباب وهرع لاستقباله فلما تظاهر بالدهشة وقال له :

ـ ما هذا الاصفرار الذي يتولاك وما هذه الجراح التي بيديك ؟

فجلس بمبو على كرسي وهو خائر القوى وقال له :

ـ اني مؤتمنك على سر تقسم لي بشرفك على كتمانه فان هذه الفتاة التي تراها أريد ان تختبىء عندك بضعة أيام فانها لا تكون في مأمن الا إذا كانت عندك ورجائي أن يعاملها نساؤك بما تستحقه من العناية والاكرام .

فانحنى ارتين أمام بيانكا المنكودة وقد ظهرت عليه عـــلائم الاشفاق الأكيد وقال :

ـ انها تكون عندي كما لو كانت في منزل ابيها .

ثم قرع المائدة ونادى امرأة من نسائه تدعى بيريتا فقال لها : اني اعهد اليك بحراسة هذه الفتاة فاعتبري انها اختك .

فدنت بيريتا منها وهي تبتسم لها الطف ابتسام فتأبطت ذراعها وهي تقول لها بلهجة اشفاق :

ـ ثقي ايتها السيدة اني ما زلت بقربك فلا سبيل الى الخوف .

وقد عرف القراء كيف ان بيانكا رضيت ان تعود الى فينيسيا مع بيو فلما صعدت الى القارب وسار بها يخترق الامواج اصيبت بيأس شديد .

وذلك انها خطر لها انها ستعود الى قصر امها وهناك تعود الى سلطة ساندريجو اذ تكرهها امها على الزواج به وفي هذا الفكر وحده ما يدعوها الى اليأس ذلك فوق ما تجده من النفور من عيشة امها .

ولكنها كانت امها ولا سبيل الى مجافاتها ولا الى مجافاة هذا الكاردينال الهائل فان الاعدام يتهدد تلك الأم .

وقد اضطربت في أمرها وتمثل لها الموت ففضلته على العودة الى منزل أمها ولكن ماذا تصنع وإلى اين تذهب .

وما زالت هذه الافكار تتنازعها حتى رأت انالقارب قد وقف عند قصر لم تكن تعرفه .

ولم يكد الكاردينال قد كلمها كلمة على الطريق وفاء بوعده فلما وقف القارب قال لها بملء السكينة :

ـ أصغي الي فاني سأوجز القول وعليك ان تختاري .

انك لا تريدين ان تكوني لي فليكن ما تريدين ولكني اقسم بالله انك لا تكونين لسواي .

وهذا منزل صديق امين سأقيمك فيه فاذا وافقت على اقتراحي فلا خوف على أمك وإذا أبيت وأردت ان تذهبي وأنا لا أمنعك فلا تمضي ساعة حتى تكون امك بيد الجلاد وهي متهمة بقتل جان دافيليا .

والآن فاختاري بين ان تتبعيني وبين تذهبي الى حيث تشائين .

وعند ذلك فعل كما فعل حين كان في الغابة أي أنه أدار ظهره ومشى دون ان ينتظر جوابها .

فتبعته بيانكا كما تبعته هناك وهي ترجو ان تتمكن من ايجاد طريقة

سرية تخبر بها أمها عن تلك التهمة التي يتهمها بها الكاردينال فتى هربت أمها تطمئن هي عليها وتهرب بدورها .

فلما ذهبت بيريتا بها بقي ببو وارتين فقال له الكاردينال :

ـ هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها .

قال : أهذه هي التي ...

ـ نعم هذه هي التي يجب ان يفسد نساؤك اخلاقها .

فأطرق ارتين برأسه الى الأرض ولم يجب .

فقال له ببو بلهجة المتوعد :

ـ ما هذا ؟

قال : من هي هذه الفتاة ؟

ـ ألم اقل لك انها ابنة الحظية امباريا ويجب ان يكون في عروقها دماء حظية ولكنها لم تختلط بعد بالناس ولم تعلم شيئاً من سير امها أي لا تزال على التربية التي تعلمتها في المدارس على انها إذا عاشرت نساءك عشرة أيام تصبح كما أريد ان تكون فما تقول ؟

ـ اقول أني اشفق عليها .

ـ ولكني سأقتل هذه الشفقة بكلمة اكتبها فهات معدات الكتابة فانه لا يزال لك خمسة الاف ريال... هات معدات الكتابة لأكتب لك حوالة بها على الخزينة .

ـ لا حاجة الى ذلك .

فذهل ببو وقال : ماذا تقول ؟

ـ أقول أني أوثر ان تبقي مالك لك .

ـ اهذا انت الذي أسمعه ام انني من الحالمين ؟

فتنهد ارتين وقال : كلا بل انت في يقظة .

فقيد ببو هذا التنهد بحساب الخمسة آلاف ريال.

وقد كان مصيباً فان ارتين كانمن عشاق المال وقد تنهد حقيقة لخسارته هذا المبلغ الجسيم .

ولكنه رأى تلك الفتاة فرأى الطهارة ماثلة في جبينها واليأس يبدو في عينيها فاشفق عليها اشفاقاً اكيداً .

ثم أنه كان من أهل الفنون الجميلة . وقد قابل بين جمال بيانكا وقبح بمبو فانف من أن يدفعها اليه وفضل خسارة المال .

وفوق ذلك فانه كان لا يزال خائفاً من ان تبحث عنه امباريا وترسل له من يقبض عليه ويقتله لأنه خدعها بادخال رولاند اليها فما يكون مبلغ حقدها متى علمت ان بنتها عنده .

ولذلك قال لبمبو :

– انك غير حالم وأني ارفض ذلك المال الذي تعرضه علي .

غير ان الكاردينال لم يكترث لقوله فقام لنفسه فاحضر دواة وقلماً وكتب الحوالة على ورقة فامضاها ودفعها اليه قائلا :

ــ خذ ايها الصديق .

قال : كلا . ولكنه نظر الى الحوالة نظرة كئيبة فقال له الكاردينال :

ــ اذن انت تريد ايها الصديق ان تضطرني الى ان أعمق البحث في شأن سفارتك الى جان مدسيس .

وقد قال الكاردينال هذا القول من قبيل الايهام فانه لم يكن يعلم شيئاً من اتفاق ارتين ورولاند ولكن الريب كان يخامر قلبه .

أما ارتين فانه بعد ان سمع هذا القول اضطرب ووثق ان الكاردينال عالم بالحقيقة وانه قد يشي به الى الدوج فيرسله الى سجون الابار حيث يموت فيها شر موت فرعب رعباً عظيماً .

وكان الكاردينال لا يزال باسطاً اليه يده بالورقة فأخذها وهو يقول :

ــ أي دخل لي بهذه الشؤون ؟

فقال له الكاردينال : إذن لقد بقينا ايها الصديق على اتفاقنا القديم ؟

قال : نعم ولا انكر اني اشفقت هنيهة على هذه الفتاة .

كلا لا يجب ان تشفق عليها بل يجب ان تكون هذه الشفقة علي وبعد فلما تشفق عليها وهي ابنة محظية احببتها حباً قاتلاً وسأجعلها من اسعد النساء وارفعهن شأناً وأبعدهن نفوذاً في حين انها معرضة لغرام اقل الفتيان شأناً فيعبث بها ويجعلها من عامة الناس وعند ذلك الا تشفق عليها ؟

فاعتذر ارتين عما بدر منه وبعد هنيهة فارقه الكاردينال وهو يقول :
ـ اذكر اني معتمد عليك وعلى نسائك في تقويم اودها .

قال : انك لا تذكر ناسياً وقام فودعه الى الباب ثم عاد وهو مطرق يفكر الى ان قال :

ـ ويح لي ما هذا الجنون الذي اصابني وما هذا الاشفاق على هذه الفتاة فقد رأيت كثيرات مثلها مع جان مدسيس فليحدث لبيانكا ما كتب لها وليفعل بمو ما يشاء أما انا فخير ما اعمله الآن ان أدخل الى مخدعي وانسى هذه السفاسف بالرقاد .

٥٦

الكاردينال

عندما عاد الكاردينال الى منزله كان النهار قد طلع فلما وصل اليه وجد أحد خدمه واقفاً عند الباب الخارجي فأسرع الخادم اليه حين رآه وقال له :

ـ مولاي ما هذه الليلة الهائلة التي قضيناها ؟

فأسكته الكاردينال إذ رأى رجلان يسيران بالقرب منه ودخل معه الى المنزل فقال له :

– قل الآن ما جرى وأوجز في القول .

قال : انهم دخلوا القصر في هذه الليلة دخول المغتصب .

فقطب حاجبيه وقال : ألعلهم لصوص ؟

– كلا يا مولاي فانهم لم يمسوا شيئاً من رياش القصر كما تبينت بعد رحيلهم .

فاصفر وجه الكاردينال حين أيقن انهم غير لصوص ونظر الى الخادم كأنه يأمره ان يمضي في حديثه فقال الخادم :

– لقد كانت الساعة الخامسة بعد انتصاف الليل وجميع الخدم نيام إلا أنا فقد لبثت ساهراً بأمرك .

عند ذلك سمعت قرع الباب الخارجي وعلمت انك لست انت الطارق لأن القرع لم يكن بالشكل الذي اصطلحت عليه فلم افتح .

ثم تكرر الطرق ولما لم افتح الباب كسروا القفل فجعلت أصيح مستغيثاً فاستفاق جميع الخدم وبادروا الى نجدتي .

وعند ذلك فتح الباب ودخل منه عصابة كأنهم من مردة الجن فقبض بعضهم علينا وأنار بعضهم المصابيح .

ثم جاء رئيسهم وسألنا قائلاً : أيكم خادم غرفة الكاردينال ؟

فقلت له : أنا هو فدنا مني ووضع غدارته على صدري وقال لي :

– سر بي الى غرفة مولاك .

فلم أجد بداً من الإمتثال وغدارته مصوبة الى رأسي وذهبت به الى غرفتك لعلمي انك لست فيها وهناك سألني قائلاً :

– أين هو مولاك ؟

قلت : انه مسافر .

— انك كاذب .

— بل اقسم بالعذراء .

— إذن سر أمامي فاني اريد ان أرى جميع غرف القصر .

وعند ذلك تفرق جميع رجال تلك العصابة في القصر ففتشوه أدق تفتيش حتى انهم كانوا يفتشون تحت الأسرة ووراء الستائر فلما لم يجدوك انصرفوا دون ان يسيئوا الى أحد منا بشيء .

فقال بمبو في نفسه والذعر ملء قلبه : إنه رولاند دون شك .

ثم قال للخادم : دعني الآن وحدي فاني محتاج الى الراحة وعد إليّ بعد ثلاث ساعات .

— حسناً يا مولاي .

— وأقفل كل شيء واذهب الى السنيور جينارو رئيس البوليس فأورد ما حدث وقل له ان يأتي لمقابلتي ثم سله بلساني ان يرسل عشرين جندياً لحراستي فاننا في زمن لم يبق فيه أمان حتى لأمراء الكنيسة .

فامتثل الخادم وذهب مسرعاً لتنفيذ الأمر .

وخلا بمبو الى نفسه فقال : نعم ان رولاند يتعقبني وانه مقيم في فينيسيا لا يراه احد فيها على كثرة الرقباء والجواسيس وكلما نصبوا له فخاً نجا منه كأنه من الأبالسة .

أما أنا فلا سبيل لي الى النجاة منه بغير الفرار فانه قد ضيق الحلقة عليّ وإذا لم أسرع بالفرار قضي عليّ القضاء المبرم .

وقد تقدم لنا بيان خطة الكاردينال فانه كان يحاول ان يبرح فينيسيا ببيانكا بعد ان يتم نساء ارتين تدريبها على ما يريد في مدة اسبوعين .

أما الآن فقد رأى انه لم يبق له سبيل الى البقاء اسبوعين بعد ان أيقن ان رولاند يتبعه ولذلك عزم عزماً أكيداً على ان يبارح فينيسيا في الغد مع بيانكا ونام .

وبعد ثلاث ساعات استفاق واستقبل رئيس البوليس فقال له :

— قد أخبرك خادمي بما اتفق لي ليلة امس وإنما دعوتك إليّ لأستطلع ك في هذه الحادثة .

قال : أرى ان هذه الحادثة متفقة مع حادثة خطيرة ايضاً تجهلها دون ومع حادثة سوف تحدث .

— ماذا تعني بما تقول ؟

— انهم وجدوا في الترعة الآن جثتين جثة رجل وجثة امرأة أما المرأة ا تدعى جوانا ولا شك ان نيافتكم لا تعرفونها .

— كلا .

— إننا راقبنا هذه المرأة مدة طويلة ثم توارت عن أنظارنا وإنما كنا بها لوثوقنا انها كانت تخدم ابن الدوج السابق خدمة سرية .

— رولاند كانديانو ؟

— نعم فان نيافتكم لا تجهلون انه لا يزال يطمع بأن يخلف أباه .

أما جثة الرجل فهي جثة لص قديم تعيّن اخيراً بين قواد الجيش دون علم احد سبب هذا التعيين .

— ساندريجو ؟

فابتسم رئيس البوليس وقال : ألعل نيافتكم تعرفون هذا اللص ؟

— أعرف انه خدم الجمهورية خدمة جليلة .

وبعد ان تمعن هنيهة قال : إذن لقد قتل ساندريجو ؟

— اني لم أقل لنيافتكم انه قتل ولكنكم عرفتم الحقيقة كما يظهر فانه ب بخنجر في صدره .

— ماذا تظنون بهذه الجريمة ؟

— أظن ان جوانا قد قادت ساندريجو الى كمين وان رولاند قتله .

— ولكن هي ماتت ايضاً ؟

ـ ربما قتلوها لأنها ارتكبت خيانة ولكنني أرى اني أؤثر على نيافتكم بهذه الرواية .

ـ كلا كلا فامض في حديثك فقد قلت لي انه يوجد حادثة اخرى .

ـ نعم وهي ان الجثتين وجدتا في الترعة كما قلت لكم ولكن وجدوا أمامها سفينة منقلبة وهي بديعة الاتقان .

ـ انها دون شك سفينة ذينك المنكودين .

ـ ربما .. أما أنا فقد عرفت السفينة لفوري وهي سفينة امرأة ولا بد ان تكون نيافتكم سمعت بذكرها ولكنني لا أجسر على التصريح باسمها في هذا المكان المقدس .

ـ لا بأس فاذكر لي اسمها .

ـ إنها محظية شهيرة تدعى امباريا .

ـ ماذا تقول ألعل هذه المحظية قتلت ايضاً ؟

وقد اضطرب الكاردينال في نفسه اضطراباً شديداً فقال في نفسه : لقد قتل ساندريجو وقتلت امباريا فجاء دوري لا محالة .

أما رئيس البوليس فقد قال له :

ـ كلا يا سيدي فان كان أمر هذه المرأة يهمكم فاعلموا انها لم تقتل وانها مقيمة في قصرها وقد تأكدت ذلك اذ خطر لي البدء في انها هي القاتلة على انها إذا لم يكن لها يد في القتل فان لها دخلاً في الحادثة دون شك بدليل انها تتأهب للسفر وانها ستبرح فينيسيا غداً الى رومة .

ـ وأية علاقة ترى بين هذه الحوادث وبين قتل ساندريجو وسفر المحظية والهجوم على منزلي ؟

ـ لا أجد علاقة ولكن خطر لي ان أولئك الناس الذين قتلوا ساندريجو واكرهوا امباريا على الفرار قد يكونون نفس الذين هجموا على قصركم .

ـ ترى ماذا يقصدون ؟

ـ لا أدري فربما كان ذلك انتقاماً عن حقد شخصي .

ـ أتظن ان رولاند كانديانو حاقداً عليّ وانه يريد الانتقام مني .

وقد قال الكاردينال هـــذا القول وندم عليه إذ رأى رئيس البوليس يبتسم ابتساماً دله على انه يعرف كثيراً من الاسرار .

أما الرئيس فانه قال له :

ـ مهما يكن من الأمر يا سيدي فـلا يمضي زمن قليـل حتى أقف على الحقيقة بشأن الهجوم على قصركم ولكن إذا أذن لي سيدي أسديته نصيحة .

ـ قل .

ـ نصيحتي الى سيدي ان لا ينام في قصره مدة شهر .

فوقف بمبو وقال :

ـ إنك مخطىء فيما تقول فان الأسقف لا يجب ان يفارق أسقفيته والله يتولى حمايته ولذلك لا اخرج من منزلي ويفعل الله يشاء .

ـ إني أعجب بشجاعة نيافتكم ومع ذلك فلا بد لي من ان أقوم بواجباتي وأتولى حمايتكم ولذلك أرسلت لكم عشرين جندياً كي يحرسوا القصر حتى يزول كل خطر .

ـ اني أقبل ذلك مع الشكر .

وعند ذلك فارقه رئيس البوليس وهو يقول في نفسه :

ـ نعم ان جنودي ستحرسك وتراقبك أشد المراقبة فاني أريـد ان اعلم قبل سفرك اذا كنت مخلصاً لألتيماري وإذا كنت من المؤتمرين فان اسمك غير مقيد في قاعتي .

أما بمبو فقد بقي وحده فجعل يجمع ما لديه من الاحجار الكريمة وهي ثروة عظيمة فانه كان يجمع هذه الحجارة الكريمة توقعـــاً للسفر الفجائي فوضعها جميعها في منطقته وعقدها في وسطه .

ثم أحرق كثيراً من الاوراق التي يخشى مغبتها وخرج من قصره من باب

سري بحيث لم يره أحد من الجنود فسار تواً الى الشاطىء فاجتمع ببحار وحادثه ملياً ثم اعطاه مبلغاً من المال وعاد الى منزل ارتين .

فلم يعجب ارتين لقدومه وقال له : اني سأجلس على المائدة وستتغدى معي فاسمح لي ان ادعو الخادمة كي تعد لك مكاناً معي .

قال : لا تدعو احداً فاني أتغدى معك بشرط ان لا يعلم احد بوجودي عندك .

ــ ولكنهم رأوك دخلت ؟

ــ لم يرني غير خادمك واريد ان تخبئه في مكان فلا يخرج منه إلا في صباح غد .

ــ ولكن ماذا حدث ؟

ــ افعل ما قلته لك وسنتحدث على المائدة .

فخرج ارتين من تلك الغرفة وعاد بعد هنيهة فقال :

ــ اني لا استطيع سجن الخادم حــذراً من ان يصيح ولكني ارسلته بمهمة الى تريفيز وهو لا يعود منها قبل يومين .

ــ حسناً فعلت والآن فمر ان يعدوا لك الطعــام في هذه الغرفة وان لا يدخل اليك أحد .

ثم قام فاختبأ في غرفة ثانية حتى إذا احضروا الطعام وتغديا جلس بجبو على كرسي قرب المستوقد وأطبق جفنيه .

فقال ارتين في نفسه : انه ينام فهل خطر له ان يقيم عندي ؟

غير ان الكاردينال لم يكن نائماً بل انه كان يفتكر في طريقة لإقناع بيانكا على السفر معه .

أما ارتين فقد تشاغل عنــه بالكتابة حيناً الى ان شعر بهجوم الظلام وذهب الى المصباح كي يشعله فقال له الكاردينال : لا تفعل .

فاضطرب ارتين وقال له : لماذا ؟

قال : لا فائدة من ذلك فاجلس بجانبي واصغ إليّ .

فامتثل ارتين وهو معجب لأمره وبدأ الكاردينال الحديث فقال :

– اني سألتك أمرين أحدهما ان تبقي الفتاة عندك مدة اسبوعين والثاني انك وعدتني بإخراج بيانكا من فينيسيا .

– هذا أكيد .

– إذن اني أعفيك من هذين القيدين اللذين دفعت لك ثمنهما مقدماً .

– مـاذا تقصد بذلك أتريد ان تسترجع المــال بعد ان دفعت معظمه الدائنين ؟

– كلا فاطمئن فانك لا ترد إليّ شيئاً ولكن بشرط .

– ما هو ؟

– هو اني عزمت على ان ابرح فينيسيا هذه الليلة وأريد ان تصحبني فان سبقتني تنتظرني على قيد بضع خطوات من قصرك ومتى بلغت بهـــا البحيرات فقد نجوت .

– نجوت ؟

– أريد ان اقول ان بقية السفر لا يهم .

– إذن ما هو الشرط ؟

– ماذا تدعى تلك المرأة التي عهدت اليها بيانكا ؟

– بيريتا .

– إذن يجب ان تناديها بحيث تبقى بيانكا وحدها ثم تدلني على غرفة بيانكا إذ لا بد لي من إقناعها .

فذعر ارتين وقال : رباه ماذا تقول أمها ؟

– لا تقول شيئاً فانما ذاهبان اليها .

– إن المال الذي دفعته لي يكلف غالياً .

فهز بيبو كتفه وقال :

– إنك ستدعو بيريتا ثم تدلني على غرفة بيانكا ثم تخرجنا من هذا المنزل دون ان يرانا أحد .

– حسناً فابق هنيهة الى ان اعود .

وبعد هنيهة عـــاد ارتين فذهب بالكاردينال من غرفة الى غرفة حتى انتهى الى غرفة بيانكا فقال له : هذه هي .

٥٧

ابنة المحظية

لقد عرف القراء من الفصل السابق ان ارتين ابعد خادمه بأمر الكاردينال .

وكان الكاردينال قد طلب اليه ان يسجن ذلك الخادم الوحيد الذي رآه الى الصباح فارقاً ارتين ان يبعده عن فينيسيا وكلا الأمرين واحد .

وقد رأى ارتين ذلك الخادم يركب قارباً ليجتاز به البحيرات فاطمأن وعاد الى بيبو .

غير ان الخادم لم يتجاوز في قاربه بضعة امتار حتى عاد الى شاطىء آخر بعيد عن القصر فوثب الى البر وأسرع الى بيت جزيرة اوليفو .

وهناك دخل الى المنزل دون تردد كأنه قد تعوّد ان يدخل اليه مراراً فلما رآه الخادم العجوز احسن استقباله فانه كان جاسوساً وضعه رولاند في منزل ارتين .

وقد سأل الجاسوس الخادم العجوز قائلاً :

– هل الرئيس في المنزل ؟

قال : كلا فقد سافر هذه الليلة .

— أيعود ؟

— ربما عاد في المساء .

— إذن سأنتظره .

وقد اقام الجاسوس كل ذلك اليوم في المنزل .

فلندعه الآن ينتظر رولاند ولنعد الى بمبو الذي تركناه عند باب غرفة بيانكا فانه فتح تلك الغرفة ودخل اليها فوجد بيانكا جالسة حول مائدة.

فلما رأته وقفت لفورها وراء المائدة بحيث جعلتها حاجزاً بينهما .

أما بمبو فانه اقفل باب الغرفة من الداخل ووضع المفتاح في جيبه وذهب الى النافذة الوحيدة التي كانت في تلك الغرفة فتفقدها دون ان ينظر الى الفتاة كأنها غير موجودة .

ولم تكن هذه الغرفة تطل على الترعة بل على شارع ضيق وهي لا تعلو اكثر من خمس أذرع عن سطح الأرض .

فلما تفقدها عـــاد الى بيانكا فوجدها مسلحة بمديتها الصغيرة فابتسم ابتساماً هائلاً وقد عول هذه المرة على ان لا يتوقف بسبب جراح .

أما الفتاة فانها اجابته على ابتسامه بنظرة كانت تنفذ منها الجرأة .

فابتسم بمبو ابتسامه الأول وقال لها :

— أرى ان هذا الخنجر الجميل لا يفارق يدك فكأنك قد تعلمت القتل من أمك التي قتلت جان دافيليا الشهير الذي لا يزال مجلس العشرة يبحث عن قاتله .

فارتعدت بيانكا وعلمت انه لا يقوى عليها إلا بمثل هذا البحث .

وعند ذلك جلس بمبو بعيداً عنها وقال لها :

— انك ترين بأنه لا سبيل الى الخوف بأن اجنح الى القوة كما فعلت في

الغابة فاصغي بسكينة الى كل ما اقوله لك واعلمي اني سأبرح فينيسيا في هذه الليلة نفسها ولكني عزمت عزماً اكيداً على ان تكوني لي قبل سفري ولا بد ان تكوني لي .

فهزت الفتاة رأسها وأرته الخنجر فقال لها :

ــ لقد قلت لك ستكونين لي وسأظفر بك برضاك فانك تكرهينني بقدر ما أحبك ولا بد من ان امزج الحب بالبغض ، نعم ايتها الشقية فانك ستكونين لي برضاك كما قلت وكفى الآن خداعاً ورياء فاعلمي اني مخيّرك بين أمرين إما ان تلقي نفسك بين ذراعي أو أسلم أمك الى الحكومة بعد ساعة فاختاري .

فصاحت بيانكا صيحة يأس تمزق لها صدرها وتراجعت مذعورة الى آخر الغرفة .

فقال لها : بورك فيك من فتاة تدفع بأمها الى يد الجلاد .

فصاحت بيانكا صيحة يأس أخرى بحيث وثق بمبو ان الفوز بات له وتقدم منها خطوتين .

فصاحت بيانكا قائلة :

ــ أماه لنمت معاً ما زلنا لا ملجأ لنا الا الموت.

وعند ذلك رفعت يدها بخنجرها وقد اتقدت عيناها ببارق غريب وطعنت صدرها بذلك الخنجر طعنة هائلة فتدفق الدم من ذلك الصدر وسقطت تلك الفتاة النقية الطاهرة على ظهرها وقضت شهيدة الطهر والعفاف ضحية ذلك الوحش المفترس .

فصاح بمبو صيحة منكرة واسرع اليها فركع أمامها ورفـــع بيديه المضطربتين رأسها الجميل المصفر ففتحت عينيهـا ونظرت الى ذلك الكاسر نظرة تدل على السلامة والاطمئنان الى ذلك الموت الذي كان لها خير ملجأ .

قال بمبو : كلا انكِ لا تموتين ... اني لا أريد ان تموتي .

وعند ذلك تحركت شفتا الفتاة فاصغى بمبو ليسمع ما تقول فسمعها تتمتم بصوت خافت قائلة :

— الوداع يا أمي ... الوداع يا رولاند .

وعند ذلك أسلمت الروح بين يدي ذلك الفاجر .

فوقف الكاردينال يتمعن في وجهها ويقول :

— أحق انها ماتت ونجت مني .. كلا ليس ذلك ممكناً .. كلا انها لم تمت وهي نائمة .

وقد اضطرب عقله في تلك اللحظة حتى انه كان يعتقد انها نائمة وجعل يقول اقوالاً تدل على الجنون وهو يحاذر ان تستفيق من رقادها كي لا يزعجها .

ثم زاد اختلاط عقله حتى اضطجع بجانبها وتوهم انها حية تكلمه فحاول ان يضمها الى صدره وان يدنس شفتيها الطاهرتين بشفتيه .

ولكنه سمع عند ذلك اصواتاً مختلفة في القصر فعاد اليه رشده فجأة وذهب من مكانه مذعوراً فأصغى الى تلك الأصوات وقال :

— رباه ماذا اسمع .. من هذا الذي يتكلم .. انه صوته .. رباه لقد قضي علي .

ثم سمع ذلك الصوت يقول : اين بيانكا ؟

فأجابه صوت امرأة قائلة :

— تعال الى هنا .

وبعد لحظة سمع انهم يطرقون باب الغرفة طرقاً عنيفاً فضحك ضحك المجانين واسرع الى النافذة فوثب منها الى الشارع فسقط واقفاً وجعل يسير هائماً مضطربا الى القارب الذي كان ينتظره .

حتى إذا بلغه صعد اليه وأمر البحار ان يسرع السير ما استطاع فاندفع به يسابق الرياح .

ولم يطمئن قلبه الا حين بلغ الشاطىء في آخر البحيرات فكافأ البحار خير مكافأة وسار في الرمال حتى توارى عن الانظار .

* * *

٥٨

السير المغتصب

كان بمبو يعرف ضواحي فينيسيا حق العرفان فجعل يسير بطريق معوجة حذراً من ان يراه البحار ويعرف الطريق التي سلكها حتى اذا ايقن انه لم يعد يراه سار في طريق آخر وهو لا يعلم الى اين يسير لشدة ما تولاه من الرعب .

وقد نسي في موقفه الحالي بيانكا وموتها فلم يفتكر الا بنفسه وما يتهدده من الاخطار فلم يكن يتمثل له وجه بيانكا وهي صريعة بل وجه رولاند ولم يكن يسمع كلماتها الاخيرة التي فاضت بها روحها بل كان يسمع ذلك الصوت الهائل الذي اضل صوابه من الرعب ويقول في نفسه :

ـ لا شك ان رولاند سيطاردني ولكن اين له ان يجدني فان ايطاليا متسعة نائية الاطراف فكيف يخطر له اني لجأت الى رومة دون سواها .

وفوق ذلك فلو اني في رومة فاية فائدة له من ان يتبعني اليها وما عساه يريد الا ان يتخلص مني لأني اتبعه في فينيسيا وأنا لا اتبعه ما زلت بعيداً عنها .

ثم أنه لو أراد ان يتبعني لينتقم مني فان روما غير فينيسيا واني اكون فيها قويا فان البابا نفسه يتولى حمايتي .

وقد حاول بهذه المناجاة ان يطمئن نفسه ويأمن خوفه ولكن الرعب كان لا يزال مستولياً عليه لاعتقاده ان رولاند لا بد ان يقفو أثره .

وقد كان أول ما عمله أنه اشترى جواداً نشيطاً وغير ملابسه وسار ينهب الأرض بجواده حتى وصل عند هجوم الليل الى فندق في قرية فريـنزلا ولم يكن يوجـــد غيره في تلك القرية فتمشى في ذلك الفندق ونادى الخادم فقال له :

— أرى ان هذا الفندق لا يتردد عليه كثير من الناس :

قال : نعم يا سيدي وأسفاه فاذا لم يردني من حين الى حين نبيل مثلك لاقفلته من عهد بعيد .

— اذن لا يوجد احد الآن في الفندق .

— لا يوجد سواك يا مولاي .

— حسناً اني أحب ان أقيم هذه الليلة هنا .

— ان الأسرة عندنا على غاية من الاتقان والنظافة .

— هذا كل ما أرجوه فارني هذه الأسرة .

فأخذ صاحب الفندق مصباحه فتبعه الكاردينال الى غرفة صغـيرة لم يكن فيها غير سرير ضيق فقال له الكاردينال :

— لقد اعجبتني هذه الغرفة وسأبيت فيها .

وعند ذلك تركه صاحب الفندق فاضطجع على السرير بملابسه ونام .

وفيما هو بين اليقظة والنوم سمع ضجيجاً في القاعة العمومية فنهض وجعل يصغي فسمع صوت اثنين من المسافرين حتى اذا تبين لهجتهما اصطكت اسنانه من الرعب فنزل عن السرير وجعل يزحف زحفاً الى البـــاب كي لا تسمع خطواته فوصل بعد بضع ثوان خالها اياماً ووضع اذنه على قفل الباب .

وهناك جعل العرق يسيل من وجهه فأخذ يتراجع زاحفاً على ركبتيه الى نافذة كان يعلم انها تشرف على بستان ووثب منها اليه ثم تسلق الجدار وهبط منه الى الارض وهو يقول :

– أني سأسير ماشياً على قدمي إذ لا سبيل للوصول الى جوادي .

وعند ذلك جعل يركض في الحقول وغدارته مشهرة بيده وهو يلتفت الى وراءه من حين الى حين.

وما زال يسير راكضاً حتى اشرق الصباح وقد خارت قواه .

وعند ذلك لقي أحد الرعاة فنفحه بدينار واستدل منه على مدخل القرية ثم ذهب اليها فاشترى جواداً وسار به ينهب الأرض حتى وصل الى آخر قرية قبل رومه فاقام في فندقها وقد عزم على ان يدخل رومه في الليل .

وعند الغروب امتطى جواده وسار في طريق رومه .

* * *

وبعد ربع ساعة من مفارقته هذا الفندق قدم اليه فارسان كان أحدهما يشبه العمالقة بضخامة جثته وعلائم الحزن بادية عليه فدخل ذلك الفندق .

* * *

٥٩

جينارو يدفع دينه

لندع الآن ذينك الفارسين في الفندق ولندع بمبو يسير هارباً الى رومة لنجتمع بامباريا ولنعد باذهان القراء الى تلك الحفلة التي أعدتها امباريا في تلك

الليلة التي كانت ليلة حب وجنون وقبل تلك الليلة التي دفعت الغيرة فيها امباريا الى تسليم بنتها .

ويذكر القراء ان سكالابرينو كان قد اخبر رولاند أنه قتل ساندريجو واغرق امباريا .

وكان اجتماعهما في بيت الجزيرة فأرسل رولاند سكالابرينو الى مكان آخر للبحث عن بمبو بحيث لم يبق في البيت غــير فيليب العجوز فلما جاء جاسوس ارتين للبحث عنه لم يجده .

وقد برح رولاند المنزل وحده وهو قلق البال لاختفاء بيانكا كما انه كان شديد القلق على جوانا بعد ان علم بقتل ساندريجو فأشفق عليها اشفاقاً عظيما وعزم على ان يردها الى منزلها كي يعزيها عما هي فيه .

وكان قد عين لها رقيباً منذ حضورها الى فينيسيا بحيث كان يعلم اين تقيم وقد ذهب منذ الفجر الى منزلها لهذا الغرض .

وفيما هو يسير على الرصيف رأى كثير من الناس مجتمعين ينظرون الى قارب صغير فيه امرأة مبتلة الثياب فنظر الى هذه المرأة فعرف انها امباريا .

فوقف مطرقاً مفكراً وقد ساءه ان الجريمة انتصرت على العقاب وحاول ان ينقض عليها .

ولكنه رجع فجأة عن هذا الفكر فتنهد تنهداً عميقاً وسار مواصلاً سيره .

وعند ذلــك شعر بيد قد لمست كتفه فالتفت فرأى رجلاً فقال له : من أنت ؟

قال : إذا اردت ان تتبعني اخبرتك من أنا .

قال : لا حاجة لذلك إذ عرفتك فأنت جينارو رئيس البوليس وقد نظر رولاند الى مــا حواليه نظرة الحذر ، فقــال له جينارو : ارجو ان تطمئن يا مولاي فانك تذكر الاصوات ما زلت قد عرفتني مرتين من صوتي وأما أنا فاني أذكر الأعمال .

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني انه لا يجب ان تخاف ما زلت مديناً لك .

— أوضح ما تقول .

— لقد التمست منك يا مولاي ان تتبعني فلا يجمل الحديث هنا .

— الى أين تريد ان اتبعك ؟

— الى أي محل شئت بشرط ان لا يسمع حديثنا احد فاذا شئت دخلنا الى هذه الكنيسة .

فنظر رولاند نظرة الفاحص فانحنى جينارو أمامه وقال له :

— أقسم لك بشرفي انه لا يوجد في هذه الكنيسة رقيب او جند ومع ذلك فاذا أحببت ان تسير الى أي مكان غيره تبعتك الى حيث تريد .

قال : إذن لندخل الى هذه الكنيسة .

ودخل الإثنان فجلس كل منهما على كرسي بجانب الآخر وبدأ رولاند الحديث فقال له : اني مصغ اليك .

قال : ابدأ يا سيدي فأقول انه كان بوسعي ان اقبض عليك هذه الليلة في قصر الحظية امباريا ولكنني لم افعل .

قال : بل كان يجب ان تفعل عملاً بواجبات مهنتك .

قال : نعم وكنت واثقاً من الفوز بالرغم عن تلك القوارب التي جمعتها لغرض لم اعلمه .

— أرى انك واقف على حقيقة الامر .

— هذه هي مهنتي يا سيدي .

— إذن لماذا تأخرت ؟

— لأنك عفوت عني فباتت حياتك مقدسة لدي .

فنظر رولاند اليه باندهال فقال له جينارو :

— ان حياتك تبقى مقدسة لديّ الى ان اخدمك خدمة تعادل خدمتك لي .

– أي الى اليوم الذي تنقذني فيه .

– او ما يشبه ذلك من إنقاذ شخص تحبه فوق ما تحب نفسك .

– من هذا الذي تعنيه ؟

– اصبر يا مولاي ودعني في البدء أتمم ما كنت اقوله فقد قلت لك اني لا اقبض عليك ما زلت مديناً لك ولكنني حين أفي هذا الدين لا يكون لي شاغل غير القبض عليك إذ ليس ذلك من واجباتي فقط بل من فائدتي.

فقال له رولاند بلهجة الاستكبار : ومتى تحسب انك تتخلص من قيود الامتنان ؟

– بعد عشرة دقائق يا مولاي .

– أي انك بعد ربع ساعة تحاول القبض عليّ .

– كلا يا مولاي فاني لا احاول شيئاً من هذا قبل ثلاثة ايام فاني أحب ان اكون عادلاً معك حتى إذا لم يوفقني الحظ وفزت عليّ تكون عادلاً معي.

– كن مطمئناً فلست من اهل الظلم .

– أشكرك يا سيدي فلقد قلت لك منذ هنيهة ان مهنتي تقضي بأن اعرف كل شيء وقد تولعت بهذه المهنة ولعاً عظيماً حتى اني لم اقتصر على معرفة ما يعمله المرء بل تجاوزت ذلك الى معرفة ما يفتكر ولذلك ارجو ان ابلغ يوماً الى منصب رئاسة ديوان التفتيش إذا وفقت فينيسيا الى اختيار حاكم ذكي ولكن لندع هذا البحث الآن فأنت تعلم يا سيدي انه منذ قرر لي ان اهتم بك ، أي منذ فرارك من الآبار ونيلك هذه الشهرة العظيمة في فينيسيا ، لم يكن لي همّ إلا ان اعلم ماذا تعمل وماذا تفتكر .

اما اعمالك فقد عرفت منها انك رجل شديد فقد مضى شهور وانت تعبث ببوليسنا وهو احذق بوليس في ايطاليا بل في العالم بأسره .

فاسمح لي يا مولاي ان اظهر لك اعجابي بك في هذا المقام واني اقول لك بأني سأكون اسعد إنسان يوم يذاع باني أنا الذي قبضت عليك .

على اني إذا لم أقف علي كل اعمالك بالتفصيل فقد عرفت ان يدك كانت تدير جميع تلك الحوادث الكبيرة التي حدثت في قصور التياري وامباريا والكاردينال وفي قصر رئيس ديوان التفتيش حتى في قصر الدوج نفسه فقد رأيت فوسكاري من حين الى حين ينظر الى ما حواليه كأنه يخشى ان تنقض يدك الهائلة عليه ورأيت دندولو والتياري يرتجفان رعباً حين يذكر اسمك ورأيت الكاردينال يضطرب خوفاً كورق الخريف ويتأهب للفرار فعلمت عند ذلك شدة هذه الحرب الهائلة التي تثيرها على هؤلاء الأقوياء .

ولقد كان التياري وفوسكاري شبه اخوين وكان بمبو شبه حاكم وكان دندولو لا يشغله إلا إظهار مجده فهوذا دندولو الآن بات سجين بيته وهوذا بمبو يحاول العزلة وهوذا التياري يأتمر على الدوج ، ومن فعل كل ذلك يا مولاي ؟

اني أعرف ذلك الفاعل الذي أثار الرعب في القلوب واوحى بدهائه الى التياري هذه المؤامرة واعلم انه سينقض قريباً على فينيسيا انقضاض الصاعقة ويبلغ منها ما أراد .. إلا إذا ..

وهنا سكت فقال له رولاند : أتم حديثك .

فانحنى جينارو وقال :

— إلا إذا قبضت على رولاند يا مولاي .

فابتسم رولاند وترجم جينارو معنى هذه الابتسامة بقوله : لقد فات الأوان .

وعند ذلك دخل رجل الى الكنيسة فوقف على مسافة بضع خطوات وسعل سعالاً معنوياً يراد به تنبيه الأذهان فالتفت رئيس البوليس وذهب مسرعاً اليه .

فجرد رولاند خنجره وخبأه تحت ردائه وأقام ينتظر .

أما هذا الرجل فانه جعل يكلم جينارو همساً كأنه يقدم له تقريراً حتى إذا أتم حديثه اطلق سراحه بإشارة وعاد الى رولاند وهو يقول في نفسه :

— إذن لقد قتل ساندريجو .. يجب ان اعلم حقيقة السبب في مقتله .

وقد عاد الى مجلسه بجانب رولاند وقال له :

— لا يشغلك يا مولاي اني حدثت هذا الرجل فهو من اعياني وقد جاء يخبرني انهم وجدوا في الترعة جثة رجل تعرفه وقد مات مطعوناً بخنجر فاسمح لي ان أحقق في أمره ثم اعود اليك فانه على الرصيف .

قال : لا حاجة الى إزعاج نفسك بهـــذا الشأن فان القتيل لص يدعى ساندريجو وقد عيّن اخيراً قائداً في الجندرمة مكافأة عن خيانة ارتكبها.

— إذا كنت عارفـــاً بذلك يا سيدي فقد يمكنك ايضاً ان تقول لي اسم المرأة .

— أية إمرأة ؟

— إمرأة وجدت جثتها بجانب جثة ساندريجو .

فاضطرب رولاند اضطراباً عظيماً وخرج لفوره من الكنيسة الى الرصيف فوجد انهم يخرجون جثة امرأة من قارب وقد وضعوها على محمل بجانب جثة ساندريجو .

ففرّق رولاند الناس عن هذا المشهد وأسرع الى تلك المرأة وقد عرفها فجعل يفحص قلبها كأنه لا يزال لديه رجاء حتى إذا أيقن انها ماتت سالت الدموع من عينيه وجعـــل يندب جوانا بأشجى الألفاظ وينعتها بأشرف النعوت والناس من حوله ينظرون اليه فيتوجعون لمصابه ويحترمون حزنه .

وبعد ذلـــك دنا من تلك الجثة فقبّل جبينها والتفت كأنه يبحث عن رئيس البوليس فرآه وذهب اليه فقال له :

— أتريد ان تفي دينك وتخلص من قيود الامتنان ؟

قال : دون شك .

قال : هوذا الفرصة قد دنت فاني كثير الشواغل اليوم وعلي ان اهتم بالاحياء فاذا توليت عني دفن هذه الفتاة أصبحت في حل من قيودك .

ثم أخرج من جيبه قبضة من الذهب ودفعها الى رئيس البوليس لنفقات الدفن .

فأبى جينارو أخذها ولكن رولاند قال له بلهجة الآمر : فأني أنا الذي أردت دفنها وأنا الذي يجب أن أدفع النفقات .

فأخذ جينارو المال وقال : سأنفذ أوامرك وسأدفن هذه الفتاة كما تدفن بنات النبلاء .

ـ اشكرك والآن دعني .

ـ مولاي .

ـ ماذا ؟

ـ اقسم لك ان ما أريد قوله لك يبلغ اقصى درجات الخطورة فهذه فتاة قد ماتت ولكن توجد غيرها يجب انقاذها .

ـ اذن تعال .

وعند ذلك دنا الجاسوس الذي كان قد دخل الى الكنيسة فقال لرئيسه همساً : هل تعرفه ؟

قال : كلا .

فابرقت اسرة الجاسوس بأشعة الفرح وقال : أما أنا فاني أعرفه فهو رولاند كانديانو .

فالتفت جينارو الى جماعة من الجواسيس كانوا يتبعوه على مسافة قصيرة فأشار اليهم ان يدنوا منه وأمرهم ان يقبضوا على الجاسوس قائلاً : انه من المؤتمرين فخذوه وضعوه في محل خفي وراقبوه أشد المراقبة .

فأسرع الجواسيس الى القبض عليه بينما كان يرجو حسن الجزاء .

أما جينارو فانه تبع رولاند الى الكنيسة وهو يقول في نفسه مشيراً الى الجاسوس :

– ويح لك ايها الأبله انك كدت تفسد علي أمري .

ثم دخل الى الكنيسة وجلس بجانب رولاند فقال له :

– لقد قلت لك يا مولاي اني إذا لم أكن واقفاً على جميع اعمالك فاني عالم بجميع مقاصدك واعتقد ان هذه الحادثة الأخيرة أي قتل ساندريجو داخلة في خطتك وان كنت لم أعلم السبب في موت الفتاة .

فاضطرب وجه رولاند حين ذكر جوانا وقال له : امض في حديثك .

قال : ساقول لك النتيجة يا مولاي انك تحوم في جميع اعمالك ونواياك وإرادتك حول امرأة لا اسميها ولكنك تعرفها دون شك .

قال رولاند في نفسه : ليونور .. نعم لا يدفعني الى ما اعمله غير ليونور.

فقال جينارو : واني على اليقين يا مولاي من ان هذه المرأة الشهيرة قد ملكت شغافك فاذا ارشدتك الى طريقة لانقاذ حياتها أكون كأني قد انقذت حياتك.

وقد كان اضطراب رولاند عظيما حين سمع هذا القول اذا ايقن بأن جينارو يعلم ان حياة ليونور في خطر ولكنه قال في نفسه :

– ترى ايجب علي؟ ولماذا انقذها وكيف تستحق مني هذا الاهتمام بعد ان خانتني .. نعم اني قد أغفر لها خيانتها ولكني لا أدافع عنها إذ يجب علي أن أنسى انها في الوجود .

وعند ذلك تنهد تنهداً كاد يمزق صدره وغرس أظافره في باطن كفه وقال في نفسه انها في خطر .. ولكن كيف أنقذها أأنقذت هي أمي وقد كانت في أشد حالات الشقاء .. أحاولت انقاذي وأنا اتعذب في الآبار ..

نعم انها حاولت دون القبض علي في بيت الجزيرة ولكن كل انسان

سواهـا ينقذني لو استطاع . وهي الآن في خطر الا يمكن ان يكون ذلك عقابا لها .

وكان يناجي نفسه بسرعة التصور ويحـــاول ان يقنع نفسه بوجوب التخلي عنها ولكنه شعر فجأة أن قلبه كاد يخرج من صدرة فقال في ضميره :

— ويح لنفسي أني لا أزال أحبها وأنا أرتعد خوفاً عليها مـــع أني لم أعرف الخوف .

وعند ذلك أجاب جينارو بصوت المنكسر قائلاً :

ـ قل ما هذا الخطر الذي يتهدد ابنة دندولو .

قال : حين ذهبت بي يا مولاي الى تلك القبور التي كان يجتمع بهـــا المؤتمرون وسمعت حديثهم بشأن دندولو خطر لي أنهم لا بـد ان يجتمعوا ايضاً بطريقة سرية دون ان يحضر التياري اجتماعهم فذهبت في اليوم التالي واختبأت في أحد القبور فرأيت نحو عشرة منهم قد جاؤا الى محل الاجتماع واتفقوا على قتل دندولو بالسر لأنهم كانوا يخشون أن يبوح بأمرهم .

وبعد أن اتفقوا على ذلك قال واحد منهم : لقد عرفت من ثقة ان ابنة دندولو مقيمة مع أبيها في غرفة واحدة في قصر التياري وأنهـا واقفة على سر مؤامرتنا وانها هددت زوجها بفضح السر .

فأثر هذا القول على الحاضرين واتفقوا في الحال على قتلها وقتل أبيها وعند ذلك نظر إلى وجه رولاند كي يرى تأثير هذا القول عليـه فرأى أن وجهه قد اصفر وأنه قد عض شفتـه كي لا يصيـح حتى أدماها فقال له الرئيس :

ـ أتريد يا مولاي أن تعرف اسم الرجل الذي اختاروه لقتل دندولو ؟

قال : كلا .

قال : واسم الذين عينوه لقتل ابنته .

فاتقدت عينا رولاند وقال : من هو ؟

قال : هو الفتى كريماني وهذا بيان الخطة التي سيجري عليها فان السيدة ليونور تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع في سفينتها .

ـ اني عارف بذلك .

ـ وهي تتنزه في يومين معينين من كل اسبوع فتصل بسفينتها الى جسر التنهدات وهناك تقف هنيهة ثم تعود الى القصر .

وأني عارف بذلك .

ـ اذن فقد تقرر ان كريماني يغتنم هذه الفرصة وهذا كل ما أردت قوله لك يا مولاي فهل نعتبر بعد ذلك اني وفيت ديني ؟

ـ نعم .

فانحنى جينارو وقال : إذن فاعلم يا مولاي أني سأصبر ثلاثة أيام وبعد ذلك يجب أن تحذر مني فأني سأبذل كل جهدي للقبض عليك .

واسمح لي أن انبهك يا مولاي ان هذا اليوم أحد اليومين الذين تتنزه فيهما للسيدة ليونور .

ـ نعم اذكر فاذهب الآن في شأنك فانك خدمتني خدمة توازي خدمتي لك .

فانصرف رئيس البوليس عند ذلك وقد لاحظ القراء انه في كل حديثه معه كان يناديه « مولاي » وأنه لمح له مرة بل مرتين أنه سيغدو في وقت قريب دوجاً وانه يطمع ان ينال في خدمته منصب رياسة ديوان التفتيش ولكن رولاند لم يكن يجيبه بشيء فلما خرج من الكنيسة سار وهو يحدث نفسه فيقول :

ـ نعم لقد وفيته دينه وبات مديناً لي والآن فاني أرى اعمالي سائرة على محور النجاح فاني واقف على سر المؤامرة وجميع المؤتمرين مطمئنون وقد عين الدوج يوم الحفلة وهو ذلك اليوم الذي يضرب المؤتمرون فيه ضربتهم الكبرى .

أما أنا فأني اتخذ احتياطي من الآن الى ذلك اليوم فاذا فشل رولانـد قبضت عليه واذعت سر المؤامرة وكافاني فوسكاري دون شك بتعييني في منصب دندولو وإذا كان الفوز في جـانب رولاند ادع المؤتمرين يخبطون في ظلماتهم واكتم سر رولاند فيكافئني نفس المكافأة .

وعلى الجملة فان الفوز مضمون لي من الجانبين وسواء كان فوسكاري أو رولاند حاكما على فينيسيا فاني سأكون فيها رئيس ديوان التفتيش وهـذا كل ما أرجوه .

ولما خرج من الكنيسة رأى أحد جواسيسه قريباً منها فناداه وقال له:
يوجد رجل في الكنيسة ؟
قال : لقد رأيته .
ــ أعرفته ؟
ــ كلا .
ــ لا يجب ان تعرفه .
ــ إذن ماذا يجب ان أعمل ؟
ــ يجب أن تتبع هذا الرجل كظله فلا تفارقه لحظة وتعود الي في المساء فتخبرني بما فعل .
ــ حسناً يا سيدي .
ــ إذا رأيته يختصم مع أحد أبناء المدينة ...
ــ مع من ؟
ــ مع أحد من أبناء الأعيان كابن كريماتي مثلاً فاذا قتل احد المتخاصمين فلا يبق الى المراقبة لزوم فتعود الي في الحال وتخبرني بما اتفق .

وعند ذلك افترقا فذهب رئيس البوليس في شأنه ووقف الجاسوس قرب باب الكنيسة ينتظر خروج رولاند بذلك الصبر الذي امتاز به الرقباء في كل مكان .

أما رئيس البوليس فانه حين عاد الى منزله وجد فيه رسول الكاردينال بمبو يدعوه الى زيارته وأخبره بالهجوم على منزل مولاه في الليل فقال في نفسه : أرى ان نطاق الحصار أخذ بالتضييق وهو ما قلته لحاكم فينيسيا القادم .

وعند ذلك نزع البرقع الذي كان متنكراً به وذهب الى الكاردينال .

وقد عرف القراء ما كان بين هذين الرجلين فان بمبو كان يحاول ان يخفي مقصده عن رئيس البوليس ويوهمه ان لا نية له على الإطلاق بمبارحة فينيسيا وكذلك جيندارو فانه كان يحاول ان يضغط على افكار الكاردينال كي يفهم منه شيئاً وقد فاز كل بما كان يبغيه فان الكاردينال برح فينيسيا دون ان يعلم به جيندارو .

وكذلك جيندارو فقد وثق ان رولاند قضى قضاءه المبرم على بمبو ولم يشكل عليه غير أمر واحد وهو كيف ان رولاند لم يدخل الكاردينال في سلك هذه المؤامرة الهائلة إلا إذا كان يريد ان ينتقم منه انتقاماً أشد هولاً .

٦٠

جسر التنهدات

خرج رولاند من الكنيسة دون ان يرى ذلك الرقيب الذي وضعه جيندارو لمراقبته على انه لو رآه لما اكترث له فقد كان في حالة من الاضطراب جعلت كل فكره منحصراً في أمر واحد وهو ذلك الخطر الذي يتهدد ليونور .

ولم يكن يذهله إلا انه بينما كان يعتقد انه سلاها ولم تعد تخطر له ببال وجد انه لا يزال يحبها كما كان في عهد خطبته وقد علم لاول مرة ان حبها

كان دفيناً في قلبه وان هذا الخطر احياه وانه إذا كان لا يزال حيا الى الآن على ما اصابه من القنوط فما ذلك إلا لأن ليونور لا تزال في قيد الحياة .

وقد أقام ذلك اليوم تائهاً هائماً في فينسيا لا يعلم الى اين يسير فكان تارة يقف أمام قصر التياري وتارة يرود حول قصر كريماني الى ان غابت الشمس فذهب الى جسر التنهدات وقد وضع برقعاً اسود على وجهه واقام ينتظر في قارب صغير .

وبعد هنيهة رأى قارباً قادماً وليس فيه غير رجل واحد فوقف قرب السجن وكان فيه كريماني .

وبعد ذلـــك بقليل سمع صوت المجاذيف فالتفت وارتعشت اعضاؤه ارتعاشاً ظاهراً إذ رأى ليونور جالسة وحدهـا تحت خيمة السفينة وقـال في نفسه :

— عجباً ما الذي يدفعها الى هذه النزهة المطردة ولـماذا اختارت نزهتها جسر التنهدات ؟

وكان اضطرابه عظيماً لمرآها ولكنه تجلد وضبط نفسه ودفع بقاربه حتى التصق بسفينتها .

أما ليونور فانها رأته وعرفته وكان موقف الاثنين هائلاً عظيماً امتزج فيه الهناء بالخوف واللذة بالاضطراب ولم يستطيعا هذه المرة ايضاً ان يفوها بكلمة بالرغم عن ذلك الحب الذي كان يجذب كلا منهما الى الآخر .

غير ان رولاند بذل جهداً عميقـــاً كي يتمكن من ضبط نفسه فقال لها بصوت متهدج :

— اهربي .. عودي الى قصر .. ومهما حدث فلا تخرجي منه قبل شهر .

ان ليونور سمعت ذلك الصوت فهل فهمت مـا قال ؟ ذلـك غير مرجح ولكن بحار سفينتها أدار مقدمها في الحال الى جهة القصر واندفعت تسير بملء السرعة .

ذلك ان البحار عرف رولاند وسمع ما قاله فنظر اليه نظرة امتزج فيها الخوف بالإمتنان والإشفاق وعاد بسيدته الى القصر .

فلما توارت السفينة عن نظر رولاند تنهد تنهداً خرج من صدره كالانين ثم تقدم بقاربه الى حيث كان قارب كريماني .

أما كريماني فانه رأى سفينة ليونور قد دنت من الجسر ولكنها بدلاً من ان تتقدم بها الى حيث كانت ترسو عادة عادت بها ادراجها مسرعة فقال في نفسه : لم يبق سبيل لقتلها هذه الليلة ولا بد من تأجيله الى يوم آخر .

وعند ذلك رأى قارب رولاند قد التصق بقاربه وان فيه رجلاً لا يعرفه فأوجس منه شراً وقال له :

ـ اذهب من هنا ولا تقف بجانبي .

أما رولاند فانه ابتسم واجابه قائلاً :

ـ فينيسيا وسانت مارك .

وكانت هذه الجملة جملة التعارف بين المؤتمرين فاطمأن كريماني وصعد رولاند الى قارب الفتى ورفس قاربه برجله فاندفع كما تشاء الامواج ثم جلس بجانب كريماني وقال له بملء السكينة :

ـ تفضل واجلس يا سيدي فاني قادم اليك لأحدثك .

فجلس كريماني وهو آمن مطمئن لاعتقاده انه يحادث شريكاً له بالمؤامرة وقال له :

ـ من انت يا سيدي ؟

فانتزع رولاند برقعه وجعل ينظر اليه .

أما كريماني فانه ذعر ذعراً عظيماً لأنه لم يعرف هذا الرجل ولم يره مرة بين المؤتمرين ولكنه ما لبث ان اطمأن إذ اعتقد بأن احد الزعماء ارسله اليه وقال له :

ـ اني تمعنت في وجهك يا سيدي فوجدت اني لا أعرفك ومع ذلك فقد قلت جملة .. وهي تبرهن لي انك من المؤتمرين .

فانحنى كريماني ولم يجب فقال له رولاند :

ـ كلا يا سيدي اني لست من المؤتمرين أي لست منــكم وإذا كنت قد لفظت جملة السر فما ذلك إلا لأني كنت اريد الوصول اليك بسهولة لأني اريد ان احدثك .

فاصفر وجه كريماني وشتم شتماً قبيحاً وجرّد خنجره .

ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند قبض على يده وضغط عليها ضغطاً عنيفاً حتى صاح الفتى صيحة ألم وسقط الخنجر من يده فالتقط رولاند الخنجر ورده اليه .

أما كريماني فانه أخذ الخنجر وقد ظهر الاندهال العظيم في عينيه فقال له : إذن ماذا تريد ؟

قــال : اصغ لي بسكينة تعلم ماذا اريد واجلس فان وقوفك في القارب يفسد موازنته فينقلب .

فامتثل كريماني وقال : اني مصغ اليك .

قال : أرى يا سيدي انك لا تعرفني ولا بد من التعارف بيننا اتذكر اننا كنا في حفلة الحظية امباريا حين أهنت الشاعر ارتين فقبض عليك احد الخدم وألقاك خارج القصر ؟

فاصطكت اسنان كريماني من هذه الذكرى وقال له رولاند :

ـ أرى انــك تذكر هذه الحادثة فانك حاولت بعدهــا ثلاث مرات ان تنتقم من هذا الشاعر المسكين لاعتقادك انه اهانك بتلك الاهانة وفي كل مرة كان يحبط مسعاك .

فجعل كريماني ينظر اليــه نظرات الإندهــال ومضى رولاند في حديثه فقال :

ـ أنا هو الذي كنت أحول دون انتقامك فاني كنت اكره ان يظلم الشاعر وإنما أقول يظلم لأنك لم تطرد من حفلة امباريا بأمره بل بأمرنا .

ـ من أنت ؟

ـ سوف تعلم فقل لي الآن ألم يكن أبوك الشيخ كريماني احـــد اعضاء مجلس العشرة سنة ١٥٠٩ ثم ألم يكن احد هؤلاء الذين حكموا على الدوج كانديانو بثمل عينيه ؟

اني أخبرك بأمر تجهله فان كانديانو بعـــد ان أعموه تركوه يتجول في الأسواق مستعطياً وانت ابن احد الذين حكموا عليه اعلم اني أنا ولده .

ـ رولاند كانديانو ؟

ـ نعم أنا هو فـان أباك ارتكب دناءة لا يرتكبها من تجول في عروقه دماء إنسان لأنه كان يعلم ان أبي لا ذنب له وإنما فعل ذلك ارضاء للمؤتمرين على أبي ليضمن مركزه ويضمن مستقبلك فبينما كنت انت تتجول متنزهاً في كل مكان فسيح كنت أنا سجيناً في الآبار المظلمة العميقة على ان البنين لا يجب ان يؤاخذوا بذنوب آبائهم وإنما ذكرت لك حكايتي معكم كي تعلم انه يحق لي ان احول بينك وبين التي تحاول قتلها .

فارتعش كريماني وقد علم ما سمعه ان رولاند حاقد عليه حقداً عظيماً وانه عارف بسر المؤامرة .

وكان شجاع القلب ثابت الجنان فخطر له ان يقتل رولاند بضربة دون ان يدع له وقتاً للدفاع فقال له بملء السكينة :

ـ انك أردت ان تكلمني يا سيدي وقد رأيت اني أصغيت اليك كل الإصغاء فاذا أردت فافصح الآن عما تريد مني .

قال : اني أتيت اليك لأخيّرك بين الموت والحيـاة فاذا أردت ان تحيا اقترحت عليك ان تغادر فينيسيا الآن فلا تعود اليها إلا بعد شهر .

فأجابه كريماني بلهجة المتهكم قائلاً :

ـ ولكن أتسمح لي ان أبرح فينيسيا في حين اني مضطر الى الإقامة فيها ؟

ـ ذلك لأنه لا يجب ان تكون سافلاً كأبيك فترتكب جريمة افظع من جريمته ويجب ان تعلم انه لا فرق عندي بين ان لصاً او سفاكاً او خائناً فكن كيف شئت بشرط ان لا اجدك في طريقي .

وكان كريماني يسمع حديثه وهو يتأهب لاغتياله فقال له :

ـ من أنبأك اني أريد ان اكون لصاً سفاكاً خائناً ؟

ـ إذا لم يكن ذلك فماذا تصنع هنا ألست كامناً لتلك الفتاة لتفتك بها واني على شدة كرهي لأبيك اشفق على شبابك ومستقبلك ويسوءني ان أراك كامناً لإمرأة تريد ان تقتلها وهي دون دفاع فاذهب يا كريماني واني أعاهدك على نسياني كل ما كان من أبيك وكل ما بدر منك بشرط ان تقسم لي بأنك تبرح فينيسيا منذ الليلة وتعود اليها بعد شهر .

فأجابه كريماني بضحك عصبي ثم وقف فجأة وطرح رداءه فاهتز القارب اهتزازاً عنيفاً وسقط كريماني الى الترعة فشعر بأن يداً من حديد قد ضغطت على عنقه .

وذلك ان رولاند كان يراقب كل حركاته وقد ادرك قصده فلما وقف كريماني يحاول الهجوم عليه وقف هو ايضاً دون ان يكترث لحفظ توازن القارب وسقط كريماني الى الماء فسقط رولاند في أثره وقبض بيده القوية على عنقه ولم تكن غير لحظة حتى توارى الاثنان في الماء .

وبعد هنيهة ظهر رولاند وحده على سطح الماء فتوكأ على القارب واقام ينتظر حتى إذا مضت عدة دقائق ظهر كريماني على مسافة عشرين ذراعاً وهو جثة هامدة لا حراك فيها .

٦١

المطاردة

وعند ذلك خرج رولاند من الترعة دون ان يندم على قتل كريماني وسار الى بيت الجزيرة وقبل ان يصل اليهـا لقي سكالابرينو فقال له : مـا وراءك من الأخبار ؟

قال : أسوأها .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك انه ليس لدينا انبـاء وهذا الذي يدعوني الى القنوط من لقاء جيبو وبيانكا .

ـ لا بأس فاذا لم يكن لدينا ما نعمله في فينيسيا فلنذهب الى الضواحي فاني ارجو ان اهتدي الى المكان الذي لجأ اليه الكاردينال وسنضع الرقباء حول قصره ونذهب الى الضواحي فنبحث عنه وقد أرسلت نحو مائتي فارس في أثره فاذا لم نعثر به فلا بد ان يجدوه .

وعند ذلك وصلا الى المنزل فرأى رولاند الجاسوس الذي كان أقامه في خدمة الشاعر ارتين فقال في نفسه :

ـ ترى ماذا حدث عند ارتين ؟

ثم دنا من الخادم وسأله عن السبب في قدومه فقال له :

ـ ان السيد ارتين يا مولاي حاول ان يرسلني الى تريفيزا .

ـ لماذا ؟

ـ ليبعدني دون شك فقد رأيت الكاردينال عنده .

فصاح رولاند وسكالابرينو قائلين :

— بيبو ؟

قال : نعم فانا الذي ادخلته .

فقال سكالابرينو : هلم يا مولاي المسرع .

فقال الخادم: تمهل الى أن تسمع كل حديثي فان الكاردينال جاء وكانت تصحبه امرأة وفتاة .

فنظر كل من رولاند وسكالابرينو الى الآخر نظرة سرور واندفعا الى خارج المنزل دون ان ينتظرا سماع تتمة اقوال الخادم حتى بلغا الشاطىء فركبا قاربا وسارا به .

وكان سكالابرينوا ساكتا لا يتكلم ولكن علائم الاضطراب الشديد كانت بادية في عينيه .

فادرك رولاند سبب اضطرابه فقال له :

— اني أعرف بيانكا حق العرفان فثق انها كانت أقوى من بيبو .

قال : ولكن قلبي يخفق خفوقاً عظيما ويحدثني بمصاب أليم فعسى ان نصل قبل فوات الأوان .

وبعد هنيهة وصلا الى منزل ارتين وطرقا بابه فلم يفتح لهما أحد .

فكررا الطرق مراراً وكانا يسمعان وقع اقدام الخدم وصوت ذهابهم وايابهم مما يدل على فرط اضطرابهم فان ارتين كان لا يزال معتقداً أن امباريا سترسل له من يقتله .

فلما رأى رولاند ما كان من ترددهم في فتح الباب صاح بملء صوته مناديا أرتين فسمع ارتين الصوت وعرف أنه صوت رولاند فأمر خدمه ان يسرعوا بفتح الباب وسار معهم فلما دخل رولاند قال له : أرتين أهـذا أنت أيها الرئيس ؟

فأجابه رولاند بصوت ارتجت له اعضاؤه قائلا :

ـ اين بمبو؟

فتلعثم لسانه وقال :

ـ بمبو .. الكردينال .. ولكن ..

ـ ويحك قل اين هو أو انتزعت انيابك من فمك وعذبتك عذاباً لا يخطر في بال الابالسة.

فارتعد ارتين خوفاً وقال: تعال وشهد الله اني اخفيتها عندي ولم يخطر لي ان ذلك يغضبك .

ثم سار مسرعاً ورولاند وسكالابرينو في أثره الى أن أوصلهما الى الغرفة التي كانت فيها بيانكا فحاول سكالابرينو فتحها فوجدها مقفلة فدفع الباب بكفه فتحطم ودخل الاثنان الى تلك الغرفة .

وقد عرف القراء ما لقياه في تلك الساعة الهائلة وقد نظر رولاند الى النافذة فوجدها مفتوحة وعلم أنه فر .

وعند ذلك سمع انين سكالابرينو فالتفت اليه فلقي بيانكا ملقاة على الارض وسكالابرينو راكع أمامها لا يجسر أن يقول كلمة بل أن صوته قد اختنق في حلقه .

فاسرع رولاند ونظر الى بيانكا فاذا هي قتيلة فضم قبضتيه ورفع نظره الى العلى كأنه يتهدد القدر ثم سالت دمعتان من عينيه .

وعند ذلك لمس سكالابرينو بلطف فالتفت سكالابرينو اليه وقال :

انها لم تمت اليس كذلك.. مولاي قل لي انها لم تمت .. بيانكا .. ابنتي .. الا تسمعينني .. هــذا أنا .. أبوك نعم أنا هو أبوك فانظري الي وافتحي عينيك فقط فاذا رأيت اني غير جدير أن أكون أباك انصرفت عنك ولكن افتحي عينيك.

فهز رولاند كتف ذلك الاب المنكود وقال له : قف ايها الصديق .. قف ايها الأخ .

ـ انها ميتة فلم يبق لي الا أن أموت بقربها .

ـ بل انك تعيش .

ـ أية فائدة لي من الحياة ؟

ـ فائدة الانتقام لها .

ـ الانتقام لها ؟

وقد اتقدت عيناه ببارق هائل ولكن هذا البارق ما لبث ان انطفأ فقال رولاند :

ـ نعم يجب ان نظفر بهذا الشقي الذي قتل بنتك ونجزيه موتاً بموت وعذاباً بعذاب .. تعال .

ثم أخذ سكالابرينو بيده وسار به وهو يتبعه دون مقاومة كالاطفال فقال له :

ـ أتريد أن ينجو بمبو من ايدينا وإذا كنا تأخرنا عن إنقاذ بنتك أتريد أن نتأخر عن الانتقام ؟

فضم سكالابرينو قبضتيه بشكل هائل واندفع وهو لا يعي الى خارج القصر مع رولاند .

* * *

عندما كان سكالابرينو خارج القصر ذهب عنه ذلك الذهول الذي كان يتولاه فغضب غضباً عظيماً وجعل يعاتب الاقدار بكلام لا يفهم وحاول ان يعود الى بيانكا ليراها مرة أخرى ولكن رولاند منعه وسار معه الى جهة النافذة التي نجا بمبو منها فرآها تطل على شارع ضيق يشرف على الترعة وكان الظلام قد اقبل واصطفت القوارب فالتصق بعضها ببعض عند الشاطىء فسار رولاند على الرصيف وهو يراقبها فوجد مكاناً فارغاً بينها وايقن أنه هرب فوثب الى قارب مجاور كان فيه بحار فجرد خنجره وقال :

ـ اني مخيرك بين طعنة خنجر تبعث بروحك الى الابدية وبين مائة ريال تقبضها للفور .

قال : إني أوثر المال دون شك .

ـ قال : إذن اصدقني في المقال فمتى برح القارب الذي كان مجاور قاربك موضعه .

ـ منذ عشر دقائق .

ـ من الذي سافر فيه ؟

ـ رجل بملابس الفرسان وعليه وشاح أسود .

ـ من اين أتى هذا الرجل ؟

ـ من هنا وقد أشار الى قصر ارتين .

ـ أكانت تبدو على الرجل علائم السكينة ؟

ـ بل كان كالخنزير البري الذي يطاردونه فأنه كان يلتفت في كل لحظة الى ورائه كأنما جمع جواسيس فينيسيا في أثره .

ـ الى اين ذهب به القارب ؟

ـ الى البحيرات .

ـ هل تستطيع إدراكه ؟

فنادى رولاند سكالابرينو وسأله ان يصعد الى القارب وأمر البحار ان يسير .

وقد جلس بجانب سكالابرينو وجعل يعزيه أجمل عزاء .

وبعد هنيهة تبين لهم البر فقال رولاند : عجباً كيف لم نعثر بالقارب وهو لم يبتعد عنا إلا بعشر دقائق كما تقول .

ـ ذلك لان البحيرات عريضة يا سيدي فقد يكون سار بغير الطريق التي نسير فيها .. ولكن كلا .. انظر .

ـ اسكت فقد نظرت .

وقد نظر رولاند على مسافة بعيدة نور أحمر عند الشاطىء فأمر البحار بالاسراع حتى وصلوا الى ذلك الشاطىء فوثب رولاند الى البر ووجد هناك ثلاثة من البحارة فقال لهم بلهجة الآمر .

ماذا تصنعون هنا ؟

فأجابه أحدهم أننا بحارة ننتظر انقلاب الهوا لترجع الى فينيسيا .

— وماذا جرى لهذا الرجل الذي جئتم به أي ذلك الرجل الذي كان يلبس ملابس فرسان وعليه وشاح اسود ؟

فتشاور البحارة بالنظر ورأوا انهم لا يستطيعون المقاومة فأجابه صاحب السفينة قائلا :

— ان هذا الرجل دفع لنا مكافأة حسنة لنجتاز به البحيرات ولكنه لم ينقدنا شيئاً من اجل سكوتنا .

فأخرج رولاند من جيبه ديناراً فالقاه اليه وقال له : أما انا فاني ادفع لمن يتكلم فقل اين ذهب الرجل .

— انه ذهب من هذا الطريق القديم .

— متى ؟

— منذ خمسة دقائق .

— أعرفته ؟

— كلا يا سيدي .

فعلم رولاند ان هذا كل ما يعلمه البحارة فنادى البحار الذي جاء به وقال له :

— هل تستطيع ان تأتيني بمعدات الكتابة؟

قال : نعم يوجد ورق وحبر في القارب .

فعاد رولاند الى القارب فكتب رسالة ثم طواها دون ان يستطيع ختمها لعدم وجود شمع وقال للبحار :

ـ هل تعرف القراءة ؟

فهز البحار رأسه وقال : كلا وأسفاه .

فاطمأن بال رولاند من انه لا يفهم معنى الرسالة وقال له :

ـ اني كتبت هذه الرسالة لأني لا اعود الى فينيسيا وقد وعدتك بمائة ريال وفي هذه الرسالة التي كتبتها حوالة بالقيمة فتذهب بها الى قصر ارتين وتعطيه إياها فيدفع لك المال أتعرف ارتين الشاعر ؟

ـ نعم أعرفه فقد طالما نظم اشعاره في قـــاربي وأنا لم اضع معدات الكتابة في قاربي إلا من أجله .

قال : حسناً فاسرع الآن بالذهاب .

فامتثل البحار وانصرف وعاد رولاند الى البحارة الذين أتوا بيمبو وفهم منهم ما أراد ان يفهمه ثم أخذ بيد سكالابرينو وسار في طريق بمبو .

أما ما كتبه رولاند الى ارتين فسيقف عليه القراء في حينه .

أما رولاند وسكالابرينو فما زالا يتعقبان الكاردينال وهما كل ما بلغا الى قرية يعلمان انه قد سبقهما بزمن وجيز حتى بلغـــا الى آخر قرية قبل رومة وعلما انه يتقدمهما منذ ربع ساعة فسارا لفورهما فدخلا الى تلك العاصمة في الساعة التاسعة من المساء .

وقد ذهبا الى أحد فنادقها فلما اختليا فيه قال سكالابرينو: أتعلم يا مولاي ان هذا السفاك يستحق مثل ذلك العقاب الذي اخترعه الشاعر دانتي ؟

فقال له رولاند : ان دانتي نفسه يذعر لهول العقاب الذي اعددته لهذا الكاردينال .

فتنهد سكالابرينو وقال له وهو يضم قبضتيه :

ـ لا أظن انه يوجد عقاب في الارض ينطبق على جرائمـــه فهو الذي أعمى أباك وجعله يتسوّل في الطرقات وهو الذي قتل أمك يأساً وهو الذي سجنك ستة أعوام في أعمق الآبار وهو الذي طارد ابنتي كما يطارد النمر الإبل وسفك دمها الطاهر وقد قبضت عليه فهو سيموت الليلة بيدي .

فقال له رولاند : كلا فان هـــذا الرجل لا يجب ان يموت موتاً عادياً ويجب ان أعاقبه عقاباً وحشياً ينطبق على نفسه الوحشية .

— وما هذا العقاب ؟

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وقال له :

— انتظرني هنا ساعة او ساعتين واستأجر مركبة قوية مستعدة للسفر .

فأحنى سكالابرينو رأسه اشارة للامتثال والتف رولاند بردائه وبرح الفندق .

٦٢

انذار القاتل بالقتل

لما برح رولاند الفندق سار في أول طريق رآهـــا كأنه لا يريد مكاناً معيناً .

وكان رولاند يعرف رومة حق العرفان إذ جـاء اليها منذ تسعة اعوام سفيراً من لدن مجلس العشرة الى البابا فكانت امباريا يومئذ في رومة وقـد عرفته منذ ذلك العهد في قصرها وولعت به ذلك الولوع الذي قضى عليهـا بمهاجرة رومة الى فينيسيا .

وفيما هو سائر لقي جماعة من الفتيان واقفين في وسط الطريق فدنا منهم وقال لهم بظرف :

— أتأذنون أيها الأسياد لرجلٍ غريب ان يسألكم إذا كانت امباريا الشهيرة بجمالها قد عادت الى رومة .

فأجابه أحدثهم سناً وكانت الخمرة قد دارت في رأسه : أتسأل عن امباريا المقدسة والناس لا يتحدثون بغير حديثها فمن أين انت قادم ؟

— إذن امباريا في رومة ؟

ـ ونحن ذاهبون الآن الى الحفلة التي تعدها الليلة .

فشكرهم رولانـد وانصرف فذهب تواً الى قصر امباريا فاختلط بين جماهير المدعوين واقـــام هناك ساعة ثم عـاد الى الفندق الذي ترك فيه سكالابرينو فوجده واقفاً عند الباب فقال له :

ـ أوجدت المركبة ؟

قال : نعم وهذه هي .

قال : حسناً فتمال معي الآن .

فسار سكالابرينو معـه حتى اذا اقتربا من قصر امباريا سارا في شارع ضيق وراء القصر ووقفا عند باب واطىء كان فيه رجل ينتظر فقـــال له رولاند :

ـ ألا تزال على عزمك ؟

قال : نعم يا مولاي ما زلنا متفقين على القيمة .

قال : نعم وهي الف ريال .

ـ وسأقبضها في فينيسيا .

ـ إذن ستوصلنا ثم تعود الى المركبة فتنتظرنا فيها ؟

ـ حسناً فتفضلا .

وكان هذا الرجل أحد الخدم في قصر امباريا فصعد سلماً وتبعه رولاند وسكالابرينو حتى انتهوا منه الى رواق طويل ثم نزلوا على سلم صغير دخلوا منه الى غرفة كان فيها مصباح يضيء .

وكان لهذه الغرفة ثلاثة ابواب فقال الخادم لرولاند :

ـ هذا الباب الذي من الجهة اليمنى يشرف على قصر امباريا والباب الأيسر يشرف على أحد القاعات أما الباب الثالث فهو الذي دخلنا منه .

قال : حسناً فاذهب الآن الى المركبة وانتظرنا فيها .

فانصرف الخادم واطفأ رولاند المصباح .

ولم يكونا يسمعان حساً من الجهة اليسرى أما من الجهة اليمنى فقد كان رولاند يسمع صوت امباريا تودع زائريها .

ثم ساد السكوت فقال سكالابرينو لرولاند : أدنا الوقت ؟

قال : كلا فاصبر .

وعـــاد الإثنان الى الإصغاء فسمع سكالابرينو عند ذلك صوتاً ارتعش وجعل العرق البارد ينصب من جبينه وقال : ألعلي حالم ؟

فقال له رولاند بصوت هامس : ماذا ؟

قال : هذا الصوت .

قال : صوت امباريا فقد توهمت انك اغرقتها ولكنها لا تزال حية تسعى .

ــ كلا كلا بل اني حالم .

فوضع رولاند يده على فم سكالابرينو وقال له : اسكت وانتظر .

***

لقد عرف القراء ان امباريا حين وصولها الى رومة ذهبت الى قصرها وجعلت تعد معدات الحفلة الشائقة بمناسبة عودتها الى رومة .

وقد عرفوا ايضاً انه بعد ان انصرف جميع المدعوين بقي رجل فرد في القاعة فكشف البرقع عن وجهه وعرفت انه الكاردينال بمبو .

وقد اضطربت اضطراباً عظيماً لمرآه إذ كانت تعتقد انهـــا بهربها من فينيسيا تركت وراءها كل ماضيها الهائل .

ولكنها ملكت نفسها وقالت له :

ــ ماذا أتيت تعمل هنا وأية علاقة بقيت بيني وبينك ؟

فأجابها بسكينة رجف لها قلب الحظية قائلا :

ــ ابنتك يا سيدتي .

ــ ابنتي ؟

ـ قد كنت أحسب انه يسرك ان تعلمي ما جرى لإبنتك فأتيت خصيصاً لأخبرك بأنبائها .

وكان يقول هذا القول بلهجة المتهكم فقالت له :

ـ ولكنك تعلم انها لم تعد ابنتي فقد كانت مثال الفضيلة وكانت فضيلتها هذه تؤنبني والله يعلم اني كنت أحبها ولكن لمـــاذا لم تكن تنظر إليّ إلا نظرات الإحتقار ؟

فقال لها : بل لماذا كانت تحب نفس الرجل الذي تحبينه ؟

فوقفت امباريا وقالت له :

ـ اسكت ولا تقل كلمة عن هذا الرجل .

قال : ان من يسمعك يحسب انك خفت .

ـ سواء كان ذلك عن خوف او عن سواه فلا تذكره أمامي وقل ماذا تريد ان تخبرني .

فانتبه الى ما ظهر من اضطرابها حين ذكر رولاند فقال لها :

ـ ارجعي يا سيدتي بذكراك الى تلك الحفلة التي اعددتها في فينيسيا حين قلت لي ان بيانكا قد هربت فاتبعها في طريق مستتر .

قالت : نعم فماذا جرى ؟

قال : اني لقيتها في تلك الطريق وحملتها على الرجوع معي الى فينيسيا وعند ذلك ..

فقالت له ببرود : وعند ذلك ؟

قال : طعنت نفسها بخنجر أمامي فكانت الطعنة القاضية .

ومن غريب شراسة هذا الرجل الكاسر انه حمل الى أم نبأ قتل بنتها كما ينقلون الأنباء العادية دون ان يختلج له قلب او يضطرب له لسان .

بل الأغرب من ذلك ان امباريا تلقت هذا النبـــأ دون ان يظهر عليهـــا شيء من التأثير سوى انها اصفرت قليلاً وقالت :

— إذن لقد ماتت بيانكا ؟

قال : نعم ماتت .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين ربما عاد فيه الى ذلك القلب الوحشي شيء من عواطف الأمومة ولكنها لم تلبث ان قاومت هذه العاطفة فقالت :

— ربما كان ذلك خيراً لها .

وقد كان هذا كل ما رثت به بنتها تلك الفتاة التي قتلت نفسها لإنقاذ أمها .

وعند ذلك قال لها بمبو :

— والآن أرى يا سيدتي انه يجب ان نتفق فان لديَّ كثيراً من المشروعات أريد عرضها عليك وستوافقين عليها دون شك اذا اردت ان تحفظي مكانتك في رومة و ..

فقاطعته امباريا بملء العظمة قائلة :

— كفى إنذاراً فقد مضى زمن الوعيد ولم أعد أخافك بعد مغادرتي فينيسيا .

— ولكني ما أتيت لأخيفك وفي كل حال فقد خيِّل لي انك نسيت الجريمة التي أوثقت عرى الاتفاق بيننا بل نسيت اتفاقاً على الدفاع ومن الذي يحميك سواي ؟

— ممن تريد ان تحميني ؟

— انك تعرفين اسمه فلا حاجة الى ذكره ومن يعلم فانه قد يأتي يوماً الى رومة .

— اسكت .. اسكت .

— بل ان رولاند كانديانو الذي القيته في ظلمة الآبار قد يطاردك ليشفي غليله من الانتقام وقد يكون في رومة بل قد يكون الآن هنا في هذا القصر.. ولكن ما أصابك ؟

ذلك ان امباريا ارتعشت حدقتاها وجمدت عيناها من الرعب ولم تكن تنظر الى بمبو بل كانت تنظر الى جهة لا ينظر اليها الكاردينال فالتفت الى تلك الجهة مقتدياً بها فرأى رولاند كانديانو .

وقد رعب الكاردينال رعباً لا يوصف وقد بذل جهداً عنيفاً كي يحاول النهوض ليهرب فلم يستطع .

أما رولاند فانه كان يتقدم ببطء فدنا من امباريا كأنه لا يرى الكاردينال حتى خيِّل لذلك الرجل ان رولاند غير قادم اليه ودخل قلبه شيء من الرجاء .

ولكنه لم يلبث ان ارتعش ارتعاشاً عظيماً فان يد هائلة قبضت على كتفه فالتفت فرأى سكالابرينو فسقط على الارض لرعبه وأوثق سكالابرينو يديه ورجليه ووضع كامة في فمه دون ان يبدي شيئاً من المقاومة .

وعند ذلك حمله وخرج به .

أما امباريا فقد رأت كل ذلك وأصيبت برعب لا تصفه الاقلام ثم تمعنت بوجه رولاند فرأت عليه علائم الكآبة لا علائم القسوة والانتقام فابتسمت ابتساماً مغتصباً وقالت :

ــ لا أنكر اني خفت في البدء .. وستضحك مني فقد توهمت انك تريد الإساءة إليّ .. أليس كذلك ؟ نعم فانك لا تسيء الى امرأة .. وانك رجل عظيم القلب كريم الأخلاق لا تقتل إمرأة لا تستطيع الدفاع .

فقال لها رولاند :

ــ سيدتي انك ستموتين .

فتراجعت امباريا مذعورة واضطربت عيناها كأنها قد أصيبت بالجنون فقالت :

ــ أموت .. لماذا .. لماذا يجب ان اموت ؟

فوضع رولاند زجاجة صغيرة على المائدة وقال لها :

– اني احضرت سماً يقتل للفور دون اوجاع فانك قتلت دافيليا وليس ذلك من شأني ولكنك قتلت ابنتك فيجب ان تموتي .

فاصتكت اسنانها وقالت :

– أنا اموت حين ارى الحيـاة تبسم لي الطف ابتسام انـك لا شك من المجانين .

– ان الحياة كانت تبسم ايضاً لليونور التي قضيت على سعادتها ولبيانكا التي سفكت دمها ولي الذي قضيت عليّ بالشقاء الأبدي ألا ترين ان الارض قد ضجت من جرائمك وان في حيـاتك موت جميع الذين يقربون منـك .. تأهبي للموت فلا أمهلك غير دقيقة .

فنتفت شعرها من اليأس وقالت :

– كلا لا أريد ان اموت .. اقتلني إذا شئت .. اقتلني إذا استطعت .

وعند ذلك دخل سكالابرينو فزادها منظره ذعراً على ذعر وقالت :

– إنكـا من القتلة السفاكين .. ولكن لا تحسبا اني أموت دفـاع .. الى .. الى ..

غير ان رولاند أسرع للقبض عليها فجرها الى المائـدة التي كانت عليها الزجاجة وقال :

– اختاري بين ان تنتحري بشرب السم وبين ان تموتي بسيف الجـلاد في فينيسيا .

– الجلاد ؟

– نعم فاني لا أعلم من الذي وشى بك فاني حين برحت فينيسيا كانت الحكومة عينت جائزة ألف ريال لمن يهدي مجلس العشرة الى المحظية امباريا قاتلة دافيليا .

– الجلاد .. الجلاد .. كلا .. كلا .. اني أوثر الانتحار .

نعم اني انتحر ولكن دعني أعيش ساعة بعد .

— يوجد مركبة تنتظرنا عند الباب فـاذا أحببت أن تعيش شهراً ايضاً فتعالي .

— كلا كلا رولاند اعف عني.. رولاند أذكر اني أحببتك .. رولاند اني لا أزال أحبك.

وهنا جعلت تتأوه وتتنهد وتقول اقوالا تحـــنن القلوب القاسية بحيث اضطرب وجه رولاند وربما كان يحاول العفو عنها .

غير أن سكالابرينو كان يراقبه وقد أدرك ما يجول في نفسه .

فلما رأى امباريا قد ركعت أمام رولاند وبسطت يديها له تتوسل وتطلب العفو أسرع سكالابرينو فأخذ زجاجـــة السم عن المائدة ووثب الى امباريا فقبض على شعرها وألقى رأسها الى الوراء .

وبينما كانت امباريا تفتح فمها لتستغيث صب سكالابرينو السم في فمها . وكان ذلك السم هائلاً فانه لم يلبث أن يبلغ الى جوفهـا حتى اضطربت اضطراباً عظيماً ثم سكنت ولم تعد تتحرك فكان سكونها سكوت الموت .

وعند ذلك مسح سكالابرينو العرق عن وجهه المضطرب وقال :

هلم بنا الآن الى الآخر .

٦٣

رسالة رولاند الى ارتين

حضر رولاند هذا القتل الذريع دون أن تبدو منه إشارة تـدل على الرغبة بالمداخلة.

ولكنه حين رأى امباريا راكعة تتوسل اليه مرت على قلبـــه الرقيق

عاطفة الاشفاق ولو لم يدرك سكالابرينو قصده وأسرع الى اعدامها لكان عفا عنها .

أما سكالابرينو فان من ذكر ماضيه وعرف انه عاش كل شبابه دون أن يدرك معنى الحنو ثم ملا حنوه على بيانكا فجاءة فراغ قلبه كما تملأ أشعة الشمس الأناء الفارغ فلما أحبها هذا الحب ورأى ان امباريا قد سلمتها تسليما الى بيبو . أن من عرف ذلك لا ينكر عليه قتل تلك المرأة بل يعد عمله قضاء عادلاً .

على اننا لسنا في حاجة الى تبرئة ابطال هذه الرواية أو إلى لومهم فاننا نقص ما حدث لهم وهذا الذي حدث فليحكم عليهم القارىء بما يشاء .

أما امباريا فقد ماتت في تلك القاعة التي كان يحدق فيها عشاقها بها منذ ساعة .

وقد وجدوها في اليوم التالي ميتة في نفس ذلك المكان فاحتفل بها أهل رومة احتفالاً عظيما ولبس بعض الفتيان عليها ملابس الحداد ونصبوا لها تمثالاً في محل عمومي .

أما رولاند فانه برح تلك القاعة لفوره يتبعه سكالابرينو الى تلك المركبة التي نقل اليها بيبو .

فصعد رولاند الى المركبة وأقام فيها بجانب الكردينال وهو موثق اليدين والرجلين مكموم الفم وصعد سكالابرينو الى جانب السائق وخرجت تلك المركبة بهم من رومة تنهب الارض وتسير في طريق فلورنسا وفيفيسيا .

أما بيبو فانه حين حمله سكالابرينا الى المركبة ذعر ذعراً شديداً وقال : لقد دنت ساعتي الأخيرة وقد اغمي عليه في المركبة .

فلما عاد اليه رشده وشعر أن تلك المركبة المقفلة تسير به ذهل في البدء لوجوده في سجن متحرك ثم لما رأى انهم لا يسيئون اليه أخذت السكينة تعود الى نفسه تباعاً .

غير أنه كان مضطرباً حائراً إذ لم يكن يعلم الى اين يذهبون به ولكنه كان يرى هذا الرجل الجالس بجانبه وهو رولاند لا يظهر أنه يريد به سوء .

وقد تمعن به ملياً وفحصه فحصاً دقيقاً فانتهى بقوله :

ـ ان هـذا الرجل يستحيل ان يكون يريـــد قتلي ولكن ما عساه يريد مني ؟

وعند ذلك عاودته ذكرى المغارى ولكني قد اوفق الى الخروج منها في هذه المرة كما توفقت في المرة الأولى .

وقد مضت الليلة الأولى دون ان يفوه الكردينال بكلمة .

وكانوا قد نزعوا الكمامة عن فمه حين اغمائه حتى انهم فكوا قيود يديه ورجليه ففحص بمبو بالنظر بابي المركبة وقد طمع بالفرار من أحدهما فرأى انهما محكما الأقفال .

وفي اليوم التالي وقفت المركبة عند الظهر فرأى بمبو انها وقفت في سهل متسع ثم رأى سكالابرينو قد دنا منه وقال له :

ـ أتريد ان تأكل ؟

فشكره وقال له : كلا وهو يرجو بهذا الامتناع ان يحمله على الاشفاق عليه .

وبعد هنيهة عادة المركبة الى السير ففرح بمبو فرحاً عظيماً إذ بدأ يثق بانهم لا يريدن قتله .

وقد حاول في ذلك اليوم ان يقف على الحقيقة فنادى رولاند قائــلا بلهجة المتوسل :

ـ سيدي .

ولكن رولاند لم يجبه ولم يلتفت اليه .

وعند المساء وقفت المركبة ايضاً وجاءه سكالابرينو فسأله إذا كان يريد ان يأكل فأجابه بنعم .

ولما سارت المركبة جعل يحدث نفسه فيقول :

أنه ظفر بي الآن وسيضعني في سجن .. حسناً ولكني سأخرج من هذا السجن بعد ستة أشهر او بعد عام وعند ذلك يأتي دورك ولكني لا اسجنه هذه المرة في الآبار .

وكانت كل تصوراته منصرفة الى ساعة فراره والانتقام من رولاند وكان يسلي نفسه باختراع آلات التعذيب التي يعذبه بها حين الافلات منه والظفر به فاذا خطرت له وسيلة ارضته ابتسم ابتسام الرضى ونسي كل ما هو فيه .

وقد اجتازوا المسافة من رومة الى بادو بثمانية أيام لم ينبس رولانـد في خلالها بكلمة .

وعندما وصلوا الى بادو لم تسر المركبة في طريق البحيرات المؤدية الى فينيسيا بل سارت في طريق مستتر حتى إذا وصلت اليها وقفت فيها وخرج رولاند من المركبة فحل محله سكالابرينو وجلس بجانب الكاردينال .

ثم واصلت المركبة سيرها دون أن يعود رولاند .

ولم يكن ببو يرى شيئاً ولكنه كان يسمع فسمع وقع حوافر خيل كثيرة علم منها أن كوكبة من الفرسان تحرس المركبة .

أما رولاند فانه ذهب الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه جوانا مـع أبيه وبيانكا .

فدخل الى الحديقة عند هجوم الظلام،وطرق الباب بشكل اصطلاحي ففتح الباب فظهر منه ارتين الشاعر .

وقد تنهد ارتين تنهداً عميقاً حين رأى رولاند وحاول أن يظهر ما لقيه من الضجر في هذه الأيام .

ولكنه لم يصغ الى حديثه وسأله قائلاً :

ــ هل فعلت ما أوصيتك ان تفعله .

قال : نعم فتعال وانظر .

فسار في أثره وفتح ارتين باب غرفة فرأى رولاند منظراً غريباً .

وهو أنه رأى مائدة عليها صندوق مستطيل يشبه الناوس وقد اوقدت شمعة عند أوله وشمعة عند آخره وغطى هـذا الصندوق بقطعة من الجوخ الأبيض .

وقرب هذا الصندوق امرأة جالسة تبدو عليها علائم الكآبة .

فقال ارتين بصوت منخفض ، انها بترينا وقد صحبتني بالرغم عني مع انك أمرتني ان أكون وحدي ولكني لم استطع مخالفتها لشدة الحاحها.

فقاطع رولاند الشاعر باشارة ومشى الى ذلك الصندوق فأزاح عنه الغطاء وظهر عند ذلك انه تابوت .

وقد كان هذا التابوت من خشب السنديان وقد كتب عليـــه بمسامير رؤوسها سوداء ما يأتي هذه الصورة .

بيانكا

ابنة امباريا

ماتت في السادسة عشرة من عمرها

قتيلة

بيد الكاردينال والاسقف

بمبو

فأعاد رولاند الغطاء الى ما كان عليه وعند ذلك قال له ارتين :

ــ اني وضعت بيانكا كا امرتني في صندوق من خشب الارز ثم وضعته في صندوق من الزنك ثم وضعتها في صندوق ثالث من السنديان .

وقد لقيت عنـاء شديداً لاضطراري الى تنفيذ اوامرك وحدي ولا سيما حين نقلته الى هنا .

فقال له رولاند : ألم يعلم الرجال الذين نقلوه الى هنا ما كان فيه ؟

— كلا فلم يعلم به أحد .

— حسناً فعد الآن الى فينيسيا ثم التفت الى بتريتا وقال لها :

— ألست انت يا ابنتي التي ارشدتني الى الغرفة التي كانت فيها بيانكا ؟

قالت : نعم يا سيدي .

— لماذا ألححت بمرافقة جثة هذه المنكودة ؟

— لأني كنت احبها حباً شديداً مع اني لم أرها إلا بضع ساعات .

— قولي الحقيقة يا ابنتي فاذا لم تكوني سعيدة في منزل سيدك تكفلت باسعادك بموافقة ارتين .

فاصفر وجه ارتين وقال : انها حرة .

فنظرت بتريتا الى ارتين نظرة المشفق وقالت :

— من عسى يريحه إذا فارقته ومن يعتني به حين يمرض ومن يمسح دموعه حين يبكي ؟

فأجابها ارتين بصوت متهدج من التأثر : أحق يا بتريتا انك لا تفارقينني ولكن هذا السيد رجل عظيم قادر ان يكفل سعادتك كما قال وهو لا يعرف الكذب .

فقالت له : هلمّ يا سيدي فان سعادتي بأن ارضيـك .

فبكى ارتين حنواً وقال :

— إذن انت تحبينني يا بتريتا فاعلمي اني لا أنسى حنوك وانا الذي يكفل سعادتك الآن فهلمي بنـا فانك لا تكونين خادمتي بعد الآن بل ستكونين زوجتي .

فقال له رولاند :

— وعندما تفعل ذلك فاحضر إليّ لتقبض ثلاثين الف ريال عينتها مهراً لهذه الفتاة والآن فاذهبا .

فودعاه وانصرفا فباتا تلك الليلة في فندق وفي مساء اليوم التالي دخلا الى قصر ارتين وسيجدهما القراء فيه قريباً .

٦٤

قبر بيانكا

إن المركبة التي سارت بالكاردينال وسكالابرينو ذهبت بطريق تريفيز فكان يخفرها إثنا عشر فارساً ساروا بهـــا الى مغاور بيافا ثم وقفوا عند المغارة السوداء .

وكان الكاردينال في خلال هذه الأيام التسعة قد اطمأن بعد الاطمئنان فانه افتكر ملياً وانتهى بقوله :

— لأعلم الآن ابن يريد ان يضمني وبعد ذلك نرى ما يكون .

ولم يكن حقده قد زاد على رولاند إذ كان مالئاً قلبه فلم يتسع لمزيد .

وقد أخذ في خلال السير ينتقد عليه ويسفه اعماله فيقول :

— إني لو كنت مكانه وقبضت على بمبو لمـــا أبقيت عليه لحظة ولما سجنته فانه قد يهرب من سجنه .

ولكن الأبله لم يقتلني وقد كان يجب ان يقتلني حين رآني وسيرى كيف يعض اصابعه ندماً ويأساً .

وعندما وقفت المركبة وأنزلوه منها نظر نظرة الى مـــا حواليه وعرف من اشتداد الظلام انهم اوقفوه قرب المغارة السوداء .

وقد أخذ سكالابرينو بيده وسار به الى ان بلغا باباً ففتح أمامها .

فذعر بمبو إذ ذكر هذا السجن وذكر ما لقيه فيه في المرة الأولى من العناء وحاول ان يمتنع عن الدخول ولكن سكالابرينو دفعه الى الداخل ودخل في أثره .

غير ان الكاردينال لم يلبث ان دخل حتى ذهل إذ لم يرَ ذلك السجن الرهيب الذي كان فيه بل وجد نفسه في غرفة مفروشة فرشاً جميلاً .

أما سكالابرينو فانه اقفل البـاب من الداخل إقفالاً محكماً وجلس على كرسي دون ان ينبس بكلمة .

وكان يجتنب ان ينظر الى الكاردينال كأنه كان يخشى ان يخالف الأوامر الصادرة اليه ويبطش بـه ولكن عروقه كانت تنتفخ من حين الى حين وكانت عيناه تتقدان وينتفض انتفاضاً ظاهراً مما يدل على انه كان يميل الى عصيان أوامر رولاند وقتل هـذا الرجل كما كان يمليه عليه حقده وبغضة الهائلان .

وقد جلس الكاردينال ايضاً على كرسي في تلك الغرفة المضاءة وقـال في نفسه :

— ترى أيريد رولاند ان يجعل هذه الغرفة سجني ؟

وقد توالت الساعات والسكوت سائد حواليه الى ان خيّـل له ان سكالابرينو قد نام فنهض ومشى الى جهة الباب وقلبه يخفق خفوق اجنحة الطائر .

غير ان سكالابرينو كان قد أسند كرسيه الى ذلك الباب وجلس عليها فتراجع الكاردينال خائباً وهو يقول في نفسه :

— لا سبيل الى الخروج من هنا الآن ولكنني لا أعدم وسيلة للفرار .

وقد انتهى به الأمر الى انه نام نوماً متقطعاً .

ثم استيقظ فجأة لوقع اقدام سمعها ونظر الى الباب فوجده مفتوحاً ولم يجد سكالابرينو في الغرفة .

وكان المصباح لا يزال على المائدة يضيء تلك الغرفة فرأى رولاند واقفاً أمامه فذعر لمنظره حتى انه لم يستطع النهوض .

اما رولاند فانه قال له : تعال .

ثم برح الغرفة وترك بابها مفتوحاً فلبث الكاردينال في موضعه وقد جمد في مكانه من الرعب الى ان سرى الى قلبه الرجاء فجأة فنهض وخرج من ذلك الباب الى رواق مقفر .

وقد نظر الى يمينه فلم يرَ غير الظلام الحالك فنظر الى يساره فرأى نوراً ضعيفاً فارتعش سروراً ومشى في الظلام وهو يرجو ان يجد منفذاً وان يتوارى في ذلك الظلام عن عيون المراقبين .

ولكنه لم يكد يسير عشر خطوات حتى لقي ثلاثة رجال لم يكلموه كلمة ولكنهم جعلوا يدفعونه بحرابهم الى المكان الذي جاء منه .

فتراجع ذليلا حقيراً وما زالوا يدفعونه حتى انتهوا به الى مكان تألقت فيه انوار المشاعل بما يبهر البصر ورأى والذعر ملء قلبه انه بات ضمن دائرة غصت بالرجال والخناجر مجردة بأيديهم .

فأيقن بمبو انه قضى عليه لا محالة وأصيب لرعبه بما يشبه الدوار فسقط جاثياً على ركبتيه ولكنه بذل جهداً عنيفاً فتمكن من النهوض ثم شدد نفسه تباعاً فنظر الى اولئك الرجال المحدقين به نظرات دموية وقال :

ــ ماذا تريدون مني ؟

فانبرى من بينهم رجل وقال له بصوت هلع له قلب الكاردينال من الخوف :

ــ أنا سأخبرك بماذا يريدون منك .

وكان هذا الرجل رولاند فدنا منه ووضع يده على كتفه وقال له بصوت جهوري كان يسمعه الجميع :

ــ انك في سابق الزمان لم تكن شيئاً مذكوراً بل كنت رجلا مكروهاً

يحتقرك النـاس ويجتنبونك ويسيئون بك الظنون فلم تجـد بينهم غير رجل واحد تأثر لشقائك واشفق عليك ورآك ذكي الفؤاد قوي الارادة فجعلك في عداد اصدقائه وفتح لك ابواب منزله وأغدق عليك النعم فمهد لك سبيل المستقبل بحيث بلغت بفضله ما بلغت .

أما هذا الرجل فهو أنا فانظر الآن بماذا كافأتني فأعميت أبي وقتلت أمي وقضيت عليّ ان أموت في الآبار .

فضحك بمبو ضحكاً هائلاً وقال :

— لقد كنت ابغضك اكثر مما كنت ابغض اولئك الذين كانوا يحتقرونني ولا أزال ابغضك بملء جوارحي .

— ليكن . وقد قبضت عليك اول مرة وسجنتك هنا وأنا ارجو ان تعتزل وتعينك العزلة على التفكير والندم على إساءتك إليّ بحيث يأتي يوم اصفح فيه عنك .

فلما نجوت من سجنك عدت الى جرائمك بقتلك فتـــاة بريئة فقل بماذا اساءت اليك هذه الفتاة ؟

— لقد كنت احبها واقسمت ان تكون لي .. لي وحدي فلو لم تمت .. أواه انها لو كانت حية .

— أكنت تقتلها ايضاً ؟

— كلا ولكنني كنت اكون اشد براعة من قبل فأتمكن من القبض عليها قبل ان تنتحر كما فعلت .

فاصفر وجه رولاند لهذا الخبر الفجائي وأيقن ان تلك المنكودة قتلت نفسها بيدها تخلصاً من عار الفضيحة .

وقد سمع عند ذلك أنيناً من ورائه فقال : صبراً يا والد بيانكا .

أما بمبو فانه ضحك كما ضحك اول مرة وقال وقد هدد السماء بقبضتيه :

— انك تنتصر ولكنني اذا مت فقد انتقمت لنفسي قبل الموت بموت

التي تحميها انت .. تلك التي لم يقتلها غير حبي فاقتلني إذا اردت اموت قرير العين بهذا الانتقام فـان تلك التي تحبها لم تمت لولاي فيـا ايتها السماء واقمارها اشهدي بأني أموت آمناً مسروراً أما هو فيميش ليتعذب فانه ليس من الذين ينسون وانت يا رولاند اني اكرهك فاعلم انه لو كانت بيانكا نفسها لي واعطيت معهـا كنوز الارض لتخليت عن بيانكا وعن الكنوز مقابل ساعة استطيع تعذيبك فيهـا فاضرب الآن فقد قرأت بين عينيك انك قضيت عليّ .

فالتفت رولاند الى المحيطين به وقال :

— ماذا تريدون ايها الاخوان أيستحق هذا الرجل ان يحيا ؟

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين :

— ليمت .

قال : أيستحق هذا الرجل ان يموت من دون تعذيب ؟

قالوا : كلا فليعذب .

وعند ذلـــك قبض إثنين على الكاردينال وسارا به على مسافة بضع خطوات من ذلك المكان الى مكان كان فيه صخر كبير حفروه حتى بات يشبه الكهف .

وكان نعش بيانكا موضوعاً عنـد مدخل هـذا الكهف فرآه بمبو وقرأ ما كان مكتوباً عليه فاهتز اهتزازاً عنيفاً وتراجع مذعراً ولكن الرجلين كانا قابضين عليه .

وهناك تمثلت له حوادث تشبه احلام النائمين فانه رأى نحو عشرين رجلاً حملوا النعش ونقلوه الى الكهف في قلب الصخرة فجمد الدم في عروق بمبو وحوّل نظره عن ذلك النعش .

وعند ذلك سمع صوت رولاند يقول هذا القول الغريب :

— ايها الكاردينال اني ووالد بيانكا نغفر لك ذنبـــك ما زلت قد اصبحت من اهل القبور .

فاصطكت اسنان بمبو وقال :

— أنا الآن من اهل القبور .. ما معنى هذا الهزل .. اني اشعر بأن صوابي قد ضل أنا ميت .. من الذي يقول هذا القول .. كلا .. دعوني .. الى ابن تذهبون بي ايها .. وقد اختلطت بقية كلامه بأنينه فلم يفهم منها شيء وهذا الذي حدث .

أما رولاند لم يكد يتم كلامه حتى دفع الرجال بمبو الى ذلك الكهف أي الى قبر بمبو وأخذ البناؤون بالفور يسدون بالطين باب القبر .

اما بمبو فقد بات في حالة لا تستطيع وصفها الأقلام إذ كان يثب في ذلك القبر وثوب المجانين وكانوا يسمعون صوته من الخارج فيرتعشون رعباً لتصورهم هذا المشهد .

وقد اشتغل البناؤون ساعة في سد باب القبر فلما اوشكوا ان ينتهوا من سده ضحك بمبو ضحكاً هائلاً اصفرت له وجوه الحاضرين .

وقبل ان يضعوا الحجر الأخير خطر لأحد البنائين ان ينظر الى داخل القبر فرأى بمبو منطرحاً تحت النعش وقد فارق الحياة .

ولما تم سد الباب ألقوا فوق تلك الصخرة كثيراً من الحجارة الصغيرة والتراب .

وقد زرعوا فوقها نباتاً من نبات تلك الجبال السريع النمو فلم تمض بضعة ايام حتى نبت الزرع فوق تلك الصخرة بحيث لم يعد يخطر لأحد ان ذلك النبات يوجد تحته قبر بيانكا ابنة المحظية امباريا وقبر الكاردينال اسقف فيلنيسيا .

* * *

أما رولاند فانه عيَّن عشرين رجلا لحراسة الصخر شهراً كاملا ثم عاد

مع سكالابرينو الى مستر فذهب منها الى البحيرات وفي الساعة العاشرة من المساء دخل الى بيت الجزيرة .

٦٥

قبر آخر

كان أول ما اهتم به رولاند حين وصوله الى بيت الجزيرة انه تفقد أباه الشيخ كي يطمئن بأنه لم يحدث له ما يكدره أثناء غيابه .

وكان الدوج الشيخ نائماً نوم الاطفال فوقف رولاند هنيهة يتمعن في وجهه وهو مضطرب ذلك الاضطراب الذي يحدث عـادة لمن يلتقي بمن يحبه بعد فراق كان خائفاً فيه عليه .

أي ان ذلك الاضطراب لم يكن ناشئاً عن تقريع الضمير بعد ذلك القضاء الذي قضى به على الكاردينال .

ونعم ان ذلك القضاء كان هائلاً وأي قضاء أشد وافظع من ان تسجن رجلاً في قبر مع جثة الذي قتلهـــا وتسد عليه باب القبر بالطين والحجارة وتدفنه في قيد الحيـــاة ولكن الأخلاق والعادات تختلف باختلاف العصور والأزمان فقد كانت ايطاليا في ذلك العهد مرسحاً للأعمال الهائلة وساحة المعارك الدموية لا تنار إلا بنيران الحرائق ولا يلقي فيهـــا غير العصابات تنهب الارض وتسفك الدماء ولا يسود بين قومها غير الجرائم بحيث تولدت القسوة في القلوب وبات الانتقام من أخص مطالب الناس .

على اننا لا نبحث في أخلاق ابطال هذه الرواية كما تقدم لنا القول في احد الفصول السابقة بل نروي حديث اعمالهم وعلى الجملة فان انتقام رولاند لو حدث في هذه الأيام لكان ممـــا تقشعر له الأبدان ويندى منه جبين الانسانية خجلاً واما في ذلك العصر فقد كان أمراً محموداً .

ومهما يكن من الأمر فان رولاند على شدة اشفاقه وميله الى العفو عند المقدرة لم يجد في قلبه أية رحمـــة حين قضي على بمبو هذا القضاء ولذلك لم يشفق عليه ولم يعف عنه ولا سيما وان الكاردينال لم يستعطفه بكلمة بل كان يهيج في صدره البغضاء بما كان يقوله مما يدل على توطين الحقد في قلبه .

وبعد ان اقام رولاند هنيهة يتمعن في وجه أبيه فارقه ونزل الى حيث ينتظره سكالابرينو فأقام معه يتحادثان بأحاديث مختلفة دون ان يذكر بيانكا او بمبو بحرف وبعد ذلك تركه رولاند فخرج سكالابرينو من المنزل وذهب الى الأرصفة القديمة في ليودو وهناك جعل يسير ببطء وهو يفكر في مشروع لا بد ان يكون شخصياً لأنه لم يطلع عليه رولاند .

وقد كانت السكينة بادية في وجهه في حين ان النار تتأجج في قلبه .

وما زال يسير حتى وقف عند منزل كان مكتوباً على بابه بحروف كبيرة « خمارة مرسي الذهب » .

وهناك وقف يراقب فرأى ان الباب مقفل ولكن النور ينبعث من خلال شقوقه فقال في نفسه : ان زبائن هذه الخمارة مجتمعون ووقف ينتظر .

ويذكر القراء ان لهذه الخمارة بابين يدخل من إحداهما الى رواق فصبر سكالابرينو نصف ساعة ثم رأى ذلـــك الباب قد فتح فدفعه وخرج منه رجلان فعرف سكالابرينو ان احدهما برتولو صاحب الخمارة ولم يعرف الثاني لأنه كان ملتفاً برداء كبير .

وقد خرجا وتركا الباب مفتوحاً فسارا بضع خطوات وهمـــا يتحدثان كأنهما يتممان حديثاً قديماً .

أما سكالابرينو فانه اغتنم هذه الفرصة ودخل الى الرواق من البـــاب المفتوح فدخل الى الخمارة وذهب بملء السكينة الى قاعة الاجتماع فأقام ينتظر .

ولا بد لنا هنا ان نذكر للقراء ذلك الرجل الذي كان مع برتولو ولم يعرفه سكالابرينو ولذلك نعود قبل ساعة الى تلك الخمارة فنقول .

دخل هذا الرجل الى الخمارة وجلس على مائدة قرب الشاربين كرجل تعود زيارة هذا المكان .

وكان برتولو قد عرفه دون شك فصرف جميع زبائنه حتى اذا لم يبق فيها احد كشف الرجل القناع عن وجهه فظهر جينارو رئيس البوليس.

وعند ذلك قال له برتولو : اذا كان يريد سيدي ان يشرب فان لدي خمراً معتقة من افضل الخمور الفرنساوية .

فوافقه الرئيس على ذلك وبعد ان شرب كأساً سأله قائلاً : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : لديّ انباء خطيرة .

— ما هي ؟

— أولها ان رولاند قد برح فينيسيا .

— أتعلم الى أين ذهب ؟

— ان اخصاءه يؤكدون انه ذهب الى ميلانو .

— حسناً فليس هذا الذي أريد ان اعرفه فقل لي بماذا يتحدثون في الميناء؟

— انهم لا يتحدثون يا سيدي إلا برولاند فانه منذ ظهر للبحارة وقال لبعضهم انه ستحدث قريباً حوادث عظيمة في فينيسيا لم يعد لهم شاغل إلا حديثه وكلهم معجبون بـه حتى انهم كانوا يتحدثون الآن في هذه الخمارة فيطعنون بالدوج فوسكاري أقبح طعن ويرجون ان ينقذ رولاند الجمهورية من قبضته .

— أتظن حقيقة ان شعب فينيسيا ينتصر لرولاند ؟

— أتأذن لي يا سيدي ان اتكلم بجلاء ؟

— بل آمرك .

— إذن فاعلم ان معتقدي هو ان رولاند كانديانو لا يلبث ان يظهر لشعب فينيسيا حتى يهبوا هبة واحدة لنصرته ولكن جيشنا وبوليسنا قويان لحسن الحظ .

— نعم هو ذاك ولكنك ستتبع تعليماتي في انتظار هذه الحوادث .

— معاذ الله ان أخل منها بحرف فاني حين اجتمع بأولئك البحارة أظهر لهم اني اشد منهم حقـــداً على فوسكاري وعندما يذكرون والد رولاند الأعمى اتظاهر بالبكاء إشفاقاً عليه .

— حسناً تفعل والآن أتظن ان رولاند غير موجود في فينيسيا ؟

— بل أظن انكم تعرفون من ذلك فوق ما أعرف .

— ورفيقه؟

— أي رفيق ؟

— ذلك الرفيق الذي لا يفارقه لحظة أي سكالابرينو .

فابتسم برتولو وقال : سكالابرينو ؟

قال : نعم وأظن انه يدعى بهذا الاسم .

— إذن لا يجب يا سيدي ان تهتم لهذا الرجل .

— كيف لا أهتم وهو خصم شديد ؟

— لقد كان كذلك .

— ماذا تعني ؟

— اعني انه إذا كان رولاند في ميلانو كما يقولون فان سكالابرينو قد سافر سفراً شاسعاً لا يعود منه وأنا الذي قتلته .

— بورك فيك فاني حين لقيت هذا الرجل آخر مرة أي منذ عشرين يوماً ..

فوثب برتولو من موضعه كأنه قد تهرب وقد اصفر وجهه فقال :

— أتقول يا سيدي انك رأيت سكالابرينو منذ عشرين يوماً ؟

— رأيته بعيني ولكن لنبحث الآن في المهم وهو اني اريد منك ان تثابر على تحميس رفاقك وتجعل لهم ثقة لا حد لها برولاند كانديانو .

ثم نهض وخرج من تلك الخمارة فتبعه برتولو الى الخارج وهناك ألح عليه بوجوب اتباع تعليماته وقال له :

– يجب على الأخص في أول شباط ان تبذل كل ما لديك من الجهد .

قال : لماذا خصصت هذا اليوم يا سيدي ؟

قال : لأنه اليوم الذي يحتفل فيه الدوج حفلته الكبرى وبقدر ما يزيد الهتاف لرولاند يزيد الخطر عليه .

وهنا أقول لك أنه إذا سألك رفاقك عن الأوامر التي اصدرتها اليك بشأن تلك الحفلة فقل الحقيقة بتمامها .

وعند ذلك فارقه الرئيس فوقف برتولو هنيهة حائراً مبهوتاً إذ لم يدرك شيئاً من مقاصد رئيس البوليس .

وكان برتولو هذا من أخص رجال البوليس وله نفوذ عظيم بين أهل الميناء فلم تكن تخفاه خافية من أمورهم بحيث كان أعظم جاسوس لدى جينارو .

فلما توارى رئيس البوليس عنه لم يعد يفتكر بأوامره وخفايا مقاصده بل جعل يفتكر بسكالابرينو وبذلك النبأ الغريب الذي نقله اليه الرئيس إذ قال له أنه رآه بعينه وهو أمر لا يحتمل التصديق لغرابته فبعد ان افتكر ملياً قال في نفسه :

لا شك انالرئيس قد اخطأ إلا إذا كانقد رأى الشيطانيتمثل لهبشكل سكالابرينو .

ولم يكن يقول هذا القول عن سبيل المزاح بل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان الشيطان قد تمثل له بهذه الصورة لاعتقاده ايضاً ان مثل رئيس البوليس لا يمكن أن يخطىء .

وإنما خطر له الشيطان إذ لم يكن يخطر في باله ان سكالابرينو يحيى بعد الموت ويستطيع الخروج من ذلك القبو بعد أن ابتلعته الأمواج فيه .

ولذلك عاد آمناً الى الخمارة فاقفل بابها ودخل فجعل يحسب نقوده وايراد الليلة حسب عادته كل يوم .

ولما أتم عد نقوده ذهب الى باب ذلك القبو الهائل فوقف عنده موقف الحائر المبهوت وجعل يقول :

ترى أيمكن ذلك ان يكون ؟

ثم فتح ذلك الباب وأطل منه باحثاً عن الجثة وكان الماء قد فرغ من القبو .

فلما لم ير شيئاً لاشتداد الظلام عزم على أن يحضر مصباحاً وينزل الى القبو فيبحث عن الجثة .

وقد دخل الى القاعة العمومية فلم يكد يطأ عتبة بابها حتى وقف والذعر ملء قلبه إذ رأى سكالابرينو جالساً على مائدة وقد أسند رأسه الى يده وجعل ينظر اليه .

فلما رأى سكالابرينو ما كان من جموده وانحباس لسانه قال له :

— أهكذا تستقبل اصحابك القدماء يا برتولو ؟

فطاش رأس برتولو ولم يصدق ما رآه فقال :

— ولكني أرى وجهه واسمع صوته وما أنا بحالم فكيف هذا ؟

أأنا هو برتولو الواقف أمامه .. أهو هو سكالابرينو الناظر إلي ؟!

فقال له سكالابرينو : اني عالم يقيناً بانـك ستقدم لي من تلك الخمرة المعتقة في ذلك القبو الشهير .

ثم نهض ومشى اليه فجعل برتولو يتراجع وسكالابرينو يتقـدم وهو يقول له :

— ان باب القبو مفتوح وما عليك الا ان تنزل اليه فان صديقك ساندريجو ينتظرك وقد سأم صبراً .

وكان التهكم ظاهراً في أقوال سكالابرينو ولكنه لم يكن يريد التهكم .

وما زال برتولو يتراجع حتى التصق بالجدار ومد يده على خنجره وهم بقتله ولكنه انف من قتله وهو على هذه الحال .

أما برتولو فانه كان قد تشجع قليلا وحلت عقدة لسانه فقال له :

ـ أتريد أن تشرب ايها الصديق ؟

فضحك سكالابرينو ضحكاً هائلا وقال :

ـ لقد ملأت جوفي من مياه قبوك فاشكرك .

ـ اقسم لك بأني لست انا الذي القاك في القبو بل اني لم أكن أريد لك هذا ولكن ساندريجو كان صاحب هذه الفعلة هذه المنكرة وقد حذرته كثيراً ومنعته مراراً عن هذا القصد وأعلم يقيناً ايها الصديق اني لا أريد لك سوءاً .

ـ وأنا كذلك .

ـ إذن ماذا تريد مني وماذا أتيت تعمل هنا ؟

ـ اني أتيت لأقتلك يا برتولو .

ـ كلا انك لا ترتكب هذه الجناية وما انت إلا مازح دون شك وإلا كيف يخطر لك ان تقتلني وأنا لم اسيء اليك بشيء بل كنت اثني عليك منذ ساعة .

ـ مسكين يا برتولو فلم يخطر لي انك تخاف الموت إلى هذا الحد .

وكانت اسنان برتولو تصطك من الرعب والعرق يسيل من وجهه وقد امتقع حتى بات بلون الأموات فقال لسكالابرينو .

ـ نعم فقد عرفتك رقيق الشعور وانك لا تقتلني دون شك فهل تريد ان التمس العفو منك جاثياً على ركبتي ؟

وقد ركع عند ذلك فقال له :

ـ انهض .

وكان في نية سكالابرينو ان يقتله ولكنه حين جاء اليه كان يعتقد انه سيلقى خصماً يدافعه لا ان يبطش به بطش النمر بالنعجة .

أما برتولو فانه تنفس الصعداء ووقف وهو يقول :

– إنك ستصفح عني أليس كذلك ... وحسناً تفعل ايها الصديق فاني اقسم لك بالله ان ساندريجو صاحب تلك الفعلة واني لا بد لي فيها .

فسكت سكالابرينو ولم يجب .

فقال برتولو في نفسه !

– ترى ما عساه يصنع ايقتلني ولكني اراه أغمد خنجره العله يريد خنقي ؟

فقال له سكالابرينو :

اصغ الي يا برتولو فانهم يعتقدون انك أشد وابسل رجال فيتيسيا واني اردت ان اقتلك لأنك اردت قتلي والآن جميع تلك المصاعب قد حدث معظمها بسببك فانت لا تستحق الحياة ولكني اشفقت عليك كما قلت لك . .

– ارأيت انك طيب القلب ؟

– هو ذاك ولذلك اقترح عليك قتالاً منظما ولا اقاتلك بالخنجر بل بالأيدي فتأهب وهلم بنا .

فاتقدت عينا برتولو ببارق من الرجاء وقال :

– اذا كان ذلك فسح لي مكانا على الأقل .

فتراجع سكالابرينو خطوتين وهو يقول :

– احذر لنفسك ايها الشقي اني سألقيك في القبر .

وعند ذلك هجم برتولو على غرة فانتزع الخنجر من منطقته وطعنه به طعنة نجلاء .

غير ان سكالابرينو تمكن من الوثوب قبل ان يصل الخنجر الى صدره فأصاب ذراعه وأسال دماءه .

وفي الوقت نفسه أصيب برتولو بضربة هائلة على رأسه كادت تضيع رشاده وسقط الخنجر من يده .

فرفس سكالابرينو الخنجر برجله وهجم عليه فكان القتال شديداً بين الاثنــــين وكلاهما مشهود له بالقوة البدنية وكلاهما حاقد على خصمه حقد الموت .

الى ان تمكن سكالابرينو من تطويق ظهر خصمه بيديه وجعل يضغط ضغطاً عنيفاً بينما كان برتولو ينهش وجه سكالابرينو ويعضه .

وما زال على ذلك الى ان تلاشت قواه وانحلت عزيمته وسمـــع صوت تكسير عظامه فلم تكن غير لحظة بعد ذلك حتى انقلب رأسه الى جهة كتفه الأيسر واسلم الروح .

فاطلقه سكالابرينو عند ذلك فسقط الى الأرض جثــة هامدة فرفسه برجله الى القبو وسمع صوت سقوطه فيه فاقفل الباب وعاد بملء السكينة كأنه لم يفعل شيئاً .

هذه كانت خاتمة تلك المبارزة بين الرجلين وقد فقد جينارو رئيس البوليس بموت برتولو اعظم ركن من اركان جواسيسه الذين كان يعتمـد عليهم في المهمات ولاسيما في ذلك اليوم العظيم الذي لم يكن يعلم لمن يستتب النصر فيه الفوسكاري أم لرولاند .

٦٦

صديقان

قبل هذه الحوادث المفجعة ببضعة ايام كان الدوج فوسكاري وجينارو رئيس البوليس جالسين في قاعة الاستقبال في سراي الدوج .

وكان الدوج جالساً في كرسي عظيم ورئيس البوليس واقفاً أمامه وقفة الاحترام .

وكان الدوج يحمل بيده رسالة قد قرأها نحو مائة مرة وهو لا يزال يقرأها وهذه هي :

« صديقي ومولاي .

« حدثت حوادث لم تكن في الحسبان قضت علي أن أبرح فينيسيا دون أن أراك .

« على أني أرجو أن أعود اليك في اقرب حين فأعاود اعمالي لديك وما هي إلا الإخلاص والوفاء .

« ولذلك أسألك ان تصفح عني لهذا السفر الفجائي وأن تعلم يقيناً إني في القرب والبعد صديقك المخلص وخادمك الامين .

بيبو

« اسقف فينيسيا بحول الله »

حاشية : لا بد لي من أن أوصيك هذه الوصية وهي :

« اسرع بالاجراء ضد الذين تعرفهم .

« أما ذلك الرجل الذي حال دون مخابرتك مع مدسيس فاذا لم يكن بوليسك قادراً على القبض عليه في الحال كان الخطر شديداً فتدبر » .

وكان بيبو قد كتب هذه الرسالة قبل سفره وأوصلها الى الدوج بطريقة مضمونة في نفس ذلك اليوم الذي دخل فيه الى منزل ارتين .

فقرأ الدوج مراراً هذه الرسالة التي حرمته الرقاد لشدة خوفه من عباراتها الأخيرة .

وقد دعا رئيس البوليس اليه وقال له : هل عرفت شيئاً عن الكاردينال ألم تسفر ابحاثك عن شيء ؟

قال : أظن يا مولاي أني عرفت المكان الذي ذهب اليه نيافته .

ولكني اسألكم قبل كل شيء أن تعلموا بأني لا أعلم امرأ ان واكداً ان جواسيسي قد انتشروا في كل مكان دون أن يعثروا بشيء وكل ما أقوله لكم مبني على الظن .

ـ ما الذي تظنه ؟

ـ أظن ان الكاردينال خاف .

فأجابه بلهجة دلت على العظمة :

ـ مما يخاف هذا الكاردينال العظيم في ظل الجمهورية :

فانحنى الرئيس بملء الاحترام وقال :

انه وان كان كردينالا فهو رجل ومهما علا مقام الرجل فقد يجد إذا فتش في ماضيه خيالاً يزعجه في لياليه .

ـ هل وجدت هذا الخيال .

ـ نعم يا مولاي وهو يدعي رولاند كانديانو .

فبذل الدوج جهداً عنيفاً كي يخفي اضطرابه ولكن هذا الاضطراب لم يخف على رئيس البوليس فقال في نفسه :

ـ لقد سنحت الفرصة لالقاء ذلك الخطاب الذي طالما رددته عند المرآة فلا تأهب لتمثيل دوري فان الحياة تمثيل لا يفوز فيها غير البارع فيه .

فقال له الدوج :

ـ إذن اتحسب ان الكاردينان خاف رولاند ؟

ـ لا اقول ذلك يا مولاي على سبيل الظن بل على سبيل اليقين ولا حاجة الى تذكير عظمتكم بتلك الضربة الهائلة التي اصيبت بها أسرة كانديانو .

وحاشاي أن أكون أردت بهذه الذكرى تقريع أحد من الناس ولكن الضربة كانت قاضية على تلك الأسرة قضاء لا يحتمله التصور غير ان رولاند قد نجا من السجن يا مولاي .

ـ وماذا تستنتج ؟

ـ استنتج وذلك على سبيل الظن ان الكادرينال بيو كان أحـد الذين أصابوا اسرة كانديانو بتلك الضربة وان رولاند حاقد على الكاردينال حقداً هائـــلا وان الكاردينال يعرف هذا الحقد حق العرفان فهو لم يسافر إلا لأنه خاف .

فحدق فوسكاري به وقال له :

ـ أتحسب أنه يوجد أيضاً غير الكاردينال من يخاف رولاند ؟

ـ كلا يا مولاي لأن أولائك الذين أشرتم اليهم ليسوا من الذين يهربون حين تثور العاصفة بل انهم يقتحمون الاخطار حتى يفوزوا وأظن أني غـير محتاج الى ذكر اسمائهم .

فاطرق الدوج هنيهة مفكراً ثم ابتسم وقال :

ـ انك رجل ماهر يا جينارو .

فانحنى وقال : ان سيدي يغمرني باحسانه .

ـ أين ذهب الكاردينال فيما تظن ؟

ـ أنه هرب إلى رومه .

ـ لماذا ذهب الى رومة ولم يذهب إلى ميلانو أو فلورنسا مثلا .

ـ لا بد أن تكونوا سمعتم بتلك الحظية الرومانية التي أقامت عندنا وكان لها شهرة عظيمة .

فاصفر وجه الدوج وقال : امباريا .

ـ هي بعينها والذي أظنه أنه يوجد بينها وبين الكاردينال علائق سرية تقضي عليه بأن يكون حيث تكون ولما كانت امباريا قد ذهبت الى رومة فقد ذهب هو اليها في نفس ذاك اليوم .

فنهض الدوج وحاول الرئيس أن ينصرف لاعتقـــاده ان الدوج يريد ذلـك .

ولكن الدوج أوقفه باشارة وقال له : ابق فاني أريد محادثتك واجلس أمامي .

ـ مولاي ؟

ـ اني أريد أن تجلس فاجلس فانك أعظم من أن تلبث واقفاً بحضرتي .

فامتثل الرئيس شاكراً وبدأ الدوج الحديث فقال :

ـ دع الآن الحديث بشأن الكاردينال فهو يعود حين يريد .

ـ هذا إذا كان يستطيع .

فارتعد وقال : كيف ذلك ؟

قال : أريد أن اقول يا مولاي أني اعتقد بأن الكاردينال بمبو لن يعود الى فينيسيا وأنه يسافر السفر الأكبر الذي لا يعودون منه على الاطلاق واسمح لي يا مولاي ان أتكلم بصفتي رئيساً للبوليس وان كان ذلك من واجبات سواي في هذا المقام .

ـ واجبات من ؟

ـ واجبات رئيسي . رئيس ديوان التفتيش .

ـ ولكنك تعلم يقيناً ان رئيس ديوان التفتيش قد استقال وفوق ذلك فما الذي تنتظره من دندولو وأنت تعلم انه عاجز الهمة عاجز الرأي فقل ما تريد قوله .

فقال جينارو : نعم ان منصب رياسة ديوان التفتيش خال لنكد الطالع في هذه الايام التي يجب أن يكون فيها رئيس حازم قوي الإرادة .

ـ أي يكون مثلك ؟

ـ كلا يا مولاي فاني غير خليق بهذا الشرف .

ـ وأنا أقول لك أخدمنا في هذه الأحوال بما عرفت به من الاخلاص بل أخدم الجمهورية كما يجب أن يخدمها رئيس ديوان التفتيش ولا تخف ان يذهب املك سدى .

فوقف جينارو وقال :

اذن لنتكلم بحرية وجلاء يا مولاي فاني انتظر من عهد بعيد أن اسمع ما سمعته الآن من عظمتكم وان همتي اعظم من أن تتقيد بمنصبي الحاضر .

ـ أي انك تسألني تعيينك بدلاً من دندولو ؟

ـ هو ذاك يا مولاي .

ـ إذن أعدك بهذا المنصب فاجتهد ان تستحقه .

ـ سأبذل جهدي يا مولاى .

ـ ولا تحسب اني أعدك دون قصد الوفاء وسأعين لك يوماً محدوداً فعد إلي في اليوم التالي من شهر شباط وذكرني بهذا الوعد تجد اني صادق به .

ـ هذا كل ما أرجوه يا مولاى وقد فهمت شروطكم غير اني اتخذت كل ما ينبغي اتخاذه من وسائل الاحتياط ليوم الحفلة الكبرى قبل ان يتفضل على مولاي بهذا الوعد .

ـ حسناً فعلت والآن تقول ان الكاردينال لن يعود إلى فينيسيا .

ـ اقول يا مولاى ان الكاردينال قد بات الآن في قبضة رولانـد فيما اعتقد .

هذا الذي اريد أن ابحث فيه أي بهذه المؤامرة التي يدبرونها الآن ضدى فاني قبضت على نحو مائتي رجل ولكني لم اطمئن بعد .

ـ ذلك لأنكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

ـ هذا الذي اعتقده ولكن قـل لي الآن كيف تمكنت من تعقب أثر رولاند إلى هذا الحد ولم تتمكن من القبض عليه ابلغ من ضعف بوليسنا ان رجلا واحداً يعبث به عدة اشهر :

ـ يسوءني يا مولاي ان أخوض في هـذه المسألة لأني لا أحب الطعن بأحد .

ـ أني كدت أقبض على رولاند ثلاث مرات ولكن مـا حيلتي وقد

كانت أوامر دندولو ترد الي في كل مرة مخالفة للخطة التي كنت أضعهـا فيلتوي القصد وتضيع الفرصة .

ـ وبعد ان استقال دندولو ؟

ـ برح رولاند فينيسيا .

ـ اأنت واثق مما تقول ؟

ـ اني لا اخطيء يا مولاي لأني لا اقول إلا ما أثبته بنفسي ولاسيما في الأمور الخطيرة .

ـ ولكن لا بد من القبض على رولاند ومحاكمته فانه يتولى الآن زعامة عصابات من اللصوص تشبه الجيش فاذا لم تقبض عليه كان خطراً دائماً على الجمهورية ولكني أرجو أن لا يطول غيـابه عن فينيسيا وان لا ينجو من عدل القضاة .

ـ اسأل مولاي أن يطمئن فان رولاند سيعود .

ـ إذا كان ذلك فاني مطلق يدك في العمل فتصرف كما تشاء .

ـ ولكنك تمنحني يا مولاي سلطة عظيمة ونعم انها مؤقتة ولكني استطيع بهذه السلطة ان أكره القائد العام نفسه على طاعتي .

ـ نعم أعرف ذلك وأردد قولي السابق .

وعند ذلك أخذ الدوج ورقة فكتب عليهـا وامضاها ثم ختمها بختم الجمهورية وأعطاها الى رئيس البوليس .

فأخذها جينارو وهو يرتعش سروراً وقال :

لنبحث الآن يا مولاي في المؤامرة التي تهتمون بها فقد قلت لكم انكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

وعند ذلك دخل الحاجب وقال :

ان القائد العام على الباب يا مولاي وهو يلتمس الاذن بالدخول .

فأشار الدوج الى الحاجب بادخاله وقام فأزاح ستاراً وقال لجينارو :

ــ اختبىء وراء هذا الستار وانتظر ذهاب التياري لنعود إلى تتمة بحثنا.
فامتثل جينارو ودخل التياري بعد هنيهة فقال :
كنت أحسب أني استطيع استدعاءه إذا كنت محتاجاً اليه .
قال : كلا لا فائدة من حضوره وجلس أمام الدوج .

وكان الشيب قد بدأ يظهر في شعر التياري وبدت علائم التعب في وجهه ولكن عينيه كانتا لا تزالان براقتين تنبعث منهما أشعة تدل على الإرادة الثابتة .

وكان القلق باديا عليه وذلك لأن المؤامرة التي يريدها بدأت بالوصول الى الغاية منها ومع ذلك لم يكن راضياً .

على أن اضطرابه لم يكن من غاية المؤامرة بل من سير المؤامرة نفسها فانه دخل في سلكها مرغما ثم أصبح بعد قليل رئيساً لها دون أن يسعى لنيل هذه الرياسة .. وكان من أهل الطمع وهو يرجو أن يجعل الجمهورية ملكية ثم يجعل الملكية امبراطورية ويصبح عظيما كفرنسوا الأول وشارلكان .

ولكن الذي كان يخيفه ان جميع اعمال المؤامرة كانت تجري بسهولة لم يكن يتوقعها وكان يرى كثيرين من القواد يأتون اليه من تلقاء انفسهم وينتظمون في سلك المؤامرة بينما كان يحسبهم من اعدائه .

ولذلك كان يحسب أن يداً خفية قادرة تدير شؤونه وتهيىء له اسباب مجده . بل أنه توهم مرة أن فوسكاري واقف على اسرار المؤامرة وأنه لم يعاقبه إلى الآن حتى يدعه في اطمئنان الى ان يتيسر له ان يضربه الضربة القاضية .

فكانت هذه الأفكار تتنازع في نفسه مع ليونور ويضطرب لها هذا الاضطراب فانه كان لا يزال يهوى ليونور كما كان يهواها قبل الزواج ويرجو ان يفتنها بالعظمة متى فاز بمرامه ووضع على رأسها أكليل الدوقية ويقول

في نفسه انها من سليلة الحكام وانها لم تحب رولاند من قبل الا لانه كان ابن دوج فمتى صرت دوجاً احبتني دون شك .

هذا الذي كان يرجوه التياري من المؤامرة وهو أن يغنم قلب ليونور حين يفوز بالحكم ويتقلد الامارة .

وقد جلس أمام الدوج كما تقدم وهو متأهب لقتله اذ بدرت منه بادرت تدل على انه واقف على سره .

أما الدوج فانه قـــال له : حسناً فعلت بقدومك الي لأني اسر برؤياك ولكن لا بد لي من لومك فانك لا تزورني إلا في القليل النادر .

ـ ذلك لأني اشتغل لك فأنا مشغول عنك بك .

ـ لا شك عندي بوفائك ايها الصديق الصادق فقد بت صديقي الوحيد بعد سفر بمبو .

فلم يجد التياري في لهجة فوسكاري اقل دليل يحمله على الشك باخلاصه فقال :

لقد أتيتك باسماء جديدة .

فانقبض الدوج وقـــال : في كل يوم تفتح السجون ونلقي في اعماقها العباد ؟

ـ ان مجدك لا يؤيد غير هذه السجون ألم تعد رجل العزم الشديد الذي عرفناه ؟

بل أن الجمهورية قد تجرأت كما أرى فان كثيرين من النبلاء قد هجروا البلاد هاربين وغصت السجون بالمتهمين وقد اعدمنا خمسة عشر رجلاً في خلال شهرين وبت إذا خطر لي ان اتجول في فينيسيا لا أبصر من حولي غير الرؤوس المطرقة والسكون الشامل بينما كنت إذا ظهرت للناس لا يقابلونني إلا بالهتاف اما الآن فانهم إذا نظروا إلي خلتهم يقولون : كفاك ما سفكت من الدماء وأسلت من الدموع .

ولكن لم يبق غير القليل فتطمئن نفسك وفي كل حال فانك تستطيع ان تظهر للناس يوم الحفلة الكبرى وأنا على اليقين من أنك لا تسمع منهم غير الهتاف :

فتناول الدوج قائمة الاسماء من يد التياري وجعل يقرأها فيهز رأسه تارة ويبتسم تارة ويقول : أهذا أيضاً من الخائنين فقد كان بالأمس يظهر لى آيات اخلاصه وهذا ايضاً فقد قال لي أنه يسفك آخر نقطة من دمه في سبيلي إلى ان أتم قراءة الأسماء فقال :

– أرجو ان لا يوجد سواهم فانهم يبلغون الاربعين .

قال : كلا وأما بقية الفنيسيين فانهم مخلصون لك أشد الاخلاص وسأعود اليك بعد ثلاثة أيام فاخبرك بطريقة ترتيب الجند يوم الحفلة بحيث يحيطون بك من كل صوب .

وعند ذلك نهض التياري فودعه وانصرف .

وقد شيعه الدوج الى الباب فلما عاد الى القاعة لقي رئيس البوليس فيها فقال له :

لقد سألتني يا مولاي منذ هنيهة بمن يجب ان نبدأ القبض عليه من المتهمين فاجيبك الآن انه يجب ان تبدأ بهذا الرجل الذي خرج من هنا.

فاصفر وجه الدوج وقال : التياري ؟

– نعم القائد العام يا مولاي .

– اسرع بايضاح ما تقول أو احسب انك اصبحت من المجانين .

وقد غضب الدوج غضباً شديداً وقبل ان يبـــدأ جينارو حديثه قرع جرساً كان أمامه بعنف عظيم فقال له الرئيس ، ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : اريد ان آمر بالقبض على التياري .

قال : كلا لا تفعل يا مولاي وقد اسرع فوقف عند الباب كي لا يـدع أحداً يدخل .

فقال : الدوج : إذن اقبض عليك أنت ايها الشقي .

وقد مشى اليه مشية المتوعد فقال له جينارو بصوت الهامس ، مولاي إنـــك إذا سجنتني أو قتلتني لا تستفيد شيئاً ولكنك إذا قبضت على التياري اليوم أو جملته يشك بك خسرت كل شيء فاصغ الي بالله .

فعاد فوسكاري الى مجلسه ويده علي جبينه وعند ذلك اقبـل الحراس وقد سمعوا قرع الجرس فاطلق سراحهم باشارة ونظر إلى جينارو فقال له : تكلم الآن .

قال : مولاى اني وقفت على جميع اسرار المؤتمرين وانا عالم ان التياري زعيمهم وانت تعرف التيارى حق العرفان فهو لا يقوم على مثل هذا الأمر الخطير إلا إذا كان واثقاً من الجند نعم ان الجيش بجملته مخلص له ما خلا فرقة ضعيفة لا تستطيع مقاومة جيش فـاذا قبضت على التيارى اليوم لا تمضي ساعة حتى يثور الجيش ثورةهائلة فينقذونه ويهجمون على قصرك وانت ادرى بعد ذلك بما يكون على ان الأجدر بك في هذا الموقف الحرج ان تدعه آمناً ومطمئناً وتتأهب بالسر لرد كيدهم في نحورهم .

فاتقدت عينا فوسكارى ببارق مخيف وجعلت شفتاه ترتجفان من الغضب والخوف معاً فقال له جينارو : اتأذن لي يا مولاى ان اسديك نصيحة ؟

فقال : تكلم فقد خدمتني اليوم خدمة تجيز لك ان تشير .

قال : لو كنت في مكانك لبدات باطلاق سراح جميع المسجونين الذين وردت لك اسماؤهم .

فتردد الدوج هنيهة ثم قال: كلا فليبقوا في السجن ما زالوا فيه فان ذلك اسلم عاقبة .

ولكن جميع اولئك المنكودين كانوا من المخلصين لك .

ـ وقد اصبحوا اعدائي بعـــد ان سجنتهم ونكلت بهم فاذا اطلقت سراحهم انضموا إلى اعدائي للانتقام مني على اني متى انتصرت اطلقت

سراحهم واحداً تلو الاخر كنت محسناً عليهم أمـا إذا عفوت عنهم اليوم كنت ضعيفاً في عيونهم وعدوا ذلك من قبل الخوف .

فانحني جينارو إخفاء لما ظهر على وجهه وقـال : اني أعجب بذكائكم يا مولاي .

ــ إذن لا بد أن يكون لديك قائمة اسماء الذين انضموا الى التياري .

ــ ولكن هذه القائمة لم تتم بعد وأنا أعمل على اتمامها .

ــ لا بأس فاقرأ لي أسماء الذين عرفتهم .

فامتثل جينارو وذكر له نحو ثلاثين اسماً كتبها الدوج بخطه حتى إذا أتم كتابتها قال له : ماذا يريد هؤلاء ؟

قال: ما يريده الذين يبتغون قلب الحكومات وهو نيل الرتب والمناصب وما شاكل ذلك .

والتياري ؟

ــ يريد أن يكون في مكانك .

فاطرق الدوج مفكراً ثم قال : متى عرفت ذلك وكيف ؟

ــ في هذه الليلة يا مولاي ولهذا لم أقدم لكم تقريري إلا اليوم وقد اهتديت الى المؤتمرين بادلة مبهمة فما زلت اقفوا اثارهم حتى حضرت أحـد مجتمعاتهم دون أن يروني .

ــ اين ذلك ؟

ــ في سفينة الأميرال .

ــ ومتى تقرر ان يبدأوا العمل ؟

ــ في اليوم الأول من شهر شباط .

ــ أي اليوم الذي أشار علي التياري ان اجعله يوم حفلة .

ــ لا يزال لدينا يا مولاي بضعة أيا تكفينا لقلب هذه المؤامرة وعـلى

أيادي هؤلاء الطامعين وما زلت قد أذنت لي يا مولاى بالكلام فاسمح لي ان أبسط خطتي .

ـ قل .

ـ أرى انه يجب في يوم الحفلة ان ترسل فرقة الرماحة الى سفينة الاميرال التي عينت للاحتفال وسيلصق بهذه السفينة سفينتان أضع فيهما كثيرين من رجالي يتهددون سفينة الأميرال عند الاقتضاء أما أنت فانك تذهب الى ليدو ويحيط بك حراسك كي تبحر منهـا إلى السفينة ولكن عندما تصل الى الرصيف أشير إشارة خاصة فيقبض رجالي على التيارى ومن يحيط بك من المؤتمرين فانهم لا يستطيعون دفاعاً بغير الجند وعنـد ذلك تعود إلى القصر فتجمع مجلس العشرة وتحكم على المؤتمرين في الحال أما الآن فيجب ان تكتم الأمر كل الكتمان وتبالغ باظهار السكينة كي تحملهم على الاطمئنان وهـذه هي خطتي .

ـ وأنا أوافق عليها .

ـ ولكن عندما تقبض عليهم وتعود بهم الى قصرك ويحكم عليهم مجلس العشرة فمن الذى يتلو هذا الحكم ؟

ـ رئيس ديوان التفتيش .

ـ ولكنه مستقيل ولم تعينوا سواه .

ـ سأعين الرئيس في ذلك اليوم يا جينارو وسيكون ذلك أول ما أعمله حين القبض عليهم وأنت تعرف الذى اخترتـه لهذا المنصب دون شك ولا حاجة إلى ذكر اسمه .

فانحنى جينارو بملء الاحترام وقال له الدوج : اذهب الآن في شأنك واعلم انك منذ الآن تستطيع الدخول الى حين تشاء فتذكر للحاجب كلمة « جسر التنهدات » فلا يعترضك فاذهب وتمم فائتك ودقق البحث في أعمال

المؤتمرين وعد الي بكل ما تعلمه من أمورهم ولا تنسى ان سعادتك ومستقبلك موقوفان على نجاحك فتدبر .

ولكن بقي لي سؤال فقد قلت لي ان رولاند كانديانو لا بد ان يعود الى فينيسيا اليس كذلك ؟

فارتعش جينارو وقال : هذا الذى أرتابه .

ــ اتظن انه يعود قبل اليوم الأول من شهر شباط ؟

ــ لا أظنه يعود يا مولاى قبل منتصف ذلك الشهر .

ــ حسناً فاذهب الآن في شأنك .

فانصرف جينارو وهو يقوله في نفسه :

ــ ويح لهذا الدوج انــه يتردد في تقليدى منصب رياسة ديوان التفتيش وأنا أهبه الحياة على أن رولاند لا يتردد مثله وعلى الجملة فان فوزى بات مضموناً في الحالين .

وخرج جينارو الى القاعة التي يجتمع فيها من يريــد مقابلة الدوج وكان بينهم التيارى فوقف ينظر اليهم نظرة المنذهل إذ كانوا جميعهم من الذين ذكر اسماءهم للدوج .

أما الدوج فانه سقط على كرسيه خائر القوى بعــد انصراف جينارو وجعل يقول في نفسه : ان هذه المؤامرة لا تذكر في جانب ما يعده رولاند من وسائل الانتقام فاين هو الآن .. وماذا يصنع .. وهو سيعود فكيف ينتقم مني .

وقد تمكن الرعب من قلبه فالكنه ذكر ان النبلاء ينتظرونه في قاعــة الاستقبال فاخفى اضطرابه حتى تمكن من الابتسام وتفقد درعه وخنجره ثم فتح الباب وخرج منه الى القاعة الكبرى .

وهناك رأى التيارى ورأى اؤلئك المؤتمرين يدنون منه لأظهار خلوصهم فابرقت عيناه وبحث عن قائد حراسه وقد حاول أن يأمر بالقبض عليهم

جميعهم ولكنه ذكر لفوره نصيحة جينارو فكظم الغيظ وجعل يبتسم لهم ويرد تحياتهم بأحسن منها .

وعند ذلك دنا منــه التياري وقال ، ان الحفلة الكبرى باتت قريبة يا مولاي وقد أعدت جميع المعدات ما خلا مسألة واحدة فاننا لا نعلم أية سفينة تريد ان يكون الاحتفال ؟

قال في سفينة الأميرال ايها الصديق أليست هي العادة المتبعة الى الآن ؟

فابتسم التياري ابتسام الظافر وقال جينارو في نفسه : لم يبق فائدة من بقائي في هذا المقام .

أما الدوج فانه مضى في حديثه فقال مخاطباً التياري : وإني بمناسبة هذه الحفلة أحب ايها الصديق العزيز ان تبقى واقفاً بجانبي .

وليس ذلك لأني أخشى اقل حادثــة من حوادث الشعب ولكني أحب تشريفك في تلك الحفلة وتشريف جميع الحاضرين الآن فاني أريد ان يكونوا جميعهم أيضاً بجانبي .

وعند ذلك مر من بينهم وهو يبتسم لهم ودخل الى قصره .

٦٧

تجارة ارتين الشاعر

وليسمح لنا القراء ان نعود بهم الآن الى تلك الليلة المحزنة التي انتحرت فيها بيانكا في منزل ارتين وحين سافر بمبو هاربا الى رومة وطارده رولاند وسكالابرينو .

ويذكر القراء ان امباريا برحت فينيسيا أيضاً قبل هذه الحوادث ببضع ساعات وأنها أمرت وكيلها ان يبيع جميع فرش قصرها ما خلا تلك الصورة الكبرى ذات الإطار الذهبي أي صورة رولاند .

وكان ارتين قد حضر تلك الفاجعة التي حدثت في منزله وقد دخل الخدم جميعهم إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا بعد انصراف رولاند وسكالابرينو فلما رأى أرتين هذه الفاجعة أمر خدمه ان يحكموا اقفال ابواب القصر وقد هلع قلبه من الرعب وأقام المتاريس وأخذ يحصن الأرض تحصين القلاع بينما كانت بيريتا تشتغل بنقل جثة امباريا الى سرير وقد أخذت كل ما كان في القصر من الأزهار ووضعتها على ذلك السرير .

أما أرتين فانه بعد ان حصن قصره دخل الى غرفته وجعل يمشي فيهـا مشي المجانين ويحـدث نفسه فيقول : قبح هذا الكاردينال ولعن الله تلك الساعة التي خدعت فيها باقواله ألم يختر ذلك الوحش غـير منزلي لقتل تلك الفتاة المنكودة؟

أنه سيلقى من انتقام مطارديه مما تشيب له الرؤوس ولكن ماذا اصنع الآن بهذه الجثة .. قوتل الغرام فانه سبب كل شقاء .

وقد بات تلك الليـلة على أحر من الجمر وعند الفجر نادى أحد خدمه وأمره ان يهتم بدفن الفتاة وذلك ان يضعها في كفن ويحملهـا الى قارب ثم يلقيها الى المياه كما يدفنون المجرمين والفقراء فان الفقر كان يعد من كل عصر من الذنوب .

وفيما هو يتأهب الى ذلك جاءه رسول رولاند بتلك الرسالة التي تقـدم ذكرها وقـد عرف القراء كيف ان أرتين قد امتثل لكل ما أمر به رولاند .

وبعد الظهر خرج من قصره كي يتفق مع نجار على صنع التوابيت ولما عاد مر بزورقه بقصر امباريا فرأى الناس مجتمعين عند بابه فسأل البحار عن هذا الاجتماع .

فأجاب البحار قائلاً : كيف لم تعرف ذلك يا سيدي فان أهل فينيسيا لا يتحدثون اليوم إلا بسفر امباريا .

— أسافرت امباريا ؟

– هذه الليلة .
– هل انت واثق مما تقول :
– انهم يبيعون أثاث قصرها .. انظر ·

فأمره عند ذلك أن ينزل الى البر وبعد هنيهة كان داخل قصر المحظية فوجده غاصاً بالناس على اختلاف طبقاتهم وقد بسطت الامتعة وعرضت للبيع بالمزاد فاشترى ارتين شيئاً من تلك الامتعة وأرسلها إلى منزله وأقام تتمة البيع .

وقد لقي الوكيل وهو يعرفه فقال له . أن البيّع لم يحسن في هذا اليوم إلا بفضلي .

قال : ذلك لا ريب فيه يا سيدي واني لا أجد قولاً أعبر به عن امتناني.
ثم أشار بيده الى تلك الرسوم الجميلة وقال : تفضل يا سيدي باختيار ما تستحسنه منها .
وإنما قال ذلك كأنه يريد ان يعطيه جعلاً عن تلك الخدمة .

فلم يتردد ارتين وجعل يتفقد تلك الصور والوكيل يتبعه بمصباحه من قاعة الى قاعة حتى انتهى الى تلك الغرفة التي كانت امباريا قد جعلتها شبه معبد ووضعت فيها صورة رولاند .
فوقف فيها أرتين وقال : هو .. أصورته هنا !

وكان ارتين لم يعرف اسم رولاند الا من عهد قريب ولكنه عرف معظم تاريخه بعد ان عرف اسمه فقال للوكيل : اتعرف صاحب هذه الصورة ؟

قال : نعم فهو رولاند كانديانو ابن الدوج السابق .
– إذن لقد كانت تعرفه امباريا ؟

– لا أعلم ولكن الذي أعرفه ان المصور الذي رسمها اقام في صنعها أربعة أشهر وقد جعلت سيدتي إطاره من الذهب الخالص .

— ومن يسألك عن الاطار الذهبي فخذه واعطني الصورة وهذا كل ما أطلبه مقابل خدمتي .

— اني أعطيك إياها للفور .

فأخذها أرتين وهو يعتبر انه استولى على كنز لانها كانت من صنع تيتيان أشهر مصور في ذلك العهد وذهب بها الى منزله وهناك جعل ينظر اليها معجباً فيتنهد ويقول: ماذا عساي أن اصنع بهذا الرسم البديع فلو كنت من الأغنياء لحفظته عندي .

وأقام بضعة أيام وهو يفتكر في طريقة بيع هذه الصورة الى ان قال في صباح يوم : لقد وجدت الطريقة ثم وثب إلى سريره فلبس ملابسه وذهب تواً الى منزل دندولو ومعه الصورة .

وهناك استقبله خادم واخبره ان دندولو يقيم منذ حين في قصر صهره التيباري فذهب تواً الى قصر القائد العام وهناك التمس مقابلة رئيس ديوان التفتيش وبعد هنيهة كان واقفاً أمامه فأشار اليه بالجلوس وقال له : انك طلبت مقابلة رئيس ديوان التفتيش ولكني استقلت من منصبي ومع ذلك ...

قال : اني اتأسف لحرمان فينيسيا من رئيس مثلكم ولكني التمست مقابلة السيد دندولو لا رئيس ديوان التفتيش .

— إذن تريد مقابلتي مقابلة شخصية ؟

— نعم يا سيدي فقد خطر لي ، ولا أعلم كيف جاءني هذا الخاطر ، انك أو ان احداً من ذويك تحفظان أثر صداقة لرجل من اصحابك وهو رولاند كانديانو .

فلم يكد ارتين يتم كلامه حتى شعر أنه قد كتب خطأ عظيماً إذ رأى دندولو قد نهض فجأة وهو مصفر الوجه مضطرب اليدين وذهب إلى الباب فأقفله ثم عاد الى الشاعر فقال له : ما الذي حملك على أن تظن هذا الظن..

وماذا أتيت لتقول لي فهل انت آت من قبله .. قل أهو الذي أرسلك ؟

ـ كلا يا سيدي فاني آت من تلقاء نفسي وما زال هذا الاسم قـــد أثر عليك هذا التأثير فانا مخطىء دون شك وسأعود من حيث اتيت .

ـ بل ابق وقل بحرية وجلاء ما تريد قوله بشأن رولاند كانديانو .

ـ أظن يا سيدي انه فيما مضى كان معدوداً من عائلتكم .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ومن يجهله يا سيدي الا تعلم انهم لا يزالون الى اليوم يذكرون ليونور ورولاند ويقولون عشاق فينيسا .

ـ كلا لا اعلم ولا أريد ان أعلم .

ـ اني لم اقل هذا القول إلا لأظهر لك بأني كنت احسب انك لا تزال تحب رولاند وإنه لم يفصله عنكم غير حادثة مؤثرة حدثت بالرغم عنك .

فزاد اصفرار وجهه وقال : ايقول ذلك ؟

قال : نعم وربما كانوا مخطئين في كل حال فما هي الا اشاعات تلقتها من افواه الناس دعتني الى فعل ما فعلت وانا غير مسؤول .

ـ ماذا فعلت ؟

فابتسم ارتين وقال : ذهبت الى قصر امباريا متنزها وتفقدت قصرها وهم يبيعون ما فيه بأغلى الأثمان لأنه من ابدع الرياش فكان من جملة ما رأيته هناك رسوم من صنع المصور المشهور تيتيان فأخذت رسماً من بينها وجدته افضلها واشتريته بمائتي دينار وهو رسم رولاند .

ولم اكن راغباً بشرائها ولكني كرهت ان تقع هذه الصورة بيد من يجهل قدرها فاشتريتها وخطر لي ان ابيعكم إياها رحمــة بجمال الصناعة ليس إلا وانظر يا مولاي يتبين لك صدق قولي .

وعند ذلك كشف الستار عن الصورة فارتعش دندولو إذ ظهر له رولاند كأنه مائل امامه لا يعوزه غير الكلام .

وكانت الصورة تنظر إلى كل من ينظر اليها فاضطرب دندولو اضطراباً عظيما وخيل له كأنما رولاند يقول له : ماذا فعلت بي وبماذا اسأت اليك انا او بقتك فالقيتنا إلى هوة الشقاء .

وبينما ارتين ينظر الى دندولو منذهلاً لما رآه من اضطرابه لمرأى الصورة رأى باب الغرفة قد فتح وبرزت منه امرأة لم تقع العيون على أجمل منها فدنت من دندولو وقالت له : أبي اني أريد شراء هذه الصورة .

فانحنى ارتين أمامها وقد أعجب بكلامها نفس اعجابه بجمالها ولكن ليونور لم تنظر اليه ولا إلى الصورة .

أما دندولو فقد علم ما يجول في نفس بنته فلم يبد أقل اعتراض وأشار إلى الشاعر أن يتبعه فتبعه إلى غرفة أخرى وهناك نقده ثمن الصورة .

فقبض ارتين الثمن وقال له ، يسرني يا سيدي ان هذا الرسم الجميل لم يقع بيد سواك .

فشكره دندولو وشيعه الى الباب وقال له : اقسم لي انك أتيت من تلقاء نفسك وأن رولاند لم يرسلك .

فقال له : اقسم لك يا سيدي اني لم أقل إلا الحقيقة وحاشا للشعراء ان يكذبوا إلا بشعرهم .

وخرج وهو مطرق الرأس نادم على ما فعل فانه ايقن بعد ما رآه من ليونور أنه لو طلب ثمن هذا الرسم اربعمائة دينار لقبضها للفور .

* * *

وبعد ذلك بيومين سافر ارتين بجثة بيانكا إلى مستر وانفذ أوامر رولاند بغاية الضبط كما تقدم لنا بيانه .

٦٨

الأب والبنت

عندما ذهب ارتين وذهب معه دندولو وخلا المكان لليونور نظرت الى تلك الصورة التي رسمها تيتيان أشهر مصور في ذلك القصر .

وهو ذلك المصور نفسه الذي التمس منها مرة يصورها فأجابته قائلة ، ان رسمي وجسمي لا يكونان إلا لخطيبي .

فعاد إلى رومه وهو يقول : لقد عدت من فينيسيا بثلاث تذكارات لا يمكن أن انساها وهي داخل كنيسة سانت مارك وسماء فينيسيا المرصعة بالنجوم ونظرات ليونور دندولو .

وقد نظرت إلى صورة رولاند بتلك النظرات التي فتنت لب المصور وقالت له والدموع تجول من عينيها : أي رولاند أنك لا تزال قريباً مني .. رولاند ايها الحبيب الكريم حبذا لو كنت تسمع كل ما يقوله لك قلبي منذ فراقنا الهائل بل حبذا لو تمكنت ان أدخل إلى قلبك واعرف بماذا حكمت علي . رولاند ان عذابي لا تصفه الاقلام فقد لقيت ما لم يلقيه بشر فيبقى في قيد الحياة.. رولاند ان رسمك هذا لا يسكن عذابي بل يزيده .. رولاند اني أجد العذاب عذباً في هواك ويسرني أن تكون شقوتي بك ولأجلك .

وقد جلست على كرسي وجعلت تتمعن بذلك الرسم فبقيت على ما هي عليه الى ان عاد أبوها ورآها جالسة قرب الصورة فقال لها :

— من يعلم يا ليونور فقد تكونين مخطئة بشراء هذه الصورة .

فهزت ليونور رأسها ولم تجب فقال لها : هل تريدين الاحتفاظ بها ؟

قالت : نعم يا أبي فليس لدي منه تذكار .

— ولكن ضعيها على الاقل في موضع خفي بحيث لا ترينها في كل حين .

— بل اني اؤثر ان تكون دائماً بقربي .

فجعل دندولو يسير في تلك الغرفة بخطوات مضطربة يتوجس خيفة من هذه الصورة إذ كان يعتقد أن بنته نسيت رولاند فوجد بعد حادثة الصورة انه مخطيء في ما توهم وقد ذكر عند ذلك حقيقة توهمه فان ليونور بعد شقائها كانت تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع تختار لذلك يوماً معيناً وساعة معينة لا تخطئها .

وقد كان التياري أرسل مرة أحد خدمه في أثرها وعلم إلى اين تذهب فلما عادت من النزهة وجدت زوجها واقفاً أمامها فقالت له بجفاء : ماذا تريد ؟

فاضطرب لجفائها وقال لها : لا شيء سوى اني أريد ان اقول لك بأنه ليس من الحكمة ان تخرجي وحدك في ظلام الليل وسأرسل معك من يخفرك .

— قالت : اني لا اتنزه بعد الآن .

قال : بل اختاري على الاقل موضعاً آخر للنزهة .

قالت : ان هذا المكان يعجبني إذ لا أجد فيه ما يقرع ضميري .

فخرج التياري وهو يزبد من الغيظ وجعل دندولو بعد ذلك اليوم يصحب بنته في نزهتها .

أما هذا الموضع التي كانت تذهب اليه فكان جسر التنهدات فكانت تسير في زورقها حتى تصل اليه ثم تعود إلى القصر .

وكان دندولو يقود في أكثر الاحيان ذلك الزورق فاتفق ذات يوم أنه حين وصل معها الى جسر التنهدات رأى زورقاً قد دنا من زورقها وفيه رجل رآه وعرف انه رولاند كانديانو وسمع ما قاله لها .

ويذكر القراء تلك المقابلة حين اراد رولاند انقاذها من ابن كريماني وقال لها : اهربي ولا تخرجي من قصرك قبل شهر .

فلما سمع ابوها هذا الكلام اسرع الى العودة بها وهو يضطرب اضطرابا شديداً ويقول في نفسه : ان رولاند يراقبها ويحميها .

وقد جعل ينظر الى بنته في الطريق فيجدها ساكنة هادئة بالظاهر وهو لا يعلم ما يثور بقلبها .

فلما وصلا الى المنزل قال لها : أرأيته ؟

قالت : نعم يا أبي .

— أعرفته؟

— نعم .

فلم يسألها ابوها غير هذا السؤال ولكنه كان يرتعش سروراً لما كان يراه من عدم تأثرها .

وقد اطمأن منذ ذلك اليوم لاعتقاده ان بنته قد سلت رولاند وأنه يستطيع في المستقبل تنفيذ خطته التي قررها بعد اختصامه مع التباري وهي انه يعيش وإياها في منزل معتزل .

غير انه حين رآها واقفة أمام صورة رولاند تتمعن بها عاوده الشك فقال لها بعد سكوت قصير : اذن لقد عزمت على الاحتفاظ بهذه الصورة ؟

فأجابته بذلك الايجاز الذي ألفته منذ نكبتها قائلة : نعم .

— الا تخشين ان تحزنك يا ابنتي اطالة النظر الى هذا الرسم .

— كيف ذلك يا أبي ؟

— انه ينبه في نفسك تذكارات قديمة .

— اية تذكارات تعني ؟

وقد قالت له ذلك فاحمر وجهه وعلم انه بات يخاف اكثر منها ذكر ذلك الماضي .

وعند ذلك عاد الاثنان الى السكوت وقد نهضت ليونور تحاول الذهاب الى غرفتها فقال لها أبوها : اجلسي يا ابنتي واصغ الي .

فامتثلت ليونور وجلست أمامه فقال لها : اتعلمين يا ليونور انه سيحدث حوادث خطيرة في فينيسيا فانك تعرفين سر المؤامرة وتعلمين انه لا بد من حدوث ثورة قريبة .

— ماذا تعني بذلك يا ابي ؟

— ألم يخطر لك ابداً ان فينسيا هي المدينة التي لقينا فيها أشد العذاب وان كلمة او حادثة مثل حادثة هذه الصورة تنبه فينا جميع تلك الاحزان الماضية .

— اني افتكرت كثيراً بهذه الأمور .

فلمعت عيناه ببارق من الفرح وقال لها بصوت منخفض : اتعلمين ماذا فعلت ؟

— كلا يا أبي .

— اذن فاعلمي اني بعت جميع ما امتلكه في فينيسيا حتى ان منزل دندولو نفسه لم يبق لنا وكذلك كل ما كان لدينا من التحف فاني بعتها بالسر بحيث اصبحت ثروتنا ذهباً .

وقد عهدت الى رجل وفي بنقل هذا الذهب الى ميلانو وهو ينتظرنا فيها ألم تنهي قصدي ؟

— العلك تريد الفرار ؟

— نعم إذا سافرت معي فان زورقاً جميلا ينتظر امام القصر منذ ثمانية ايام وفيه ثلاثة بحارة مخلصون لي فاذا شئت هربنا في هذه الليلة .

وقد اتخذت جميع ما ينبغي اتخاذه من الوسائل التي تساعدنا على الخروج بالسر من هذا المنزل اذ لا نخرج من احد أبوابه بل من أحد نوافذه فاني اعددت سلماً من الحبال نعلقه بحديد النافذة ونهبط عليه الى الطريق أرأيت ؟

— نعم انها سهلة .

ـ أتوافقين إذن على الفرار في هذه الليلة ؟
ـ كلا يا أبي .
ـ كلا إذن ليكن ذلك غداً أو في اليوم الذي تختارينه .
ـ كلا اني لن أهرب .

ـ كيف ترفضين الفرار الا تعلمين ... فقاطمته قائلة : انك إذا أردت الفرار يا أبي خوفاً على نفسك من عاقبة الثورة فافهم وكن موقناً اني استطيع الدفاع عن نفسي أما أنا فاني لا أخاف شيئاً وسواء انتصر التياري أو انخذل فان حياتي لا تتغير .

ـ ولكن أنا ماذا أعمل فان المؤتمرين يراقبونني فاذا لم يقتلني التياري قتلني فوسكاري :
ـ لقد أصبت يا أبي ووجب عليك ان تهرب .
ـ كيف أهرب وأنت هنا ؟

ـ قلت لك لا تخشى علي واذهب وحدك اذ يستحيل علي ان أبرح هذا القصر أما أنت فان الخطر عليك شديد ولا بد من فرارك .
ـ معاذ الله ان افترق عنك لحظة .
ـ ارجوك ان تتمعن في ذلك عساك أن تذعن .
ـ وأنت ايضاً تمعني يا ابنتي فان حياتك في هذا القصر عذاب .

وعند ذلك افترقا فدخل دندولو الى غرفته ودخلت هي الى غرفتها ولم يكن يفصل بين الغرفتين غير باب .
أما ليونور فقد دخلت وهي غير محتاجة الى التمعن فانها كانت مصممة كل التصميم على البقاء في فينيسيا .

أما دندولو فقد قال في نفسه : لا شك اني لا ابرح فينيسيا إلا إذا برحتها معي ومع ذلك فاذا اكرهتني الحوادث استطيع السفر ببضعة أيام .

٦٩

لقـــاء

في اليوم التالي لذلك اليوم الذي عاد فيه رولاند الى فينيسيا بعد موت الكاردينال كان جينارو رئيس البوليس جالساً في غرفته يطالـــع تقارير جواسيسه الاخصاء .

وكان ذلك اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني وقـــد ظهر القلق على وجه الرئيس فكان يسأل كلا من جواسيسه عن مسألة واحدة فاذا لم يجبه عليها سمع بقية تقريره بملء الضجر واطلق سراحه .

وما زال على ذلك إلى ان دخل عليه احدهم فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : اني جلت امس حسب أمرك بين خمارات الميناً .

— ماذا سمعت ؟

— سمعت حكايات غريبة اخصها ان ابن الدوج كانديانو السابق موجود الآن فيفينيسيا وانه يتأهب للاستيلاء على سراي الدوج وانه سينقذ الشعب من مظالم فوسكاري .

— أأنت واثق مما تقول ؟

— كل الثقة بل اني سمعتهم يصرخون فيقولون ليسقط فوسكاري دوج فينيسيا وليحيى رولاند دوج الشعب .

— ما هذا أحق ما تقول ؟

— نعم يا سيدي .

— حسناً فعد إلى تلك الخمارات وعد الي بكل ما تسمعه وتعلمه .

ثم اطلق سراحه ونادى سواه من الجواسيس فقال له ، اخبرني بمـــا لديك .

قال : كنت امس يا سيدي قرب خمارة مرسي الذهب .
فذكر الرئيس انه زار امس تلك الخمارة وقال له : ما رأيت ؟
قال : رأيت برتولو خارجاً منها مع رجل .

— من هو هذا الرجل ؟
— لا أعرفه .
— إذاً ماذا عرفت ؟
— ليس هذا الذي كنت احاول معرفته يا سيدي فانه بينما كان برتولو يحادث ذلك الرجل دخل رجل آخر متلصصاً الى الخمارة .
— أكان من اللصوص ؟
— كلا فاني اعرف اللصوص من مشيتهم .
— وماذا حدث ؟

— حدث ان برتولوا دخل بعد هنيهة الى الخمارة فوقفت عنــــد الباب اتنصت فسمعت اصواتاً تدل على الخصام وعرفت صوت ذلك الرجل وبعد المشاجرة بالكلام سمعت صوت عراك عنيف ثم ساد السكوت وبعد هنيهة برح الرجل الخمارة .
— اتبعته ؟
— دون شك .
— وعرفته ؟

— سوف تعلم يا سيدي فاني تبعت هذا الرجل الذي خيل لي اني عرفته من صوته ثم من قامته ومشيته فمـا زال يسير وانا في أثره حتى وصل الى جزيرة اوليفور .
فوقف الرئيس وقال ؟ من هو هذا الرجل ؟
— انه سكالابرينو وأنا أعرف الآن اين يقيم بحيث نستطيع القبض عليه متى نشاء .

ـ احذر ان تقول كلمة من هذا الحديث أفهمت ؟

ـ نعم يا سيدي ولكن ليس هذا كل ما أريد قوله فاني بعد أن عرفت المكان الذي ذهب اليه سكالابرينو أحببت ان أعلم غايته من الذهاب الى الخمارة ونتيجة ذلك الخصام الذي حدث وأنا عائد الآن من خمارة مرسى الذهب .

ـ ماذا علمت ؟

ـ عندما وصلت رأيت بابها مقفلاً على غير عادتها وقد اجتمع كثير من الشاربين وقلقوا على صاحب الخمارة فنادوا البوليس كسروا الباب وبعد البحث وجدوا جثة برتولو في القبو .

ـ برتولو قتيل !!

ـ نعم وان قاتله سكالابرينو .

وقد سكت الجاسوس واقام ينتظر تهنئة الرئيس ومكافأته على هذا الاكتشاف .

أما جينارو فانه جعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم وقف فجاءة وقال له : لا يجب ان تقول كلمة مما أخبرتني به .

ـ سأبالغ بالكتمان يا سيدي .

ـ لا شك عندي بحرصك على الكتمان وانما أوصيك من قبيل المبالغة بالحذر فاحرص على الكتمان خمسة أو ستة أيام أي الى يوم الثاني من شهر شباط أفهمت ؟ والآن فاذهب فلا حاجة بي اليك .

فانصرف الجاسوس ودخل بعده جاسوس آخر فحدق به رئيس البوليس ثم قال له : اني اهنئك بحسن تنكرك فاني لم اعرفك فمن أنت ؟

فنزع شعره ولحيته المستعارين وقال له : أرجو ان تعرفني الآن .

فوقف جينارو وقد دهش دهشاً عظيماً وقال بصوت ابح : مولاي كانديانو ؟

ـ إذا كنت تتكلم بهذا الصوت المرتفع تضطر الى القبض علي إلا اذا اضطررت أنا الى القبض عليك .

ـ اعذرني يا مولاي فلم يكن يخطر لي في بال أن أراك هنا .

ـ لماذا اليس لنا فائدة مشتركة تقضي علينا بان نجتمع من أجلها اما أنا فهذا معتقدي ودليل ذلك اني أتيت مساء أمس الى فينيسيا فكانت زيارتي الاولى لك وقد اتيت اسألك إذا كنت تجد الآن الفرصة موافقة لقبض علي وتسليمي الى مجلس العشرة .

وكان جينارو يصغي الى كلامه وهو منذهل لا يعلم ما يريد منه رولاند وقد عرف القراء ان هذا الرئيس كان من أهل العزيمة والادارة السريعة فرأى بسرعة التصور انه إذا قبض على رولاند انقذ فوسكاري ونال ذلك المنصب الذي يطمع فيه ولكنه رأى ايضاً ان الجو لا يخلو لفوسكاري بعد ذلك وأن فوز رولاند اسرع الى تحقيق اماله فوقف أمامه وقفة الاحترام وقال له : لقد رجعت يا مولاي عن فكر القبض عليك .

قال : يسرني ان اعرف السبب في ذلك .

ـ السبب بسيط يا مولاي فهو اولاً معرفة الجميل .

ـ لم يبق لي عليك جميل فقد وفيت دينك فلا تبحث في هذا الموضوع .

ـ وفوق ذلك فاني أرى الحق في جانبك ما زلت من انصار العدالة والحق .

ـ ان هذا السبب غير كاف فان من كان مثلك لا ينظر إلى وجوه العدل والظلم إلا في آخر اعماله .. كلا ليس هذا بالسبب الاكيد وما زلت تأبى ان تكون حراً في مقالك فسأقول عنك ما كان يجب ان تقوله فاصغ الي انك إذا قبضت علي بيمينك فوسكاري رئيساً لديوان التفتيش بعد ساعتين وهذا منتهى مطامعك .

ـ ارأيت إذن يا مولاي ان الحق وحده الذي ...

فقاطعه رولاند قائلاً : كنت احسب انك أشد صبراً مما أراك فانك إذا قبضت علي تصبح رئيساً لديوان التفتيش كما قلت لك وبعد ذلك ماذا يحدث؟

ان يوم أول شباط يأتي وأكون أنا في السجن فينشب القتال بين فوسكاري والتياري أليس كذلك ؟

ــ دون شك يا مولاي .

ــ وانت تعلم يقيناً ان الفوز يكاد يكون مضموناً لالتياري ومتى فاز يكون أول همه ان يلقي في ابار السجون جميع انصار فوسكاري وانت في مقدمتهم وهذا هو السبب الذي دفعــك الى الرجوع عن القبض علي فماذا تقول .

ــ أقول انك من النوابغ يا مولاي .

ــ وانا اقول انه كان يجب ان تقول الحقيقة وان لا تحاول إكراهي على تعيينك في المنصب الذي تطمع فيه وانت لا تظهر لي من الكفاءة ما يحملني على الرضى بهذا التعيين .

ــ هل فات الاوان ؟

ــ نعم إلا اذا اسلمت من غير شروط .

ــ لقد رضيت يا مولاي .

ــ ارضيت ان تكون لي دون ان تقيدني بقيد ؟

ــ نعم يا مولاي ولكنني التمس من عظمتكم ان لا تنسى بأني كنت قادراً على ان أكون حائلاً دون مقاصدكم .

ــ ذلك يفيد انك تسألني منصب رئيس ديوان التفتيش .

فانحنى جينارو دون ان يجيب .

ــ يسوءني اخبارك باني عزمت على الغاء هذا المنصب .

فاصفر وجه رئيس البوليس وكفاه بهذا النبأ داعياً للاضطراب فانه قضى قضاء مبرماً على أمانيه .

وعند ذلك أخذت العوامل تتنازعه حتى انه نظر الى الباب كأنه عزم على القبض عليه والميل الى جهة فوسكاري .

على انرولاند كان يفحص وجهه ويقرأ افكاره حتى رآه مد يده يحاول قرع الجرس .

فوقف رولاند ودنا من النافذة فقال له :

ــ قبل ان تقرع الجرس تعال وانظر فاني لا أحب ان ترتكب هفوة قد لا اعفوها لك .

فشعر جينارو بان لرولاند سلطانا عليه فقال له : مولاي اتحب اني ..

فقاطعه قائلاً : تعال وانظر .

فامتثل جينارو ودنا من النافذة فقال له رولاند : ماذا ترى ؟

فنظر جينارو الى الرصيف الذي كانت تشرف عليـــه من النافذة ولم يجب .

فقال له رولاند : كم تستطيع ان تحشد من الرجال للقبض علي ؟

قال : اني إذا ناديت رجالي جاءني منهم مائة رجل على الأقل ولكني لا أريد القبض عليك .

قال: ولكن هؤلاء الذين تراهم يذهبون ويجيئون يزيد عددهم على اربعمائة رجل ويوجد مثلهم في الشوارع المجاورة فاذا أردت ان تثير معركة دموية يا جينارو فافعل .

ــ لقد قلت لك يا مولاي اني استسلمت اليك .

ــ دون شروط ؟

ــ دون شروط ولكن استسلم الى كرمك ومروءتك .

ــ حسناً فاجلس الآن لنتحدث إذ لدي ما اسألك عنه بشأن الحفلة الكبرى فقل لي في أية ساعة يخرج الدوج من سراياه في ذلك اليوم ؟

قال : في الساعة التاسعة من الصباح تقريباً .

إذن صف لي بالتدقيق الموكب الذي يسير فيه الدوج الى ليدو فمن ايةقرية يتألف الحرس ؟

ــ من فرقة الرماحة وحملة البنادق فانهم يذهبون الى سفينة الأميرال بحجة انهم يريدون حماية الدوج فيها .

ــ اين يكون موقف التياري القائد العام ؟

ــ بجانب الدوج وذلك منذ خروجه من السراي .

ــ أرى يا جينارو انك انت الذي دبرت هذه التدابير والآن فما الذي عرفته من انباء المؤتمرين ؟

ــ ربما اكون لا اعرف شيئاً يا مولاي لا تعرفه فانت تعرف خطـــة المؤامرة حق العرفان ولكن الذي عرفته حديثاً ان التيارى وافق على إرسال الفرق إلى سفينة الأميرال والحقيقة انه يريد القبض على الدوج فوسكاري في ساعة الحفلة.

وفي تلك الساعة نفسها تزحف فرقة الى سراي الدوج وهي خالية من الحراس .

وعند ذلك يقرع جرس سانت مارك وتقتدى بـه أجراس الكنائس فيحتل الجنود مراكز الدفاع في المدينة .

ــ هذه خطة التيارى فقل الآن ما تعرفه عن خطة فوسكاري .

ــ انها على اتم البساطة فان الموقف سيقف عند رصيف ليدو وعند ذلك يضرب فوسكارى التيارى الواقف بجانبه الضربة القاضية بدلاً من ان يذهب الى سفينة الأميرال .

وفي الساعة نفسها يطعن كل قائد من قواد فوسكارى زعيما عن زعماء الثورة وقد عين لكل قائـــد الزعيم الذي يجب ان يطعنه بحيث يأخذهم على غرة .

أما سفينة الأميرال فسيحيط بهـــا ساعة الحفلة سفينتان عليهما جنود مخلصون للدوج.

ــ انها خطة بسيطة مثل كل خطة صالحة ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن الجواسيس .

ــ ان جواسيسي سينتشرون في جميع انحاء المدينـة ويصيحون في كل مكان ليحيى فوسكاري بحيث يجذبون معهم الشعب والكني استطيع ان أدعهم يهتفون لغير فوسكاري .

ــ لا فائدة من ذلك فدعهم يهتفون له قدر ما يشاؤون بل اني اوثر هذا الهتاف ولكن لا يجب ان تغير شيئاً من خطة الحفلة وكذلك خطة المؤتمرين فانها لا تغير .

ــ إذن لا يبقى علي يا مولاي إلا ان انتظر اليوم الاول من شهر شباط.

ــ نعم يجب ان تصبر بملء السكينة كما أنا صابر .

وعند ذلك نهض رولاند يريد الانصراف فلما وصل الى الباب قـال له جينارو :

ــ كلمة واحدة يا مولاي .

ــ ما هي ؟

ــ إذا حدث حادث لم اكن اتوقعه فاين أجدك ؟

فحدق رولاند بجينارو ونظر اليه نظرة اضطربت لها اعضاؤه ثم قال له دون تردد ، انك تجدني في بيت الجزيرة فاني أكون فيه وحدي كل ليلة .

ــ لا أرى من الحكمة ان تكون وحدك يا مولاي .

ــ لا أكون وحدي بل يكون معي ايضاً والدي الأعمى المجنون . وقد ذكر أباه واتقدت عيناه ببارق مخيف من الانتقام فانحنى جينارو كأنه أراد اتقاء هذه البوارق الهائلة وعندما رفع رأسه رأى رولاند يسير في الرواق بملء السكينة فقال في نفسه :

— وحده مع أبيه الأعمى المجنون !

وبعد أن توارى رولاند عن نظره جلس في كرسيه واطرق مفكراً فجعل يقول في نفسه :

— ترى لماذا يريد ان يلغي منصب رياسة ديوان التفتيش .. انه يخطىء في ذلك خطأ عظيما .. نعم ولكن أحق ما يقول انه يبيت وحده كل ليلة في بيت الجزيرة .. صبراً يا جينارو ولا تتسرع فان موقفك خطير .

وقد جعل يتمشي في غرفته وهو يتمعن ويفتكر إلى ان استقر على رأي فقرع الجرس .

وبعد هنيهة دخل اليه أحد خدمه فحدق به كأنه يريد ان يسبر اعماق قلبه ويعلم إذا كان يستطيع الركون اليه فقال له :

— أريد ان تذهب...

ثم توقف عن اتمام الحديث وقد ظهرت عليه علائم التردد فقال :

— كلا لا فائدة من ذلك فعد الى حيث كنت .

فامتثل الخادم وانصرف .

أما جينارو فانه قام الى غرفة ثانية كان يضع فيها ملابس التنكر فتنكر تنكراً عظيما بحيث كاد ان لا يعرف ذاته وقال في نفسه :

— ان مثل هذه المهمة لا يجب أن اعهد بها الى سواي .

واليك بيان ما جال في خاطره .

فقد رأى انه إذا ترك الأمور تجري في مجاريها كان النصر مضموناً لرولاند دون شك .

وأية فائدة له من فوزه فان رولاند نفسه قـــال له انه سيلغي منصب رياسة ديوان التفتيش وهذا المنصب كان كل ما يطمع به رئيس البوليس .

وهو يريد هذا المنصب فانه لم يكن فاسد الطبع لئيم النفس ولكنه كان شديد الطمع ميالاً الى مهنته كل الميل بحيث كان يريد ان يبلغ في الترقي بها

إلى أبعد حد أي منصب الرئيس الأكبر وما زال رولاند يريد الغاء هـذا المنصب الذي يطمع فيه وهي الغاء رولاند نفسه .

وهنا تشعب فكر جينارو الى طريقين فانه إذا كان يريـد القضاء على رولاند يجب ان يكون واثقاً من ان ضربته ستكون القاضية واذا فشل بها انتقم منه دون شك وكان انتقامه هائلاً .

ولذلك خطر له ان يقتل رولاند ولكنه لا يقتله بيده بل يرسل له من يقتله فاذا فشل لا يكون مسؤولا لدى رولاند ولا يكون معرضاً لانتقامه .

ولكن من هذا الذي سيرسله. ان القراء سيعرفونه أما جينارو فانه كان يفتكر به فيقول :

— انه اذا نجح بقتل رولاند فزت انا بما ابغيه وإذا لم ينجح لا يعلم رولاند الحقيقة بل سيكون مديناً لي بالامتنان لأني انا سأتولى انذاره .

اما هذا الرجل الذي اختاره جينارو لقتل رولاند فانه كان التياري القائد العام .

وقد قلنا ان فكره كان متشعباً بطريقين اما الطريق الثانية فهي المؤامرة فانه كان يفتكر بها فيقول انه إذا فاز التياري يخبره جينارو بأنه كان يعرف سر هذه المؤامرة من عهد بعيد ولكنه كان يكتم أمرهـا لميله اليه وفوق ذلك فانه سوف يرشده الى طريقه للتخلص من رولاند وذلك كاف لنيل رضاه .

وإذا فاز فوسكاري كان منصب جينارو مضموناً فانه يعود عودة الظافر الى سراي الدوج بهذا المنصب فهو لا يرجع عن وعده .

فلما فحص جينارو هذه الخطة وقلبها في جميع وجوههـا ذهب تواً الى قصر التياري .

وكان متنكراً كما قدمناه فاضطر الى البقاء في قاعة الانتظار الى ان يؤذن له بالدخول .

وقد لقي هناك كثيراً من القواد الذين ينتظرون يوم أول شباط بفارغ الصبر وهم يتحدثون بهذا اليوم بطريق الالغاز ولكنه كان يفهم الغازهم وهم لا يشعرون .

وقد صبر الى ان جاء أحد خدم التياري فقال له : اني قادم بمهمة الى مولاي القائد العام .

قال : من قبل من ؟

قال : من قبل رئيسي جينارو رئيس البوليس .

قال : حسناً فانتظر .

وبعد هنيهة عاد فادخل جينارو الى القائد العام فقال له التياري : أأنت قادم من قبل جينارو كما قلت ؟

قال : كلا يا مولاي بل اني جينارو نفسه اتيت متنكراً .

— لقد عرفتك الآن من صوتك ولكن لما تنكرت ؟

— لأن التنكر عادة قديمة عندي وفوق ذلك فاني ما أحببت ان يراني أحد عندك لأني قادم اليك بمهمة سرية .

فأشار اليه بالجلوس وقال له : اني مصغ اليك .

وفي الوقت نفسه جرد خنجره وجعل يلعب به وهو مصغ اليه .

فقال له جينارو : ماذا تقول يا مولاي إذا قبضت على رولاند كانديانو فارتعد التياري واتقدت عيناه .

فابتسم جينارو وقال : اني ما احببت ان اقدم على هذا الشأن الخطير دون ان أخابرك فيه .

— هل أخبرت به الدوج ؟

— كلا فقد خطر لي ان تعلم ذلك قبله .

فنظر التياري اليه نظرة المرتاب لأنه كان يعلم أنه من اخصاء الدوج فاضطرب في أمره وقال في نفسه : ما عسى يريد مني هذا الداهية العله قادم

لتجسس احوالي ولما ذكر القبض على رولاند فجأة دون مقدمة .

ثم قال له بصوت مرتفع : لماذا أتيت تحدثني بأمر هذا الرجل دون سواي أتعلم اني ادير بوليسة الجمهورية .. نعم اني استغرب ذلك على ان ادارة البوليس لو كانت بيدي لما تجاسر رولاند ان يعود الى فينيسيا وهو رئيس العصاة الثائرين بل اني كنت قبضت عليه من عهد بعيد وجازيته بما يستحقه من الاعدام .

ــ ومع ذلك فقد تجاسر وعاد الى فينيسيا .

فارتعش التياري ارتعاشاً ظاهراً وقال : ماذا يريد وماذا اتى يعمل ؟

قال : ارأيت يا سيدي انه يهمك ان تعلم ما جرى لرولاند فانك كلمتني بلهجة عنيفة كان يجب بعدها علي استئذانك بالانصراف ولكني صديق لك.

ــ انت صديقي ؟!

ــ نعم صديقك ولماذا الانذهال وأنا أعلم كثيراً من الأمور .

فاصفر وجه التياري وقال : بماذا تتعلق هذه الأمور التي تعرفها ؟

ــ ولكن.:. برولاند كانديانو .. وأعرف على الأخص ان بينك وبينه عداء شخصياً هائلاً فلنتكلم يا سيدي بحرية وبرهاني علي حريتي في قولي اني محتاج اليك وسأبين لك هذه الحاجة في غير هذا المقام .

ــ متى :

بعد شهر أو بعد نصف شهر فاني مضطر في خلال هذه المدة الى التغيب عن فينيسيا لأني احب ان أتجاهل ما سيجري خلال هذه المدة من الحوادث فليقبضوا على رولاند ويطلقوا سراحه .. وليفعلوا غير ذلك فاني لا أحب ان اعرف شيئاً .

ــ هل لك ان تقول لي لماذا تريد مبارحة فينسيا ؟

ــ السبب الوحيد الذي ذكرته لك وهو اني لا أحب أن أعلم شيئاً مما سيجري في هذه الأيام .

فوقف التياري فجأة وقد ايقن الآن ان رئيس البوليس عـــارف بسر المؤامرة ودنا منه .

فقال جينارو في نفسه : أني إذا قلت كلمة في غير موضعها كنت من الهالكين .

أما التياري فانه حدق به وقال له ، ماذا تظن أنه سيجري ؟

ــ لقد قلته لك منذ هنيهة أي انهم سيقبضون على رولاند .

فتنفس الصعداء وعاد إلى مجلسه فقال ، لماذا لا تريد ان تتداخل في شأن القبض عليه ؟

ــ ذلك لأني حاولت القبض عليه ولم انجح وبت أخاف إذا حاولت ذلك مرة ثالثة ان لا انجح ايضاً وهو اعتقاد راسخ في لا يتزعزع ولا أعلم إذا كنت تفهم ما أعنيه كما ينبغي .

ــ امض في حديثك .

ــ لقد رأيت هذا الرجل الهائل فخفته وأنا لم أعرف الخوف على ما مر بي من الاخطار لاسيما وقد علمت يقيناً ان أمر القبض على كانديانو لم يعد من أمر البوليس بل أصبح شأناً عائلياً يفض بالمبارزة فقلت في نفسي أنــه يوجد في فينيسيا من يهمه أن يعـلم بان رولاند كانديانو يبيت الليلة وحده في المنزل .

فارتعش التياري ولكنه أخفى اضطرابه وقال له : من هذا الذي يهمه ان يعلم ما قلت ؟

ــ انت يا التياري وقد وعدتك أن أكون حراً في مقـــالي الى آخره وسأفعل ولو كان قولي يسيئك إلا أعلم أنك كنت ورولاند تحبان امرأة .. ألا أعلم ان حياة هذا الرجل باتت حاجزاً منيعاً دون سعادتك والحقيقة ان القبض على رولاند لا يفيدني شيئاً بشرط ان لا أدعه يسيء الى الجمهورية خلافاً لك ولذلك تخليت لك عنه وأنا اعتقد اني خدمتك أجـــل خدمة .

لا تعجب يا سيدي مما اقول فانك ما جفوتني وابعدتني عنك إلا لاعتقادك بأني شديد الإخلاص لسواك وأما أنا فاني من أشد المخلصين لك وقد ساءني أن أراك مسترسلاً الى الأحزان وان لا تنال من هناء الحياة مـــا يستحقه ذكاؤك وهمتك.

وهنا ساد السكوت هنيهة فكان التياري يقول في نفسه : ترى من هذا الذي يخونه منا ؟

ثم تبدى له ان جينارو مخلص في ما قاله فانه لو كان عارفاً بسر المؤامرة ولو كان مخلصاً لفوسكاري فما الذي يمنعه عن ان يقبض عليه في سراي الدوج وهو يذهب اليها في كل يوم .

وعند ذلك نظر اليه التياري نظرة تدل على الثقة فأدرك جينارو معنى هذه النظرة وقال : أظن اني قمت بواجبي الأدبي بقدومي اليك وأنا ذاهب الآن فأرجو ان تعلم مهما حدث بأني نهجت معك مناهج الاصدقاء .

فلم يجبه التياري ولكنه شيعه الى الباب وهناك صافحه بيد تضطرب وقال له : أتقول ان رولاند كانديانو يبيت هذه الليلة في منزله ؟

ــ نعم في بيت الجزيرة .

ــ وحده ؟

ــ مع ابيه الشيخ .

وهنا افترقا فاسرع جينارو بالعودة الى منزله فنادى أحد خدمه وقال له : اتعرف جزيرة اوليفو ؟

قال : نعم .

قال : اتعرف من يقيم فيها الآن ؟

ــ ذلك الرجل الذي زارك اليوم بعد الجواسيس .

ــ لقد عرفته كما يظهر .

فابتسم الخادم دون ان يجيب .

قال : إذن اذهب هذه الليلة واكمن في الحديقة طول الليل ومهما حدث في المنزل أو في الحديقة فلا تتداخل بل يجب ان تسمع وترى وتقف على كل ما يجري ثم تعود الي فتخبرني بما يكون فاذا نجحت بمهمتك اعطيتك عشرة ريالات وإذا فشلت فيها جلدتك عشر جلدات .

* * *

٧٠

لقاء ايضاً

أما التياري فقد بقي وحده واقفاً في غرفته يتمعن ويفتكر الى ان أقر على الأمر الذي كان يتردد فيـــه فنادى أحد خدمه وقال له ، ادع لي كاستريشو .

وبعد هنيهة جاءه هذا الرجل وهو شاب في الثلاثين من العمر وعليـــه ملابس الضباط .

فنظر اليه التياري نظرة ثقة واعجاب وقال له : اريد ان تصحبني هذه الليلة في رحلة مخطرة ؟

قال : انك تعلم يقيناً باني مستعد لسفك دمائي في سبيلك .

ــ حسناً فعد الي في الساعة العاشرة من هذا المساء وليكن معك صديقك روماني وجيبرتو .

ــ سنحضر في الوقت المعين فهل الأمر مقلق ...

وهنا أشار إشارة الضرب .

فقال : نعم .

— حسناً فمن هذا الذي قضى عليه ؟
— سوف تراه .
— اين ؟
— سوف تعلم .
— حسناً فسأحضر مع رفاقي كا أمرت .

وانصرف الضابط فابتسم التياري ابتسام الرضى فانه منذ أعوام بعيدة لم يشعر بما كان يشعر به من الاطمئنان فقد وثق بعد الامعان ان جينارو لم يكن ضده وقد كان يخافه كثيراً ولكنه علم بعد ما سمعه من رئيس البوليس وعزمه على مبارحة فينيسيا كي لا يتداخل بما سيجري من الشؤون ان المؤامرة لم يبق شك لنجاحها وانه سيغدو دوجاً بعد ثلاثة أيام .

وفوق ذلك فانه سيفتك برولاند ويرفع عن صدره اثقال هذا الكابوس وأي فوز يدعوه الى الاطمئنان مثل هذا الفوز فانه متى صار دوجاً ومات رولاند فلا بد لليونور ان تحب زوجها فانها أحبت رولاند وحفظت عهده وهو في قيد الحياة ولكن الغرام لا يكون بالاموات .

ولما فازت نفسه بهذه السكينة أخذ يعد وسائل الفتك برولاند حتى رسخت في ذهنه فخرج من غرفته وسار في رواق فصعد سلماً خفياً يؤدي الى المكان الذي تقيم فيه ليونور مع أبيها .

وكان كل رجائه في تلك الساعة ان يرى ليونور فينظر اليها نظرة تشف عن انتصاره وتدل على قرب حوادث عظيمة .

ولكنه لم ير ليونور ولم يجد اباها فنزل الى القاعة التي كان الضباط مجتمعين فيها وجعل يحدثهم بملء البشاشة والارتياح خلافاً لعادته فقد كان دائم التجهم والتقطيب .

وبعد ظهر ذلك اليوم خرج التياري وحده من قصره وجعل يطوف في شوارع فينيسيا حتى أقبل الظلام فذهب الى اقبح شارع في المدينة كان يعيش

فيه البحارة وأولئك الشقيات اللواتي قدر عليهن نكد الطالع وسوء التربية ان يبعن قبلاتهن بقطعة من الخبز .

وهناك المتسولون على اختلافهم وأهل الدعارة والشقاء دخل التياري إلى أحد البيوت في ذلك الشارع ، شارع الشقاء .

وقد فتحت له الباب امرأة عجوز فقال لها : هنا يقيم سبارتفنتو ؟

قالت : نعم يا مولاي فتفضل بالدخول .

فدخل التياري واقفلت العجوز الباب ودنت منه فقالت له: الملك قادم يا مولاي لمقابلة ابني أو لمقابلة بنتي أو لمقابلتي فان لكل منا شأنا خاصاً به مثال ذلك انك اذا أردت ان تعرف ماضيك وحاضرك ومستقبلك وما يكون من غرامك وإذا اردت ان تكون محبوباً لا يجفوك من تحبه فانا الذي اجيبك . واذا كنت تريد فتاة حسناء تدرك معاني الغرام وملاذ الصبابة فابنتي تجيبك. وأما إذا أردت ان تتخلص من زوج غيور أو عاشق مزاحم بضربة خنجر فابني يجيبك فاختر يا سيدي بين الأم والابن والبنت .

فقال التياري : اني أتيت لأرى سبارتفنتو .

— انه هنا كان ينتظرك فقد عهد اليه بمهمة يكسب منها عشرة ريالات ولكنه بقي هنا كأنما كان يحدثه ..

— اسكتي ايتها العجوز ونادي ولدك .

ففتحت العجوز بابا يطل على سلم وقالت : ادخل يا سيدي .

فتردد التياري حين رأى السلم المظلم ثم استوثق من خنجره وصعد ذلك السلم بقدم ثابتة بينما كانت العجوز قد قرعت السقف بعصاها مرتين .

وقد انتهى من ذلك السلم الى غرفة لم يكن فيها غير سرير ومائدة عليها زجاجة وبضعة اقداح وكثير من السيوف المختلفة معلقة بالجدار وهناك رجل طويل القامة وقف حين دخول التياري فانحنى أمامه وقال : اني انا هو سبارتفنتو مستعد لخدمتك في ما تريد .

قال : يسرني ان أراك فقد وصلت شهرتك الي وعلمت انـك أمهر من طعن بالخنجر وضرب بالسيف .

ــ نعم فاني اقتل بضربة واحدة .

ــ ومن قال لك اني أريد القتل .

ــ إذن لماذا انت هنا فهل خدعتـك تلك العجوز الشمطاء ثم مشى الى الباب وهو مقطب الجبين .

فاستوقفه التياري وقال : قف واصغ الي .

فعاد الرجل ووقف أمامه فقال له التياري : نعم اني أتيت لأني محتاج اليك في قتل واحد من الناس فهل تفعل ما أريده منك ؟

ــ وأنت هل تعرف الأجرة التي اتقاضاها ؟

ــ لا أبالي بالأجرة فاني ادفع لك قدر مـــا تشاء بشرط ان لا تخطيء الرجل .

ــ ان اجرتي عن الرجل العادي عشرة ريالات .

ــ حسناً ولكن الرجل الذي أريد ان تقتله شديد هائل .

ــ واجرتي عن الرجل الموظف بالحكومة خمسون ريالا .

ــ ولكني قلت لك ...

ــ وشروطي ان النصف يدفع مقدماً .

فمد التياري يده الى جيبه فاخرج قبضة من الذهب ودفعها اليه وقال له: اتصغي الي الآن ؟

ــ تكلم .

ــ هل انت مستعد للقتل ؟

ــ كيف لا والقتل مهنتي .

ــ ولكني انذرك ان الرجل شديد قوي فيجدر بك ان تصحب بضعة من رجالك الاشداء .

– اني اكفي وحدي .
– لقد قلت لك ان الرجل شديد الخطر .
– ولكنه سيموت فيزول بموته كل خطر .
– ألم تخف منه ؟

فنظر اليه نظرة المنذهل وقال : ماذا يفيد معنى الخوف ؟
– وإذا سألتك ان يكون ذلك في هذه الليلة .
– بل في هذه الساعة .
– اواثق من قتله ؟
– كيف لا اكون واثقاً من قتله وانت تدفع اجرتي فقل لي أين أجده .
– في جزيرة أوليفو .
– متى ؟
– الساعة العاشرة فتقتله وتعود في الساعة العاشرة ونصف الى كنيسة سانت مارك فرموز فتجد اربعة رجال واقفين قرب بابها وانا منهم فاعطيك ما تملأه به جيوبك من الذهب .
– حسناً فسأعود اليك في تلك الساعة والان عين لي المكان بالتدقيق .
– في بيت دندولو القديم اتعرفه ؟
– نعم اعرفه .
– وسيكون الرجل فيه مع رجل عجوز فتقتل الفتى افهمت ؟
– دون شك .
– كيف تصنع لتدخل الى المنزل او لتأتي به الى الحديقة ؟
– هذا شأن يتعلق بي .
– إذن لقد تم الاتفاق والآن نستطيع الانصراف .
– اذهب آمناً وسأعود اليك في الساعة العاشرة ونصف بعد ان اقتله .

فالتف التياري بردائه وحاول الانصراف فاستوقفه اللص وقال له : لقد نسيت أمراً .

ـ ما هو ؟

ـ اسم هذا الرجل .

فارتعش التياري وقال : ماذا يفيدك اسمه ؟

ـ أحب ان اعرف اسم الذي اقتله لأضيفه الى قتلاي .

ـ إذن لا بد لك ان تعرف اسمه .

ـ ذلك لا بد منه أو لا اقتله .

ـ فاطرق التياري هنيهة مفكراً ثم قال : ان الرجل هائل كما قلت لك وقد فعل اموراً عظيمة فخرج من ابار وانتقم من كثيرين من اعدائه وهو يتولى قيادة جميع عصابات السهول والجبال .

ـ اسمه ؟

ـ احذر فانه امهر الطاعنين بالخنجر .

ـ اسمه ؟

ـ اعمل بنصحي واستصحب رجالك .

ـ اسمه ؟

ـ رولاند كانديانو .

ـ ماذا تقول ؟!

ـ رولاند كانديانو .

ـ احق ما تقول .. اتريد ان اقتل في هذه الليلة رولاند كانديانو

ـ نعم .

فذهب اللص الى المائدة التي كان قد وضع عليها الذهب فرده اليه وقال :

ـ خذ مالك .

ـ لماذا .. لماذا ؟

ـ لأني لا اقتل رولاند .

فقبض التياري على ذراعه بعنف وقال :

ويحك ايها الشقي اتريد ان أقبض عليك غداً وأزجك في اعمق السجن فاني اطلب اليك ان تقتله بأسم الحكومة .

ـ وأنا لا أعرف الحكومة واحذر من ان تنذرني الا تسمع انين المياه في الترعة ان هذا الصوت قد يكون انين الذين توعدوني فاني لا اغفر لمن يجسر على تهديدي وبعد فبماذا استحق الملام اني أرد لك مالك . هل سرقتك فقل ماذا تريد ؟

ـ أريد ان ابقي لك هذا المال ولا انذرك ولكن قل لي على الاقل لماذا لا تريد ان تقتل رولاند .

ولكن لماذا اسألك فان السبب ظاهر وهو انك خفت .

ـ وقد قال ذلك على رجاء أن يثير حماسته .

ـ انك لو اذعت ذلك لمـــا وجدت من يصدقك فقد قلت لك اني لا اعرف الخوف .

ـ بل انك ترتجف لمجرد اسم رولاند .

ـ ولو افترض صحة ذلك فانه جائز إذ لم يخطر لأحد أن يسيء رولاند حق ندم الندم الشديد أما أنا فأني لا أخاف الموت الموت .

ـ إذن لماذا لا تريد قتله ألا تريد ان تتكلم ألا تعلم من أنا ؟

ـ اني أعرف بأنك القائد العام .

ـ وإذا كنت تعرفني فلماذا تعاندني ؟

ـ ولماذا لا اعاندك فاني لا أخافك بل اني استطيع أن القيك من هذه النافذة فأجعلك طعماً للاسماك ولكني ادعك تنصرف بأمان .

فاصفر وجه التياري واصطكت اسنانه ولكنه لم يقل كلمة لخوفه من العاقبة .

أما اللص فانه اندفع في حديثه فقال :

— ان السبب في اني لا أريد قتل رولاند فهو اني سفاك ولكني لست من الجواسيس ولكل امرىء مهنة اشتهر فيها فاني أخدم اولئك الذين لا يعرفون ان يقاتلوا مقابل أجرة اتقاضاها ولكن لا شأن لي بأعمال الحكومة فانه يوجـد في فينيسيا دوج ومجلس عشرة وديوان تفتيش ورئيس بوليس وجيش منظم فعليهم ان يقبضوا على رولاند إذا كان من المتمردين أما كونه متمرداً عاصياً فاني لا أعد ذلك له ذنباً يجب ان يقتل له بل اني أعـــد عصيانه واجباً مقدساً ولا اتكلم بلساني بل بألسنة جميع جمهور الشعب ما خلا النبلاء فقد قال لهم رولاند أنه سينقذهم من نيركم وهو فاعل ما يقول ولذلك يرى الشعب وأنا منهم ان هذا العصيان لا بد منه فاذا قتله كما تريد أكون قد خنت ذلك الشعب بجملته وما أنا من الخائنين .

فكبر وقع هذا الكلام على التياري وعلم يقيناً أنـه لا سبيل إلى اقناعه فخرج من ذلك المنزل وهو يعثر بأذياله وبلغ الى قصره في الساعة التاسعة .

وبعد ذلك بساعة جاءه الضباط الثلاثة الذين وعـدهم على اللقاء وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر والغدارات وكلهم مخلصون للقائد العـام أشد الاخلاص إذ كانوا من رجال المؤامرة فقالوا له : لقد اتينا حسب أمرك فالى اين تريد ان تبعث بنا ؟

قال : اصغوا الي فأن اليوم العظيم قد دنا والفوز مضمون لنا فاننا قـد تأهبنا لكل طارىء وعرف كل منكم مهمته فلم يبق لدينا غير حائل واحد يجب إزالته في هـذه الليلة فانكم تعرفرن دون شك ان رولاند كانديانو في فينيسيا .

فقال أحدهم : أهو هذا الحائل ؟

وقال آخر : يقـــال ان جميع البحارة وعامة الشعب متأهبون للثورة انقاذاً له .

وقال آخر : بل ان جميع النساء لا يتحدثون إلا به .

فقال أولهم : هو ذاك ولكنه لا ينتصر له واحد من النبلاء أو القواد أو الجنود فماذا يفيده البحارة والشيالون والنساء ؟

فقال له التياري : لقد اخطأت فقد يكون وضع خطة لا نعرفها .

— لا سبيل لنجاح هذه لأننا سنستولي على فينيسيا في اقرب حين .

— هذا الذي أرجوه لكن يجب ان نتوقع كل أمر ونتأهب لكل طارىء فان لدينا في ذلك اليوم العظيم ما يشغلنا عن كبح جماح الثائرين فلذلك رأيت ان نقتل رولاند .

— لنقتله .

***

٧١

اللقاء ايضاً

ولنتقدم التياري ورجاله إلى منزل الجزيرة فان رولاند صعد في الساعة التاسعة ونصف الى غرفة أبيه فوجده مضطجعاً على كرسي طويل فوقف هنيهة أمامه ثم لمس كتفه فانتبه الشيخ وقال : ماذا يريدون مني ؟

فقال : هذا أنا رولاند يا أبي وقد أتيت اليك الآن لأنهم قد يهاجمون المنزل هذه الليلة فلا بد لي من اخراجك منه فتعال معي .

وعند ذلك لفه برداء وأخذه بيده فقال له : الى اين يذهبون بي ؟

قال : لقد قلت لك يا أبي انك لا تستطيع الاقامة هذه الليلة في المنزل .

— من يدعونني بأبيه ؟ فارتعش رولاند وقال : أنا هو .. أنا ابنك رولاند .. الا تذكر يا أبي !

فاطرق الشيخ برأسه وسار مع رولاند كأنه لم يسمع شيئاً .

فتنهد رولاند وسار به الى حيث كان ينتظره سكالابرينو والخادم العجوز فأشار اليهما ان يتبعاه وساروا جميعهم الى تلك الشجرة الكبرى التي يذكر القراء ان الخادم فيليب قد جعل كهفاً في جزعها يلجأ اليه في زمن الثورات فتعاون معهما على انزال ابيه الى الكهف وأقام فيليب عنده ثم عاد مع سكالابرينو الى المنزل فقال رولاند : اني أريد أن أعلم الآن الى أي حد يبلغ جينارو من حدود الجبانة .

ويذكر القراء ان رئيس البوليس اجتمع في صباح ذلك اليوم برولانـد فقال له بعد انتهاء المداولة : اين أجدك إذا احتجت اليك فأجابه في بيت الجزيرة حيث أكون وحدي مع أبي كما تقدم في الفصل السابق .

ولذلك كان يتوقع رولاند أن يهاجموه في هذه الليلة فخبأ أباه في الكهف.

وكان رولاند قد أخبر سكالابرينو بجميع ما جرى بينه وبين رئيس البوليس وقال له : لا حاجة الى إزعاج رفاقنا فاني وإياك نكفي المهاجمين .

فقال له سكالابرينو : انهم لا يستطيعون الوصول الينا إلا من طريـــق واحدة وهو طريق الكنيسة وسأكمن لهم هناك فاذا رأيتهم كثيرين لا أدعنك تقاومهم وحدك .

قال : اذهب فاني منتظرك .

فانصرف سكالابرينو واطفأ رولاند المصباح فاقـام ينتظر وهو مطرق يفكر .

ولا ندري بماذا كان يفتكر أبذلك الموقف الذي كان يخاطر فيه بحياته أم برئيس البوليس الذي ملك قياده ثم عاد الى خيانته ام بحانب مدسيس وساندريجو وبمبو وكريغاني وأمباريا وجميع اولئك الذين قتلهم أم تمثلت له بيانكا التي ماتت شهيدة العفاف وجوليـا التي ذهبت ضحية الاخلاص أم كان يفكر باولئك الذين يريد الانتقام منهم وهم دندولو وفوسكا والتياري أم

تمثلت له ليونور في تلك الساعة وهي لم تبرح ضميره منذ عرفها الى اليوم.
أنه كان يفكر بواحدة من هذه الأمور ولعله كان يفكر بها كلها فقد مرت به كل حوادث حياته في تلك الساعة منذ ليلة خطبته الى الآن .

وفيما هو على ذلك جاء سكالابرينو وقال : لقد اتوا .

فقال له رولاند : كم يبلغ عددهم ؟

ـ اربعة .

ـ أرأيت معهم جينارو ؟

ـ كلا ولكني رأيت انهم ليسوا من الجواسيس العاديين .

ـ كيف ذلك ؟

ـ اعني انهم بملابس الضباط .

فوجم رولاند هنيهة لأنه لم يكن يتوقع حضور ضباط ثم قال: ربما كانوا غير قادمين الى هنا .

وعند ذلك سمع وقع خطواتهم في الحديقة فاسرع رولاند وهمس في أذن سكالابرينو بضع كلمات فأجابه بصوت منخفض قائلاً : لقد فهمت .

وقام الاثنان فوقف كل منهما عند أحد مصراعي الباب وقد جرد رولاند خنجره وتسلح سكالابرينو بكرسي ضخم من خشب السنديان الغليظ .

أما القادمون فكانوا التياري ورفاقه وقد خرجوا من القصر كما تقدم فركبوا زورقاً الى الجزيرة فقال أحد الضباط :

ـ اذا كان كانديانو وحده كما قيل لك فان واحداً منا يكفي فهز التياري رأسه وقال : ان المنزل متسع وكان يجب أن نكون اكثر من أربعة .

ـ ولكن ليس منا من يعرف هذا المنزل .

ـ أنا أعرفه وذلك يكفي فاعلموا الآن اننا سندخل الى الحديقة وندنو من المنزل وهناك قاعة كبيرة للطعام يجب ان ندخل منها الى المنزل دون ان يسمع لنا حس.

ـ ولكننا سوف نضطر الى كسر الباب .

ـ كلا ان لدي مفتاحه فقد اتفق لي اني كنت سيد هذا المنزل .

وقد قال هذا القول بلهجة دلت على انه يتميز غيظـاً فذكر الضباط الثلاثة ان ليونور امرأة قائدهم كانت تقيم في هذا المنزل وانها كانت خطيبة رولاند فعلموا انهم لا يخدمون المؤامرة بقدومهم بل انهم يخدمون اغراض قائدهم الشخصية .

غير انهم كانوا شديدي الاخلاص له فامتثلوا وساروا ساكتين فكان يقول في نفسه : لا شك أنه وحده ولولا ذلك لهاجمونا .

ثم خطر له خاطر فجائي وهو ان جينارو قـد يكون منخدعاً وان رولاند قد لا يكون في المنزل فأسرع الى فتح الباب دون تحسب وقال لرفاقه بصوت منخفض : سيروا الى اليسار .

فتقدم اثنان من الضباط وقد جردا خنجريهما بينما كان التياري يقفـل الباب الذي فتحه فتقدما من باب القاعة ففتحاه ودخلا .

ولكنهما لم يلبثا ان تجاوزا العتبة حتى صاحا صيحة تـدل على النزع وخرج عند ذلك رولاند وسكالابرينو وكادت كزمني سكالابرينو تفلق رأس التياري ولكن رولاند استوقفه قائلاً : ان هذا الرجل لي فهلع من الخوف أما الضابط الذي كان معه فانه رمى بخنجره الى الارض وقـال : أني اسلم نفسي فحبسه سكالابرينو في إحدى الغرف .

اما رولاند فانه نظر الى التياري نظرة كهربته وقال له : تعال .

فتبعه التياري واضاء سكالابرينو مصباحاً ودخـل في أثره فقال له رولاند :

ـ دعنا الآن وحدنا .

ـ مولاي ؟

ـ قلت لك دعنا وحدنا ولا تدخل الا حين أدعوك .

فخرج ممتثلا وجلس التياري على كرسي وقد بدت عليه علائم الاضطراب الشديد على وجهه .

أما رولاند فانه اقفل باب القاعة وعاد الى التياري فقال له : انك قادم لقتلي اليس كذلك ؟

قال : نعم وقد عادت اليه شجاعته بعد خوفه من تلك المفاجأة فقال : نعم اني قادم لقتلك فان كلا منا يبحث عن رفيقه منذ عهد بعيد .

ــ ولكني لم ابحث عنك يا التياري ولو أردت البحث عنك لظفرت بك من عهد طويل كما ظفرت بصديقك بمبو وامباريا حليفتك بالاثم ولكن مـا زلت قد لقيتك الآن فلا بأس من ان اقول شيئاً من افكاري .

ــ إذن لنوضح افكارنا قبل ان نقتتل فانك لا تجد اشهى من قتلي وأنا لا أجد أشهى من أن اخطف روحك .

ــ لا حاجـة الى الايضاح يا التياري فاني اريـــد ان اقول لك ما افتكر به .

ــ قل .

ــ أتذكر يا التياري ليلة خطبتي ؟

فهز رأسه وقال : كلا لا أذكر .

ــ اما انا فاني اذكرها فقد دنوت مني في تلك الليلة فصافحتني وقلت لي بلهجة المخلصين « اهنئك يا رولاند وارجو ان تكون سعيداً » .

نعم انك قلت لي هذا القول وبعد نصف ساعة القيتني في اعمق السجون.

نعم انك قلت لي هذا القول وقد حفظت كلماتك عدة اعوام وأنا فيها ابحث عن اصلك فايقنت انك لا يمكن ان تكون من رجال السيف إذ لو كنت منهم لتخلصت من عدوك بالسيف وليس بالخيانة .

فتبين الغضب في وجه التياري ومضى رولاند في حديثه فقال :

ــ اصغ الي بسكينة كي احدثك فلقد قلت لك انك لست جنديا كما هي

عليه ملابسك وقد خطر لي حيناً انك من اولئك اللصوص الذين يكمنون في الطرقات فوجدت انك لست منهم ايضاً إذ لو كنت منهم لكنت طعنتني غيلة وقتلتني غدراً ولكنك لم تجسر الى ان خطر لي انك جاسوس ولكني رأيت ايضاً انك احط من الجواسيس اذ كنت تستطيع ان تقبض علي ولكنك لم تعمل بل صافحتني وهنأتني وانت تضمر لي الموت .

— ويح لك أيها الشقي ان هذه الاهانة ستكون آخر ما تقوله .

وعند ذلك وثب يريد الهجوم على رولاند ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند انقض عليه بسرعة وقبض على يديه وأعاده ذليلاً الى مجلسه .

ثم تركه وقال له : لقد سألتك أن تسمعني بسكينة وسأوجز في كلامي لك فلقد قلت لك انك لست جنديا ولا لصاً ولا جاسوساً أما وقد رأيتك تريد مهاجمتي بأربعة رجال فقد عرفت الآن من أنت .. التياري من زمرة الجبناء الأدنياء.

فاهتز التياري في مجلسه ولكنه لم يجسر على معاودة الهجوم فقال له : انك أنت الجبان ما زلت تقول لي هذا القول والقوة في جانبك .

— اننا وحدنا في هذه القاعة وما القوة إلا في جانبك فان خنجرك في يدك أما خنجري فقد تركته مغمداً في صدر قائدك .

وقد قال هذا القول وكتف ذراعيه .

أما التياري فانه وقف والخنجر مجرد بيده وقد برقت عيناه ببارق هائل من الحقد ورفع يده فلم يبق بين رولاند وبين الموت غير لحظة .

ولكن رولاند لم يجزع ولبث واقفاً في مكانه يبتسم ابتسام الاحتقار .

فألقى التياري خنجره الى الارض بعنف فقال له رولاند بلهجة الساخر المتهكم .

— لقد كنت اعلم يقيناً انك لا تجسر على قتلي لخوفك .

قال : كذبت .

قال : بل انك خفت فقد قلت في نفسك اني إذا قتلته قتلني رفيقه وهذا كل ما أريد ان أقوله لك يا التياري وهو انك لست جباناً فقط بـل لو صورت النذالة والجبن لما تمثلنا إلا برسمك ولذلك اعاملك معاملة الجبناء الأنذال الذين يأنف الشجاع من قتلهم فاذهب يا التياري فقد عفوت عنك .

قال : ان ذلك سيكلفك كثيراً .

ـ انه لا يكلفني شيئاً ما زلت جباناً فانك لا تجسر على لقائي وإذ كنت في طليعة جيش لأنك تخافني ولأنك جبان فاذهب فاني لا اكترث لـك في المستقبل كما اني لم اكترث لك في الماضي لأنك جبان .

وعند ذلك ذهب الى الباب ففتحه وكان سكالابرينو ينتظر فقال له : دع هذا الرجل ينصرف ولا تسيء اليه بشيء ولا تمدان الى صفعه لأنه جبان فدعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فان التياري انين الموجع وجعل العرق البارد يسيل من وجهه وقـد اضطربت أعصابه لما لقيه من الخذل وسار حتى وصـل الى جثتي القائدين وتراجع منذعراً .

فقال رولاند : ارأيت يا سكالابرينو كيف انه لم يجسر ان يقترب من ضابطيه فقد كانا وحشين مفترسين ولكنهما لم يكونا جبانين .. ارأيت مقدار جبنه فانه لا يجسر أن يرى الأموات لشدة خوفه من الموت .. ولكن ماذا ينتظر ولماذا لا يذهب وقد عفوت عنه ؟

فزأر التياري زئير الوحوش ووثب من فوق الجثتين وبعد هنيهة كان في الحديقة وقد شيعه رولاند الى الباب فلما خرج منه قال رولاند : لا تقفـل الباب يا سكالابرينو بل دع جميع الأبواب مفتوحة فلا يجب الاحتياط مع الجبناء .. دعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فجعل التياري يركض وهو يذوب من الخجل ويقول في نفسه : نعم نعم اني لا شك جبان .

٧٢

قرار دندولو

منذ ذلك اليوم الذي احضر ارتين صورة رولاند الى ليونور كان دندولو مضطرب النفس قلق البال حزين النفس اذ شعر بأن بنته قد انفصلت عنه كل الانفصال وانها لا تزال تحب رولاند حباً لا يؤثر عليه كرور الأيام .

وقد ذهب رجاؤه وزالت مطامعه فبات يخاف الاقامة في فينيسيا ولم يعد يخطر له الا ان يقضي ما بقي له من الحياة في منزل بعيد عن الناس ينسى فيه ماضيه وبنته وكل شيء في الوجود .

وقد كان قرب ذلك اليوم العظيم يروعه حين يبيت التياري دوجاً وتنتقل بنته الى سراي الدوج فقد كان يظن في البدء ان ابنته تتفق مع التياري ولكن بعد ما رآه منها في حادثة الصورة ايقن ان الاتفاق محال وعول على الفرار قبل ان تستتب السلطة لالتياري وينتقم منه . .

ولقد كان هيأ اسباب الفرار وهو موقن ان ابنته تكرهه ولكنه عول أن يراها مرة ايضاً وهو يقول في نفسه ربما عادت الي متى علمت هـــذه التفاصيل فلما اجتمع بها قال لها : هل تمعنت يا ابنتي بما اقترحته عليك منذ بضعة أيام ؟

قالت : أي اقتراح تعني ؟

— أن نبرح فينيسيا معاً الى أي بلد شئتيه .

— لقد أجبتك يا أبي في ذلك الحين .

— نعم لقد أجبتني جواباً يدل على عدم الاشفاق فان اصرارك على البقاء بعد اصراري على الذهاب يدل على ان ليس لي بنت .

ومع ذلك فقد يكون ذنبي اقل مما تحسبين فان هذا الخطأ ما أوحاه الي غير حبي اياك .

– لا شك عند يا أبي فيما تقول ولولا ذلك لما كنت تراني .

– ليس هذا كل الذي أريد أن أقوله فاعلمي أن رولاند كانديانو إذا كان قد نجا أخيراً فأنا الذي انقذته .

فوقفت ليونور وقد اصفر وجهها وقالت : ما هذا الأسم الذي ذكرته يا أبي ؟

– هو الاسم الذي يردد قلبك ذكره في كل لحظة ومع ذلك يجب ان تصغي الي لأني لا أريد ان تلعنني ابنتي بعد موتي .

– كلا يا أبي لا العنك .

– هو ذاك وقد تصفحين عني ايضاً ولكنك تلبثين على اعتقادك باني لم اقم بواجباتي ولذلك لا أجد بـــداً من قول الحقيقة بجملتها تبرئة لنفسي ولراحتي .

– إذا كان ذلك لا بد منه لراحتك فقل .

– أعلمي قبل كل شيء أن رولاند لم ينج عشر مرات إلا بفضل رئيس ديوان التفتيش أي بفضل أبيك اتعرفين ذلك ؟

– كلا اني لم أكن أعرفه .

– واعلمي ايضاً أنه قبل نجاة رولاند كان أحد الجواسيس عارفاً بمكانه فذهبت به الى ليدو وقتلته كي لا يبوح بهذا السر لأحد .

– فارتعشت ليونور ولم تجب فقال لها : اعلم يقيناً انك لا تعتبرين عملي غير اصلاح خطأ جاء بعد فوات أوانه ولكن اصغي الي ايضـاً فاني محدثك بما جرى في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة فاسمعي .

فخفق قلب ليونور خفوقاً شديداً وحاولت ان تهرب ولكنها ذكرت ما قاله لها ابوها فانه أشار بيده الى صورة رولاند وقال لها : اتعلمين اين كانت هذه الصورة قبل ان تصل اليك ؟

قالت : نعم يا أبي في قصر الحظية امباريا .

ـ ألم تسألني كيف اتفق وجود هذه الصورة هناك ؟

ـ أية فائدة من معرفة ذلك ؟

ـ اني مخبرك به فاعلمي ان الحظية دعت المصور تتيانی الى صنعها نقلاً عن ذاكرته وهذه الصورة تمهد لي سبيل ما أريد قوله لك فقد رأيتها قبل الآن في قصر الحظية .

ـ انت ؟

ـ نعم فاذكري ان رولاند جاءنا ليلة الخطبة حسب عـادته في بيت الجزيرة وكنت واياه في الحديقة .

ـ بالله يا أبي لا تعد الى هذه التذكارات .

ـ اني لا أقول لك غير ما يجب قوله فاني كنت تلك الليلة من اسعد الناس ولكن هذا الهناء كان آخر هناء عرفته وا أسفاه .

فبينا أنا واقف في الترعة وقد بلغت الساعة الحادية عشرة ونصف سمعت وقع خطوات في الحديقة فحسبت انـك أنت عائدة ولكني نظرت من النافذة فاذا القادم التيادي .

نعم لقد كان التياري وما كنت أحب هذا الرجل وكنت أعلم انـه لا يحبني فاستأت لحضوره ومع ذلك لم يسعني إلا أن أترحب به .

فدخل ورأيت وجهه مضطرباً وعيناه تتوقدان فقال لي : اني أتيت لأكلمك في شأن خطير .

قلت له : اني مصغ اليك .

قال : لا استطيع ان أكلمك هنا .

قلت : اين تريد ؟

ـ تعال معي الى قرب كنيسة سانت مارك .

ـ في هذه الساعة ؟

— بل في الساعة الاولى بعد انتصاف الليل وإذا لم تحضر ساءت العاقبة وكان الخطر شديداً .

فوعدته بالحضور وأنا لا أعلم شيئاً مما يريد فودعني وانصرف .

وقـــد رأيته وقف في الحديقة وجعل يرتجف ثم انصرف وهو يسرع السير .

ولقد عجبت لهذه الزيارة ولهذا الموعد وانذرني قلبي بحدوث مصاب فلما رجعت من الحديقة بعد ان شيعت خطيبك سألتني عن السبب في اضطرابي وقلت لك انه اضطراب سرور .

قالت : نعم اذكر ذلك واذكر ايضاً اني قلت لك بأني اتوقـع حدوث نكبة وأسفاه.

قال : نعم يا ابنتي وتذكرين ايضاً اننا قمنا نتحدث الى بعـد انتصاف الليل بنصف ساعة فدخلت الى غرفتك وذهبت أنا إلى سانت مارك فلقيت التياري ينتظرني .

وهناك شكرني لحضوري فقلت له : لماذا أردت ان تكلمني هنا وليس في منزلي ؟

فقطب حاجبيه وقال لي : ذلك لأني لا أطيق الاقامة في منزلك فاني اشعر فيه اني أصبح كالمجانين .

قلت : اني لا أفهم ما تقول .

فغير الحديث وقال لي : موعد لقائي في هذه الجهة لا أدري إذا كنت اذهب اليه فان ذلك منوط بك .

قلت : تكلم .

قال : هل تقرر زواج بنتك برولاند ؟

— دون شك وانت تعرف ذلك حق العرفان .

— الا يوجد ما يمنع هذا الزواج ؟

ـ كلا فان من كان بمنزلنا لا يخل بمهوده .
ـ وإذا قلت ان هذا الزواج لا يتم عقده ؟
ـ أرى انك تهينني يا التياري .
ـ كلا ولكني اسألك إذا كنت تريد استعمال سلطتك بمنع هذا الزواج .
ـ ولماذا ؟
ـ لا تسألني عن الاسباب بل اجبني .
ـ اذن اجيبك بالرفض البات .
ـ وعلى ذلك فستمقد خطبتها غداً .
ـ دون شك .

فسكت مطرقاً ولم يخطر لي في تلك الساعة انه يحبك بل حسبت أنهم يريدون تزويج ابن الدوج بسواك لمآرب سياسية فلما سألني التياري عن قولي الأخير اجبته قائلاً : اني اعتبر الالحاح في هذا الموضوع اهانة لي .

فتركني عند ذلك مغضباً وانصرف فقفوت أثره ورأيته دخل الى قصر الحظية امباريا واقفل الباب بعد دخوله .

ولا أدري ما الذي دفعني الى تعقبه وادراك حقيقة مقصده فاني دنوت من ذلك الباب وطرقته ففتح لي أحد الخدم وقال لي : ادخل ايها السيد فوسكاري فانهم لا ينتظرون سواك .

وكان وشاحي يغطي جانباً من وجهي فحسبني ذلك الخادم فوسكاري الذي كان رئيس ديوان التفتيش في ذلك العهد .

وقد حاولت ان أقول له بأني لست فوسكاري ولكني تقت الى معرفة هذه الغرائب ورأيت ان في هذا الاجتماع سراً أحببت الوقوف عليه فادخلني الخادم الى غرفة متسعة وقال لي : افتح باب الوسط فاني لا يحق لي ان اتجاوز هذا الباب .

ثم تركني في تلك القاعة التي لم يكن فيها سواي فتجاسرت على الدنو من

ذلك الباب الذي دلني عليه الخادم ولكنني علمت ان التياري قد دخل من هذا الباب فاردت ان أقف على سر هـذا الاجتماع ودنوت من ذلك الباب فسمعت صوتاً يشبه صوت النزع .

وكان هذا الصوت صادراً من غرفة مجاورة فذعرت ودنوت من ذلـك الباب ففتحته برفق ورأيت منه امرأة ورجلين .

اما المرأة فكانت امباريا الحظية وأما الرجلان فكانا التياري وبمبو ذلك الماكر الذي أصبح كردينالاً .

والآن فاسمعي يا ليونور مـــا كانوا يتحدثون به فقد قال بمبو يخاطب امباريا .

ان الوشاية مكتوبة لا يبقى غير التوقيع عليها وأنا اتعهد بايصالها الى موضعها .

فأجابه التياري قائلاً : نعم انك مصيب بما ارتأيته يا بمبو .. نعم انه هو القـــاتل .. نعم هو الذي يجب ان يتهم ويحكم عليه بما يحكم به على القاتلين .

أما امباريا فانها أجابته قائـــلة : ولكن مجلس العشرة يدعونني اليه لسؤالي .

فقال لها التياري : أني أحد اعضاء هذا المجلس كما تعلمين وسأمنعه عن أن يدعوك فوقعي على الوشاية دون خوف فاعترض بمبو قائلاً : بل يجب أن تذهب الى مجلس العشرة كي تسحق شهادتها هـــذا الرجل فــلا تقوم له قائمة بعد .

وكأنما الحظية تأثرت من لهجة بمبو أو كبرت عليها هذه الجناية فقالت :

— وإذا أبيت ان اوقع على الوشاية وأشهد على الجناية ؟

فاجابها بمبو : اذاً نذهب نحن الى مجلس العشرة ونشهد بما نعرفه إذ لا بد

للجلاد من قطع رأس فاختاري بين أن يكون رأسك أو رأس الذي تريد أن تشي به .

فوجف قلب المرأة وأخذت القلم بيد ترتجف فوقعت على الوشاية .

وقد علمت انهم يشون على رجل منكود ولكن الحقيقة الهائلة لم تخطر في بال .

ولما رأيت عبو وضع الوشاية في جيبه علمت أن امباريا قد قتلت رجلا وانهم يريدون اتهام سواها بـه فتراجعت بينما كان الثلاثة يتحدثون بصوت منخفض حتى وصلت الى منتصف القاعة .

وهناك سمعت ذلك الصوت صوت النزع صادراً من غرفة على يساري فدنوت من تلك الغرفة وفتحت بابها فرأيت رجلا صريعاً على الأرض والدم يتدفق من صدره فدنوت منه ونظرت اليه فاذا هو دافيليا أحـد أعضاء مجلس العشرة .

وعند ذلك فتح عينيه فقلت له : اتسمعني يا دافيليا ؟

قال : نعم.

قلت : من الذي طعنك ؟

— هي :

— امباريا؟

— نعم وسأموت .

— اتعلم ماذا يجري هنا يا دافيليا .. أأنت مصغ الي ؟

— تكلم .

— انهم يحاولون اتهام رجل منكود بقتلك وقد سمعت حديثهم .

— من الذي يتهمونه ؟

— لا اعلم .

— كلا ان هذا لا يكون ..

وسأذهب بنفسي الى مجلس العشرة .

— حسناً تفعل فهل استطيع ان افيدك الآن بشيء ؟

— كلا .

— اذن سأخبر اهلك :

— لماذا ؟

— لأن الريب يخامرها فتجهز علي فاذهب قبل ان تراك .

— استودعك الله .

— أسرع أسرع بالذهاب .

فخرجت من ذلك القصر الجهنمي وأنا شبه الجانين فعدت الى منزلي .. وفي اليوم التالي ...

فقالت له ليونور : وفي اليوم التالي ذهبت الحظية الى مجلس العشرة فشهدت ان رولاند القاتل ولكن دافيليا لم يحضر .

— بل حضر ولكنه مات قبل أن يستطيع اظهار الحقيقة .

وساد السكوت هنيهة بين الأب وبنته ثم نهضت ليونور ومشت ببطء الى صورة رولاند وقالت : رولاند لماذا تأخر أبي الى الآن عن اخباري بهذه الحقيقة الهائلة ؟

فقال لها أبوها : ليونور ليونور ان حزنك كان عظيما فلم استطع ان ازيده بمثل هذه الإنباء وانا لم اخبرك بها الآن الا لأن قلبي يحدثني بأننا سنفترق فراق الأبد .

ولكن ليونور لم تسمعه فأتمت حديثها مع الصورة فقالت : رولاند اني لو عرفت هذه الحقيقة من قبل لانتقمت لك من زمن طويل ولكن ثق ايها الحبيب اني سانتقم لك واقسم لك ان هذا الرجل الذي اتسمى الآن باسمه لا يموت الا من يدي .

وعند ذلك عادت الى كرسيها وغطت وجهها بيدها فناداها ابوها

فأشارت له انها مصغية فقال : الا تجيبين رجائي يا ليونور وتبرحين معي هذه المدينة التي لا ترى فيها غير الاشباح الدموية ؟

— كلا يا أبي .

— اني أتوسل اليك فتعالي معي ولنهرب .

— كيف ذلك ألم تسمع قسميوان التياري يموت من يدي إلا إذا أخبره أحد بمصيره فهرب من انتقامي .

فاصفر وجه دندولو وأيقن ان اقناعها محال فتراجع قانطاً وهو يقول : استودعك الله ثم خرج من تلك الغرفة ذليلاً خجلاً قانطاً من بنته لاسيما بعد ان أهانته وأظهرت له أنهـــا تخاف أن يمشي بها الى زوجها ويحذره من انتقامها .

ولم يعد يخطر له في تلك الساعة غير الفرار فذهب الى غرفته فأحرق كل مـــا كان لديه من الاوراق التي يخشى عليها ثم اتشح بردائه وخرج من ذلك المنزل خروج اللصوص .

ولما وصل الى الرصيف التفت الى نافـــذة ليونور وقال : استودعك الله يا ابنتي .

وفي تلك اللحظة اطفيء نور الغرفة الذي كان ينبعث من تلك النافذة فكان شبه جواب لهذا الوداع .

فسار دندولو حزين النفس منقبض الصدر الى الشاطيء ولكنـــه لم يسر خطوة حتى ابصر رجلاً قد تصدى له وهو ملتف بردائه فلم ير وجهه وقال له من أنت ؟

فأجابه الرجل قائلاً : لقد سرني انك لم تعرفني .

— ماذا تريد مني ؟

— أريد ان أقول لك كلمة بالسر ولكنني لا أقول لك شيئاً هنا مخافة الرقباء فهل تريد أن تتبعني ؟

ــ لكن ما تريد .

فسار الرجل وتبعه دندولو وهو غير مكترث لأمره ولكنه استاء لتأخر سفره .

وما زالا يسيران حتى اقتربا من منزل ارتين وهناك شارع ضيق مقفر فدخل الرجل اليـــه ثم وقف والتفت الى دندولو فقال : الديك خنجرك يا دندولو ؟

فأجابه بعظمة : انه لا يفارقني .

قال : حسناً فلو لم يكن معك خنجرك لاعطيتك خنجراً إذ لدي اثنان.

وعند ذلك نزع رداءه فالقاه الى الارض فقال له دندولو : أراك تقترح علي مبارزتك ؟

ــ هو ذاك .

ــ ولكنني لا ابارز رجلاً لا أعرفه .

ــ اذن اضطر الى قتلك كيف اتفق فخير لك ان تدافع عن نفسك . والآن لا بد لي أن اوضح لك السبب في هذا القتل .

ــ اني مصغ اليك .

ــ اتعلم يا دندولو اننا اليوم في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني . انك تعد هذا القول من سقط المتاع ولا تكترث له ولكن تعـلم خطورته حين تعلم انه بعد يومين يبدأ شهر شباط .

فارتعش دندولو ارتعاشاً ظاهراً فقال له الرجل :

ــ أرى انك فهمت فلا حاجة الى اخبارك بما سيجري في هـــذا اليوم الرهيب ولكن لا بـد لي تذكيرك بأنك واقف على جميع أسرارنا وانك أردت الخروج من جمعيتنا فقررنا بالاجماع قتلك وقتل ابنتك .

ــ ليونور ؟

ــ نعم وقد تعينت انا لقتلك فاقمت اراقب خروجك خمسة عشر يوماً

ويجب عليك ان تشكرني لأني اقترحت عليك مبارزة شريفة في حين اني كنت قادراً على اغتيالك .

ـ نعم اشكرك ولكني لا أرى وجوباً لهذه المبارزة فاني كنت استحق القتل لو كنت جديراً بالخيانة .

ـ ان المرء ضعيف بالطبع يا دندولو فقد يتفق حدوث حوادث تدعوك الى الاباحة بما تعلم .

ـ لو كنت أريد خيانتكم لخنتكم من عهد بعيد .

ـ ولكن لا يزال لدينا يومان وفي ذلك وقت فسيح .

ـ اني مغادر فينيسيا الآن .

ـ ولكن رسولك يستطيع أن يبلغها بعد ساعة فان حياة ألف رجل معلقة بحياتك وفي كل حال فقد تلقيت الأمر بقتلك ولا يسعني العصيان وقد انفت من قتلك اغتيالاً فاقترحت عليك المبارزة .

فايقن دندولو من لهجته ان لا سبيل معه الى الجدال وانه لم يبق عليه إلا أن يدافع عن نفسه .

وكذلك الرجل فانه تأهب للقتال وبعد هنيهة انقض كل من الفريقين على خصمه بخنجره فكان قتالاً هـائلاً دام خمس دقائق اسفر عن سقوط دندولو صريعاً .

فأكب الرجـل عليه وفحص جرحه فقال : انه لا يعيش اكثر من ربع ساعة .

ثم التف بردائه وتوارى عن الانظار .

٧٣

رسالة ارتين

كان ارتين قد دخل في هذه الليلة الى منزله في الساعة الثامنة وعليه علائم الاستياء فانه كان قد دعي الى مأدبة فلما ذهب اليها قيل له انها تأجلت الى موعد آخر .

وكان قد رأى من أهالي فينيسيا ما لم يره من قبل فان علائم الاضطراب كانت بادية في جميع الوجوه وأكثر الناس يجتمعون عصابات ويتحدثون بأصوات منخفضة .

فعاد إلى منزله وهو مضطرب البال وتمشى وحده وهو يقول في نفسه : ترى ماذا حدث في فينيسيا أو ماذا عسى يحدث فاني أرى سكون القوم يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة فاذا استمرت الحال على هذا المنوال حرمت فينيسيا من وجودي وذهبت .. ولكن الى اين أذهب .. اذهب الى روما والكاردينال روسبولي جلدني فيها بالسياط أم اذهب إلى باريس وولي العهد حاقد علي لأني هجوته فهو يشنقني لا محالة .

قبح أولئك العظماء الذين يغضبهم هجاء الشعراء الا يعلمون ان الشعراء يهيمون كل واد وان الاشراف ما زالت تهجى وتمدح .

ولكن الى اين اذهب فاني لم أعد أطيق الاقامة في هذه البلد وفيما هو على ذلك جاءه أحد خدمه فقال له : يوجد على الباب رجل جريح يريد ان يكلمك وهو من أهل الجاه كما يظهر من حديثه وملابسه .

— ألعلك رأيته ؟

ـ نعم قد سمعت أنينه تحت النافذة فذهبت اليه ووجدته في حالة النزع فطلب الي أن أحمله اليك .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ لا أعرفه .

ـ اذهب إذن وجئني به .

ـ لقد فعلت يا سيدي .

ـ كيف تفعل ايها الابله دون أمري أحسبت بيتي مستشفى وبعد فأين وضعته ؟

ـ في أحد غرف الدور الاول وأرسلت من يدعوا طبيباً .

ـ حسناً فعلت وها أنا ذاهب اليه .

وذهب ارتين إلى الجريح فلما رآه صاح صيحة انذهال وقال : هو دندولو الذي بعثه صورة رولاند وعند ذلك فتح الجريح عينيه فقال له ارتين : تشجع يا سيدي فان الطبيب سيحضر قريباً فينقذك .

فأشار اليه دندولو ان يدنو منه فقال له : ماذا تريد اتستطيع الكلام ؟

قال : لا حاجة الى الطبيب فاني سأموت .

وعند ذلك دخل الطبيب ففحص الجرح وتبين ارتين من عيني الطبيب حالة اليأس .

أما دندولو فانه سأل الطبيب بصوت خافت قائلا : اني موقن بقرب الموت ..

ولكن قل لي متى أموت ؟

ـ قال : توكل على الله يا سيدي .

ـ بل تكلم ولا تخف فلا أخشى الموت .

ـ أتريد ؟

ـ ذلك لا بد منه .

ـ إذن فاعلم ان الموت يكون حين اخراج الخنجر من صدرك ولكن ليس بأكيد فثق بالله .
ـ لقد فهمت فهل تستطيع أن تعطيني مقويا وقتياً يعينني على الكلام ؟
ـ ذلك سهل .

وقد أخرج لفوره زجاجة صغيرة من حقيبته وافرغها في فم الجريح فلم يكد الشراب يستقر في جوفه حتى شعر بانه انتعش فقال للطبيب: اشكرك وأرجوا أن تنصرف الآن .

فامتثل الطبيب وشيعه ارتين الى الباب فقال له : ماذا ترى ؟

قـال : انه يعيش ساعة ايضاً إذا بقي الخنجر في صدره وإذا أخرج يموت للفور .
ـ ألا يمكن انقاذه ؟
ـ كلا واأسفاه .

فعاد ارتين الى الجريح وقال له : اطمئن يا سيدي فـان الطبيب يرجو لك الشفاء .

فقال له دندولو: اني اعرف حقيقة أمري فاسرع الى مجاوبتي عما اسألك عنه باتم الجلاء فان الأوان يفوت بعد نصف ساعة .

قال : سل يا سيدي ما تشاء .

قال . لقد قلت لي حين زرتني ان رولاند من اصدقائك .
ـ هو ذاك .
ـ إذن استطيع أن أعهد اليك بمهمة سرية اليه .
ـ دون شك فانه يزورني في أكثر الأحيان .
ـ أريد أن أعطيك كتابا اليه .
ـ وأنا اتعهد بتسليمه اياه .
ـ وسأملي عليك الكتاب فتكتبه بخطك .

ـ كما تريد

ـ اقسم لي أنك تنسى كل ما أمليه عليك .

ـ اقسم .

ـ اذن اكتب .

فاحضر ارتين معدات الكتابة واملى عليه دندولو ما يأتي :

« رولاند .

« اني على وشك الموت فقد أصبت بطعنة خنجر لا سبيل الى النجاة منها فكل ما أقوله لك حقيقة لا ريب فيها فان القادمين الى لقـــاء ربهم لا يكذبون .

« رولاند اني جبان وقد حملني ضعفي على ارتكاب جريمة كانت شراً عليك .

« ولو كنت وحدك الذي شقيت بسبب هذه الجريمة لتعزيت ولكن أباك وأمك قد أصيبا بها وكذلك ابنتي قد عوقبت بذنب سواهـا واليك بيان الحقيقة .

فقاطعه ارتين الشاعر وقد غار على صناعة الانشاء وقال له : الا ترى ان الاملاء ركيك ؟

قال : اني استحلفك بشرفك ان لا تغير كلمة من هذا الكتاب ثم عاد الى الاملاء فقال :

« رولاند ان ابنتي جديرة بك وقـد ضحت نفسها واقدمت على ما لا يقدم .

« وذلك انك كنت في السجن فتوعدني التياري بالدمار وبالقتل وبالقهم إذا لم اطعه فاضطررت الى الامتثال له لأني جبان .

« وقد قلت لليونور مرة انك هربت من فينيسيا وتخليت عنها وسلوت

« حبها ثم قلت لها مرة ثانية انك مت وأخيراً قلت لها اني في أشد مواقفه
« الاخطار وانه لا ينقذني من هذا الخطر غير زواجها بالتياري .

« فوافقت ليونور على ان تدعى باسم التياري ولكنها لم توافق على غير
« ذلك اي انها تكون امرأته بالاسم ليس الا فهي تحمل اسمه ولكنها
ليست امرأته .

« وما زالت على ذلك الى الآن فانها حين اعتقدت انك مت مات كل
« رجاء في قلبها ووفت بعهدك بعد الموت ولما علمت انك حي عادت الى
« عبادتك فهي هي على وفائها في الحياة وفي الموت .

« هذا ما أريد ان أقوله لك قبل ان تدركني الوفاة ولا أدري ايقدر
« لكما ان تلتقيا ام حكم عليكما بالفراق الابدي وهو ما ارجحه فان هذه
« الحوادث التي ستجري ستكون شؤما على ابنتي .

« وكل ما اطلبه اليك في هذه الساعة الاخيرة ان لا تسيء ظنك بليونور
« بل قدس اسمها في قلبك فانها ضحية ضعفي وشهيدة الوفاء استودعك الله
« يا رولاند .. الوداع يا ليونور .. اني سأوقع على هذه الرسالة وأموت ».
وعند ذلك أخذ القلم من يد ارتين وكتب اسمه في ذيل الرسالة .

وبعد ذلك وضع يده على الخنجر المغمد في صدره وجذبه برفق فلم تمض هنيهة حتى فاضت روحه وردد النفس الأخير .

فكبر موته على الشاعر ارتين وقال في نفسه : ويح لي ما اعظم شقائي فهذه جثة ثانية في منزلي لا أدري ماذا اصنع بها وأخاف ان أكره على السفر بها كما فعلت بجثة بيانكا .

وعند ذلك خطر له ان يبحث في جيوب الفقيد عله يجد وصية كتبها قبل موته فلم يطل بحثه وظفر بورقة مطوية كانت في جيبه ففتحها وقرأ فيها ما يأتي .

« انا دندولو كاتب هذه السطور عزمت على مغادرة فينيسيا ولي اعداء كثيرون أخاف ان يفتك بي أحد منهم على الطريق .

« فاذا حدث وقتلت التمس ممن يطلع على هذه الوصية أن يعمل بشروطها وهي :

١ ان يخبر بموتي ابنتي ليونور المقيمة في فينيسيا في قصر زوجها التياري القائد العام ويتلطف جهده بأخبارها .

٢ ان تحمل جثتي الى فينيسيا وتدفن في تربة ابائي .

٣ ان يذهب الى ملانو وهناك يذهب الى آخر منزل في شارع سانتو فينزل إلى القبو وينزع أول بلاطة في الصف الاول من جهة الباب فيجد هناك صندوقاً ».

فتنحنح ارتين ومسح عينيه وقال ، العلي اقرأ خطأ فلاقرأ بسكينة .

« وهذا الصندوق يحتوي على خمسين الف ريال والف دينار وحجارة كريمة يبلغ قيمتها خمسين الف ريال » .

فكاد ارتين يغمى عليه وصاح صيحة فرح عظيمة فتراكض اليه الخدم ولكنه انتهرهم وطردهم اقبح طرد فتراكضوا من وجهه مذعورين .

وبعد ان اقفل الباب في اثرهم عاد الى الوصية وقرأ ما يأتي :

« ان هذه الوصية إذا عثر بها نبيل أو شاعر أو رجل من أهل الفنون الجميلة فلا اهينه بعرض مكافأة عليه .

« وإذا لقيها لص وكان يحترم إرادة الأموات الأخيرة فليقنع بأربعة آلاف ريال .

« وإذا لقيها رجل فقير فاني اسمح له بخمسمائة ريال يستعين بها على حاله .

« ومهما كان الذي يظفر بهذه الوصية فاني التمس منه ان يقسم ما في الصندوق الى قسمين متساويين فيعطي قسما لرولاند وهو يكون أمـا في فينيسيا او في مغاور بيافا »

« والقسم الثاني لاينقي ليونور زوجة التياري القائد العام ».

الى هنا انتهت وصية دندولو فلما اتم ارتين تلاوتها نظر الى الجثة نظرة المؤنب وجعل يمشي في الغرفة وهو يحدث نفسه ويقول :

– اني لا استطيع أن أحسب نفسي من اللصوص فلا يحق لي ان اقبض اربعـــة آلاف ريال وأنا مضطر الى ان اعتبر نفسي شاعراً أي من الذين لا يجب ان يهانوا بعرض المكافأة عليهم .

ولكني اقبل هذه الاهانة ولو قبلت بها فكم تكون مكافأتي فانها لم تعين في الوصية .

ثم ضرب جبينه بيده فجأة وقال : اني أعد نفسي من الفقراء ومن عسى ان يكون افقر مني وأنا من الشعراء .

ولكنه وا أسفاه لم يجد على ذلك الفقير الا بخمسمائة ريال .. وحبذا لو كانت دنانير على الاقل » .

مسكين يا ارتين لا بـد لك من الاكتفاء بخمسمائة ريال .. ولكن لماذا المسكنة فاني اتمنى بهذه القيمة ان تمطر السماء منزلي جثثاً في كل يوم .

وقد تعزى ارتين بهذا الخاطر وخرج من غرفة الميت فلقي بيريتا وقال لها : لقد اصبت بمصيبة فادحة يا بيريتا فقد خسرت ثروة عظيمة .

وقد ترك الجثة في موضعها ودخل الى غرفته فجعل يفتكر بما يجب ان يصنعه فارتأى ان يخبر في البدء التياري بموت عمه ثم يهتم بدفنه إذا إذن له التياري ان يتولاه ثم يذهب الى ميلانو فيأتي بذلـك الصندوق العجيب ثم يأخذ منه خمسمائة ريال ويقسم البـاقي الى قسمين حسب الوصية ثم يذهب بكتاب دندولو الى رولاند .

وهنا لا بد لنا من الثناء على هذا الشاعر فانه لم يخطر له في بال ان يستأثر بما في الصندوق على شغفه بالمال وما ذلك الا لأنـه كان من فحول الشعراء أي من اولئـك الادباء الذين هذبت الآداب نفوسهم فما غرهم مال وما تدنسوا بنقيصه .

٧٤

الزوجة

وفي صباح اليوم التـالي لبس ملابس مقتمة وذهب لانفاذ وصية الميت وقد وضع كتاب دندولو الى رولاند في جيبه فجعل يقول في نفسه : ترى ايجب ان أخبر ليونور بما تضمنته رسالة ابيها إلى رولاند فان هـذه الانباء تفيدها ؟

ولكن من يعلم ما يكون بعد ان أصيبت هذه العائلة بذلك اليأس القاتل فقد يحدث اذا اطلعت على الرسالة أمور هائلة تنقض صواعقها على رأسي .

وبعد فان الميت لم يعهد الي بأن اطلعها على الرسالة بل سألني ان اسلمها إلى رولاند فلاحترم ارادة الميت .

وقبل ان يخرج من منزله دخل الى غرفة الميت كي يتحقق ان حوادث الأمس لم تكن حلماً فرأى دندولو ميتـاً كما تركه وذهب الى قصر التياري فتمكن بعد الجدال العنيف من الاذن له بمقابلة ليونور .

وكانت ليونور قد قضت ليلة هائلة فان ما أخبرها به ابوها عما فعـله التياري حول حزنها الى غضب وانتقام فقالت : ان التيار لا يموت الا من يدي ولم تقل هذا القول عن بادرة حدة بدرت منها بل انها كانت عازمة كل العزم على ذلك وهي تعلم يقيناً انها إذا قتلت زوجها كان قتله داعياً الى فراق الأبد فاذا بقي لها بقية رجاء ذهب هـــذا الرجاء فان جميع أهل فينيسيا يعلمون انها لم تقتـــل زوجها إلا للاقتراب من حبيبها رولاند من حبيبها رولاند كانديانو .

على ان هذه الفتاة كانت ترجو على قنوطها ان تعود الى ذلك الزمن القـــديم ولكنها لا تعلم كيف ترجو وعلى أي اساس تبنى هذا الرجاء فكان اليأس عظيما في قلبها إذ كانت تعتقد انها متى قتلت التياري لا بد لها ان تنتحر .

وقد تمكن منها فكر الانتحار ولذلك باتت تلك الليلة التي قتل فيها ابوها على أحر من الغضا فبينما كان ابوها يموت في منزل ارتين كانت هي تتأهب للموت ايضاً .

ولما جـاء ارتين وطلب مقابلتها امتنعت في البدء ثم أذنت له بالدخول حين ذكرت ان هذا الشاعر قد جاءها بصورة رولاند .

فدخل ارتين اليها وقال لها : اني قادم يا سيدتي بانباء لا بد من اخبارك بها ولذلك اغتفرت لنفسي خطأ الالحاح بمقابلتك فان هـذه الانباء خاصة بابيك الشهير .

وكان أرتين يتوقع ان تسأله الاسئلة الكثيرة ولكنها سكتت ولم تجب بشيء فقال لها : لقد رأيت اباك يا سيدتي امس في منزلي وقـــد جاء اليه دون ان يزيد أي انهم جاءوا به الي .

— جاءوا به اليك :

— نعم يا سيدتي وذلك يحملك على الظن انه جريح .

— أنه يدعونني اليه فهلم بنا .

— كلا يا سيدتي فتفضلي بالاصغاء الي فانه مصاب بجرح خطر قاتل .

— بل تريد ان تقول انه مات ؟

— هو ذاك يا سيدتي فقد حملوه الى منزلي وهو بحالة النزع فلم يستطع الا ان يعهد الي باخبارك والله يعلم ما ..

فمنعته من الكلام باشارة وقد اصفر وجههـا وذكرت ان دندولو ابوها وانها باتت وحيدة في هذا الوجود فشعرت بخوف عظيم لم تدرك سببه وهي

قادمة على الموت ونظرت الى ارتين وقالت له : لقد قلت ان ابي كان جريحاً .

— نعم لقد فاجأه احد اللصوص بطعنة خنجر تحت منزلي وسمعت صيحته فاسرعت لنجدته فوجدته ملقياً على الأرض فحملته الى المنزل واسرعت باحضار الطبيب فلم يجده نفعاً وا اسفاه .

— اشكرك يا سيدي على كل ما صنعته .

— اني لم افعل غير واجباتي وليس هذا كل شيء فان الفقيد الكريم قد عهد الي بدفنه .

— كلا فان ذلك خاص بي .

— اذن يجب ان انقل الجثة الى هنا ؟

— بل انا اتولى هذه المهمة ايضاً فتفضل بمرافقتي الى منزلك .

فانحنى أمامها بملء الاحترام وهو قلق لسكونها اذ كان موقنا بان النار تتأجج في صدرها .

وكانت ليونور تعتقد ان اباها قد قتل بيد التياري أو أحد رجاله فلم يزدها ذلك حقداً على زوجها إذ لم يعد يحتمل المزيد وسارت مع ارتين الى الغرفة التي وضعت فيها جثة أبيها فتركها وحدها .

أما ليونور فانها دنت من أبيها فركعت أمامه وأخذت يده بين يديها .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل منه رجل والنار تتوهج في عينيه .

وذلك انه بينما كانت ليونور تدنو من جثة ابيها دخل رجل الي منزل ارتين وهو ملتف بردائه وقد لقي ارتين في صحن الدار فقبض على ذراعه وقال له : اين هذه المرأة التي دخلت بها ادعها الي في الحال .

فصاح به ارتين قائلا : ويحك هل انت من المجانين أم انك تريد أمر خدمي فيطردونك بالسياط .

— ويح لك ايها الشقي اني اقتلك شر قتل إذ لم تمتثل .

ولكنك تقدم على أمر منكر ايها الرجل فان هذه السيدة التي هناك تتمم واجباً مقدساً ويجب عليك ان تخجل .

فلم يسمع الرجل مزيداً واسرع الى الغرفة التي أشار اليهـا ارتين ودفع بابها بعنف فدخل .

أما ليونور فانها التفتت ورأت أمامها زوجها التياري فقالت له : لقـد انتهى بك الأمر إلى ان تراقبني .

فلما رأى التياري جثة دندولو نزع قبعته وتراجع ببطء .

وكان قد رأى ليونور خرجت من القصر وهو يعلم ان رولاند في فينيسيا فايقن انها ذاهبة اليه أي انهـا تحاول الفرار فاقتفى اثرها ووصل حين دخولها .

أما ليونور فانها قالت له : ألعلك ات لتشق من موت ضحيتك ؟

فاجفل التياري وقال: ضحيتي .. اني أقسم لك بان لا علم لي بما حدث ولكن دندولو قد خان كثيرين من فينيسيا وكنت أكرهه لأني لم ألق منه غير السوء ولكنه كان أباك... كلا يا سيدتي لست أنا الذي قتلته فابحثي عن قاتله بين الذين خانهم كما خانك وخانني . وأنا الآن ذاهب فلو كنت عالماً الى اين كنت قادمة لما وافيتك .

وعند ذلك نظرت ليونور الى ذلك الخنجر الذي قتل به أبوهـا وكان لا يزال في يده.

ولكنها قبل أن تقبض عليه كان التياري قد انصرف فوقفت واجمـة وكلمات التياري ترن في أذنيها حيث قال :

— ان دندولو قـد خان كثيرين في فينيسيا فابحثي عن قاتله بين الذين خانوه .

فجعلت تقول في نفسها ترى أي رجل لقي من خيانة أبي مثل ما لقيه رولاند .

وقد ذعرت عند ذلك أو خطر لها ان رولاند قاتله وإذا كان ذلك فهل يحق لها أن تلومه.. كلا ولكن القدر قد وضع سداً عظيما بين هذين العاشقين الذين تحدثت بحبهما الركبان فلم يبق عليهـــا الا ان تحني رأسها صاغرة لهذا القدر .

وبعد هنيهة نقلت الجثة الى قصرها وعينت موعد الدفن في اليوم التالي أي في اليوم الاول من شهر شباط وأقامت تلك الليلة تحرسها .

وكان خاطر الانتحار قد تمكن منها فجلست أمام جثة أبيها وتاهت في مهامه التفكير .

وبعد زمن طويل التفتت فرأت رجلاً ينظر اليها وكان هـــذا الرجل زوجها .

فقال لها التياري : اني واقف هنا منذ ثلاث ساعات وأنت لا ترينني وكنت انتظر ان يقـــع نظرك علي .. نعم اني اذكر اتفاقنا وهو انك تكتمين سري وفي مقابل ذلك لا ادخل الى غرفتك ولا اكلمك ولكن يجب اليوم ان أكلمك لأن الذي سأقوله امر خطير ولا أدري اذا كنت استطيع الكلام بعد قليل .

قالت له : ماذا تريد أن تقول لي ؟

فارتعش التياري فرحاً إذ لم يجد في لهجتها ما يدل على غضب أو نفور فقال لها : بصوت متهدج اتريدين اذن الاصغاء الي ؟

قالت : انك ما زلت نقضت الاتفاق فاتلفه بجملته وتكلم فاني مصغية اليك .

ومما تجدر ملاحظته ان ليونور لم تكن تأذن له من قبل بمحادثتها لانه كان زوجها أما الآن فقد بات عدوها الذي عزمت على الانتقام منه بالقتل ولا بد من مقابلة الاعداء للوقوف على نياتهم فانها باتت تكرهه الآن فوق ما كانت تحتقره .

فقال لها التياري: اني أحببت ان أكلمك أمام الميت فان اباك الذي كنت اكرهه أعده الآن شاهداً مقدساً على ما أقوله وأني اقسم بهذا الميت على اني لا اقول لك غير الحقيقة فاسمعي ؟

انك تعلمين بأنه ستجري حوادث خطيرة فانك عالمة بمؤامرة الفينيسيين على الدوج فوسكاري وانهم يريدون أن أكون أنا خلفاً له .

وغداً بعد الظهر سأضع على رأسي تاج فينيسيا إذ لا شيء ينقذ فوسكاري الآن ولا يوجد من ينازعني السيادة .

فانت الآن في حالة تحسدك عليها الأميرات ولا يبعد أن يكون لك في وقت قريب لقب ملكة فاني أرجو ان يكون لي لقب ملك .

ولقد نظرت إلى ما حوالي ونظرت الى المستقبل فرأيت أن مجد الجمهورية ومصلحتها يقضيان بأن يكون الاتفاق تاماً بين الدوج والدوجة اتسمعين ما اقول يا سيدتي ؟

– اني مصغية اليك .

– وقد أتيت اسألك ماذا يكون نهجك حين تدخلين الى سراي الدوج الذي أقام فيها كثيرون من أجدادك .

– اني انهج نهج امرأة بيعت وأنت اشتريتها أي نهج عبـــدة تكره سيدها .

وقد كان يرجو أن يبهرها جلال الملك وان تكون قد ملت عيش العزلة والانفراد ولكنه رأى من جوابها وسكينتها ان عزيمتهـــا ثابتة لا تتزعزع فكظم غيظه وغير خطة حديثه فقال :

– انك ترفضين ذلك التاج الذي أعرضه عليك وتأبـين أن تكوني تلك الدوجة التي تحسدها كثيرات من الأميرات الايطاليات فلادع الآن هـــذه الابحاث لأعود الى بحث آخر . اتعلمين يا سيدتي من الذي دبر هذه المؤامرة التي سينفجر بركانها بعد غد . أتعلمين لماذا يقتل رجل فينيسيا ويسفكون

دماءهم في ذلك اليوم ، ان كل ذلك من اجلك نعم اني انا الذي اعـــددت المؤامرة ولكن جميع تلك الدماء والدموع لا تسيل لا في سبيل انتصارك فقد خطر لي انك إذا ارتفعت الى العلى لا تتدانين الى خفض النظر وتنسين ذلك الماضي وخيل لي ان الأميرة ليونور سوف تنسى الحقد الذي كان كامناً في صدر مدام التياري .

وانت ترين اني لم أخاطر بحياتي ولم اعمل هذه الاعوام الطويلة إلا من اجلك .

على أني سأرجع عن هذه المطامع ما زلت لا تريدين ان تكوني أميرة إذ لا فائدة لي بعد ذلك من منصب دوج .

فلم تجبه ليونور بكلمة ولبثت صامتة كأنها لم تسمع ذلك الحديث فهاج غضب التياري ولكنه كبح جماح غضبه وقال . اسمعي ايضاً فاني اقترح عليك ان نبرح فينيسيا ونذهب الى حيث تشائين ونعيش كما تريدين فنسافر منذ الليلة وادع رفاقي الذين دفعتهم الى هذه المؤامرة أي كما اني كنت بطلاً في سبيلك أصبح جباناً في سبيلك ايضاً اتريدين . قولي أتقبلين ؟

ـ قل لي يا التياري ألست أنت الذي وضعت وشاية امباريا في صندوق الوشايات .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انك سمعتني فيما اظن فان امباريا كتبت الى مجلس العشرة تقول ان رولاند كانديانو قتل جان دافيليا ألم تكن أنت الذي أملى عليها هـــذا الكتاب ؟

ـ كذب وافتراء فاني لا اتدانى الى مثل هذه النقيصة .

فمدت ليونور يدها الى جثة أبيها وقالت : الا تسمع يا أبي ما يقول بعد ان اقسم بجثتك انه يقول الحقيقة ثم التفتت الى التياري وقالت : من منكم

الذي وضع الكتاب في صندوق الوشايات فقد كنتم تأتمرون على قتل رولاند وكنتم كثيرين؟

— كذب وافتراء فاني لم أشر على امبريا بشيء ولم يوضع كتاب في صندوق الوشايات .

فقاطعته قائلة: التياري من الذي أراد الاجتماع بابي في ساحة سانت مارك بعد اجتماع المؤتمرين بقليل من منزل امباريا .

وهنا أخذت يد أبيها الميت وهزتها بعنف وقالت: تكلم يا ابي .. استفق من سبات موتك وأعد على التياري ما حدثتني به .

فذعر التياري ذعراً عظيما لانهم كانوا في ذلك العهد يخافون خوفاً شديداً من أرواح الأموات وقال بصوت مختنق : نعم نعم اني اعترف بان كل ما تقولينه حق فقد كنت خائناً أثيما ... نعم فاني في ليلة خطبتك كنت اسمع الناس مع بمبو يذكرون اسم رولاند وليونور فتقطع الغيرة قلبي. نعم أنا هو الذي أغرى الحظية على المتهم رولاند وأعد تلك الرسالة التي القيت في صندوق الوشايات . نعم انا هو يا ليونور ذلك الخائن الأثيم .

على اني لو اضطررت على فعل اكثر من ذلك لأفصلك عن رولاند لفعلت. واني سأفعل ما لا يخطر في بال بشر لتكوني لي بل اني أدخل الى جهنم النار واستعين بابالیسها كي لا تحول قوة في الوجود بيني وبينك .

وقد أهانني رولاند اهانة لا تحملها نفس أبية واضطررت الى المخاطرة بحياتي وسفك دماء الناس واثارة فينيسيا ولكني لم أفعل ذلك لنيل منصب الدوج بل للفوز برولاند وانتزاع قلبه من صدره لأنك تحبينه .

وقد هاج غضبه واتقدت عيناه ومشى الى ليونور :

ولكن لبثت واقفة في مكانها تنظر الى جثة أبيها كانها تستشهد على ما يقول .

أما التياري فانه ضم قبضتيه ورفع يده كانه يريد أن يسحقها فالتفتت

اليه عند ذلك وقالت له : أتم جرائمك واقتلني فانك إذا قتلتني تستريح ولا يبقى حولك من تغدر به .

فسقطت يد التياري وتراجع عنها خطوة وقد هاج غضبه فعمد الى الشتم القبيح واتهمها بكل ما يخجل المرأة ثم قال لها : أما انا فاني حر على الأقل فقد أحببتك ولا أزال أحبك بدون عقل وقد فعلت ما لم يكن يمكن فعله كي تكوني لي وأما انت فقد أحببت سواي ورضيت مع هذا الحب ان تسمي باسمي فاينا أفضل وأينا الخائن اجيبيني ايتها الشقية اجيبيني .

قالت : نعم أجيب وجوابي اني عفوت عنك .

— أنت .. أأنت تعفين عني ؟

— ألم تقل لي ان رولاند قد عفا عنك ويجب على كل امرأة ان تقتدي بالرجل الذي تحبه .

فقبض التياري على شعر رأسه حتى كاد ينتزعه وقال اقتلها ... ولكن كلا .. لا استطيع لاني لا أزال أحبها .

ثم برح تلك الغرفة وهو يقول : لعنتك السماء والارض فانك علة شقائي .

اما ليونور فانها سقطت على كرسي واهية القوى وهي تقول : انه لم يجسر على قتلي فلا بد إذن من ان اقتل نفسي .

وقد دل هذا القول على مبلغ يأس تلك المنكودة فانها لم تهج غضب التياري الا لتحمله على قتلها ولم تحاول قتله لأنها علمت ان رولاند عفا عنه ولذلك عزمت عزماً أكيداً على الانتحار بعد ان تدفن أباها .

وكان مدفن عائلة دندولو في الجزيرة وراء كنيسة فرموز ولا يبعد بيت الجزيرة عنه غير بضع خطوات فذهبت الى ذلك البيت وهي تعلم انه لرولاند فدخلت اليه وذهبت الى غرفتها القديمة فيه فلبست تلك الملابس التي كانت تلبسها ليلة خطبتها فان ملابس العزارى كانت في ذلك العهد عن ملابس

المتزوجات ولعلها كانت تريد ان تكون الظاهرة كما هي في الحقيقة بل ربما أرادت ان يعلم أهل فينيسيا انها إذا ماتت في غير منزل زوجها فذلك لانها لم تكن متزوجة بل كانت عذراء بل ربما كانت تريد ايضاً ان يعلم رولاند بعد موتها ان كبرياءها منعها على ان تقول له :

ـ اني لا أزال وفية بعهدك واني لا أزال نقية عذراء .

وقد عزمت بعد تلك الليلة ان تنتحر بشرب السم وأقامت تلك الليلة أمام جثة أبيها .

***

وفي صباح اليوم التالي بعد ان حملت الجثة الى المدفن وذلك في صباح اليوم الأول من شهر شباط تفرق النساس وانصرف التياري وضباطه فساد السكون الرهيب في قصر التياري القائد العام .

٧٥

اليوم الاول من شهر شباط

ان هذه الحوادث التي سنقصها منحصرة في يوم واحد وهو اليوم الاول من شهر شباط الذي بات يوماً تاريخياً في فينيسيا .

ولا تجد مثلنا في قص حوادث ذلك اليوم الامثل ذلك الكيماوي الذي لا يعرف مواد الجسم إلا بعد تحليله والنظر في عناصره ثم يعود الى تركيب تلك العناصر وكذلك نحن لا بد لنا من بيان تلك المقدمات التي تؤدي كلها الى نتيجة ذلك اليوم .

ففي صباح اليوم الاول من شهر شباط كان جينارو رئيس البوليس

لا يزال ساهراً الى الساعة الخامسة من الصباح فانه قضى كل ليلته بالامعان والتفكير .

وقد وقف في النافذةوجعل ينظر منها الى فينيسياوالقمر لا يزال مشرقاً في سمائها وقد اصفر وجه النجوم لقرب بزوغ الفجر .

ولكن جينارو لم يفكر بهذه النجوم وقد اغلق النافذة وهو يقول : ان الهواء بارد ولكنه سيهب سخناً بعد بضع ساعات ويكون اليوم هائلاً .

وعند ذلك دخل الى غرفة كان فيها كثيراً من الملابس المختلفة يستعملها للتنكر فبالغ بالتنكر وابتسم ابتسام المعجب بنفسه وهو يقول : اني لا أكاد أعرف نفسي .

وقد تنكر بملابس الحجاب المقيمين في سراي الدوج وبرح منزله من باب خاص لا يخرج منه سواه .

وبعد هنيهة وصل الى جوار سراي الدوج فلقي فرقة واقفة هناك من الجند فاجتازها ودخل الى الدوج بفضل كلمة السر الذي لقنـه اياها الدوج نفسه فكان يستطيع ان يدخل اليه متى شاء .

وقد لقي القاعة فارغة فجعل يناجي نفسه فيقول : هوذا اليوم العظيم التي تحتفل فيه فينيسيا بتزويج الدوج من الادرياتيك ولكن ترى من الذي سيكون الدوج التياري أم فوسكاري أم كانديانو ؟

على أنه مهما يكن المنتصر فان أعمالي سائرة على محور الفوز وكل من ينتصر من هؤلاء الثلاثة انتصرت معه فاذا فاز فوسكاري فهو لا بد له مني وفوق ذلك فقد وعدني وعداً اكيداً وسيكون أول ما يمضيه حين عودته إلى السراي أمر تعييني رئيساً لديوان التفتيش .

وأما التياري فقد خدمته أجل خدمة حين أخبرته أين يوجد كانديانو وهو لم ينجح ولكن ذلك لا ينقص قدر الخدمة وفوق ذلك فهو يعلم يقيناً اني واقف على سر المؤامرة واني استطيع عنـد الاقتضاء ان أبرهن له عن

ذلك فهو اذن يثق من اخلاصي ولا يبخل عني بهذا المنصب إذا فاز وقد بقي كانديانو فاني أطلعته على نيات فوسكاري وعلى ما يصنعه التياري ورفضت رفضاً باتاً ان اقبض عليه في حين ان ذلك كان من واجباتي فلا ريب عنده باخلاصي .

ونعم ان رولاند قال انــه سيلغي منصب ديوان التفتيش ولكني استطيع اقناعه أنه لا بد لفينيسيا من هذا المنصب وهو من أهــل العقل وسيحفل ببراهيني .

وخلاصة ما تقدم اني أخلصت لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وخلت كل واحد منهم وبات كل واحد منهم يعتقد اني من المخلصين في خدمته فليتنازعوا الملك وليقتتلوا عليه ما يشاؤون إذ لا بد لواحد ان يفوز ولا بد لي أن افوز الفوز العظيم فانهم والحق يقال لا يشتغلون لأنفسهم بقدر ما يشتغلون لي .

وقد جعل يضحك حتى سمع خطوات فوسكاري فانقطـع عن الضحك ودخل الدوج فلقيه جالساً في قاعته .

ولم يعرفه الدوج في البدء حتى عرفه بنفسه فسأله قائلاً : لماذا هــذا التنكر ؟

قال : لأني أبلغت التياري بأني غائب عن فينيسيا فـلا يجب أن يراني وبهذا اللباس استطيع أن أكون دائماً بجانبك .

ـ ولكن لماذا أبلغت التيارى انك غائب عن فينيسيا ؟

ـ لأنهم إذا علموا بوجودي في فينيسيا قد يغيرون خطة المؤامرة لخوفهم مني وإذا علموا اني غائب يطمئنون ويبقون الخطة على نفسها .

فأعجب فوسكاري به وظهرت عليه علائم الاطمئنان فسأله قائلاً :

ألم تعلم شيئاً عن رولاند ؟

ـ كلا يا مولاي .

ـ اذن ليس هو في فينيسيا .

ـ اؤكد لكم انه لغاية امس لم يكن هنا . وقد قال هذا القول دون أن يكون كاذباً وسيعرف القراء لماذا .

ـ على ذلك لا يكون هناك الآن ؟

ـ من يعلم يا مولاي فانهذا الرجل عجيب فيسرعة انتقاله فبينما نحسب انه في فينيسيا تجد انه في رومه يقتل امباريا وبينما هو في رومه يتصل بنا انه في مغاور بيافا يجري أموراً لا تعلمها وبينما نعتقد انه هناك قد تجده بعد ساعة في ليدو .

ـ وأي شأن له في ليدو ؟

ـ أظن أنه عالم بما سيحدث .

ـ كيف عرف ؟

ـ من يعلم فأني أقول ما أقوله على سبيل الظن والذي اظنه أنه إذا كان عارفاً بما سيحدث فلا بد له أن يحضر .

ـ وأية غاية له من الحضور ؟

ـ أنه يكره التياري كرهاً لا حد له والذي اراه أنه يريــد احباط مساعيه بحيث انه سيكون نصيرك اليوم بالرغم عنه .

ـ نعم ان ذلك معقول وانما يفعله كي يبقى له عدو واحد بدلاً من اثنين.

ـ هو ذاك .

ـ هل أتممت معداتك ؟

ـ نعم يا مولاي فانساحة سانت مرك قد احتلتها الجنود بأمرك وجميع عمالي وجواسيسي في مراكزهم على جميع الطرقات التي يسير فيها الموكب وقد صدر اليوم الأمر بالالتفاف حولك كلما تقدمت بحيث انك حين تبلغ الرصيف تجد جميع جواسيس المدينة محيطين بك وكل واحد منهم مسلـح بخنجر وغدارة .

ـ حسناً يا جينارو .

ـ وفوق ذلك فقد وزعنا كثيراً من المال على الشعب كي يهتفوا لك حين مرورك وأخذت فرقة من الجند فقسمتها الى فرق فرقتها في المدينة فاذا بلغت الساعة العاشرة ودق جرس سانت مارك زحفوا كلهم الى سراياك وهم يهتفون فيصلون اليها حين تصل .

ـ حسناً فعلت يا جينارو .

ـ أما الذي سيحدث في ليدو فقد خصصنا زورقاً جميلاً مزيناً لحملك الى سفينة الأميرال التي تجري الحفلة فيها .

وأنت تعلم يا مولاي انك إذا ذهبت إلى هذه السفينة بت أسير التياري لأن جنوده فيها ولكنك حين تصل الرصيف تشير الاشارة الخاصة بدلا من ان تركب الزورق فينقض المخلصون لك بخناجرهم على زعماء المؤامرة المحيطين بك ويقتل كل منهم الزعيم الذي أمر بقتله وتطلق السفينتان الملاصقتان لسفينة الاميرال نيرانها على تلك السفينة بحيث يكون الفوز مضموناً فتعود الى سراياك فائزاً منتصراً وقد قتلت زعماء المؤتمرين على غرة وأرعبت قلوب الآخرين .

ـ حسناً فعلت يا جينارو فانتظرني لالبس ملابسي .

وكان جميع موظفي الحكومة قد اجتمعوا في السر وبينهم التياري فعين رئيس التشريفات موقف كل منهم في الموكب وتجمهر الشعب في الخارج .

وبعد هنيهة فتح باب القاعة الكبرى وخرج منه فوسكاري بملابسه الرسمية وقد وضع التاج على رأسه وتقلد حسامه المرصعة قبضته باليواقيت واللآلىء ولبس ذلك الوشاح الكبير فكان يحمل ذيله الطويل اثنان من الخدم وقد دخل الى تلك القاعة العظيمة يتقدمه رئيس التشريفات ووراءه ستة من الحجاب فالدوج وستة حجاب من ورائه فأهل منزله وفي الختام أربعون جندياً .

فاحدقت به العيون كالنطاق ومشى الى وسط القاعة بملء الجلال فصاح التياري قائلا : ليحيى الدوج .

فردد الجميع الهتاف وتنبه فوسكاري للهاتفين فرأى ان معظمهم كانوا ينظرون الى التياري .

وبدت عند ذلك التهنئات بينا كان التشريفاتي يعين لكل مكانه في مكانه في الموكب ما خلا التياري فقد أراد الدوج ان يكون بجانبه .

فلما تمت هذه المعدات دقت اجراس سانت مارك فكانت إشارة الى سير الموكب .

وخرج الموكب من السراي فكان جينارو أحد الذين كان يحملان ذيل رداء الدوج فكان ينظر نظرات تشف عن القلق الى الشعب وفوسكاري والتياري :

وقد اجتاز الموكب نصف الطريق دون حادث حتى بلغ الى طريق ضيقة فتوقف عن المسير ورفعت القبعات جميعها عن الرؤوس واصفر وجه التياري وذلك ان موكباً آخر قد اعترضه مؤلف من الرهبان والكهنة ووراءهم نعش دندولو وليوفور في أثره .

حتى إذا مرة الجنازة نظر كل من فوسكاري والتياري الى خصمه وهو يقول : ترى على من يكون منا شؤم هذه الجنازة ؟

٧٦

رولاند كانديانو

في الليلة الأخيرة من شهر كانون الثاني كانت مغاور بيافا وضواحي المغارة السوداء متلألئة بأنوار المشاعل .

وحول هذه المشاعل جمهور من الناس يبلغ عددهم خمسمائة رجل وكلهم بملابس أهل الجبال .

وكل منهم قد اسند يده الى بندقيته ووضع غدارتين في حزامه وتقلد خنجراً .

وقد اجتمعوا بشكل هـلال ووضعت أمامهم منصة عالية تشبه منبر الخطاب .

فصعد اليها رجل كانوا ينظرون اليه نظرات الاعجاب والحب فان هذا الرجل كان رولاند .

وكان رولاند يخطب فيهم فيقول : لقد اصبحتم الآن رجالاً لأنكم تعلمتم ان واجبات الرجال ليست قاصرة على حماية الضعيف بـــل على اضعاف القوى ايضاً .

إذ أية ضمانة لحماية الضعيف بوجود القوة فانها ما زالت موجودة فلا بد من توالي الثورات فخير طريقة لحماية الضعفاء ابادة الاقوياء .

وإذا قيل لكم ان الأقوياء قد تكون صدورهم عواطف رحمة وعدل كانوا كاذبين .

فان المرء لا يشتد خطره ويكثر شره إلا باشتداد قوته فالقوة هي مصدر الشر .

هذا الذي عرفتموه وصرتم به رجالاً ولذلك ارفض تلك السلطـة التي أردتم ان تسلموني اياها .

فاذا أتيح لنا النصر اتولى الادارة العمومية ستة أشهر وأكون دوجـــاً بالاسم لا بالفكر وأفرغ جهدي لتعليم شعب فينيسيا معنى الحرية الحقيقية فمتى عرفوا انهم لا يحتاجون في سعادتهم الى رؤساء ودعتهم وداع الأبد .

وهنا سكت رولاند ونحن لا نتولى نقـــد قوله بل ندعه الى القارىء ونكتفي برواية ما حدث .

ولا شك ان سامعيه كانوا يرتأون رأيه إذ لم يخطر لأحـد أن يثنيه عن عن عزمه على تولي الرياسة ستة أشهر على ان المستقبل يخالف الظنون ولكن رولاند كان يقول ما قاله بملء الاخلاص .

وفي كل حال فان هذه الأقوال لم توحها اليه المبادىء الفلسفية وحدها بل كان لليونور يد فيها .

وذلك ان حبها كان يتجسم في قلبه في كل يوم وهو في كل يوم يزيد قنوطاً من لقائها إذ لا يمكن ان تكون زوجته .

ومن هنا تولد يأسه ولم يعد يكترث للحياة إذ لم يجد نعيماً فيها .

ووطد النفس إذا انتصر على تولي السلطة الى ان يتمكن من سحق قوة الظالمين ثم يذهب إلى حيث لا يعود .

هذا ما كان يفتكر به حين كان يخطب بالقول فلما نزل عن المنبر ذهب الى المغارة السوداء .

وهناك اجتمـع الزعماء فعين لكل منهم المهمة الخاصة بـه في يوم أول شباط .

وتعين على كل منهم ان يسافر في الليلة نفسها الى فينيسيا برجاله فيذهبون اليها في طرق مختلفة ويجتمعون في مكان معين .

وكان قد أرسل منذ أسبوع الف رجل إلى فينيسيا بحيث بات عـدد اولئك الذين كانوا من اللصوص الفي رجل .

وهذا عدد رجاله الذين سيحاربون غير انه كان له أضعاف هذا العدد في فينيسيا من البحارة والعمال والتجار الذين عملوا على نصرته بالسر وانتصروا ذلك اليوم العظيم .

وكان لرولاند الشعب ولالتياري الجند ولفوسكاري موظفو الحكومة .

ولما انتهت الجلسة في المغارة السوداء برح اللصوص الجبل وعزم رولاند على الذهاب الى فينيسيا فالتفت باحثاً بنظره عن رفيقه الامين .

فاسرع سكالابرينو اليه وقال له : هوذا أنا يا مولاي .
قال : إذن هلم بنا الى فينيسيا فقد آن الأوان .
فقال : اني أحب قبل ذلك ان اكلمك يا مولاي .
قال : ماذا؟
قال : صبراً الى ان ينصرف جميع إخواننا .

- ٧٧ -

الوداع الأخير

ولما انصرف الجميع قال له رولاند : تكلم الآن :
قال : مولاي اني أريد أن أودعك الوداع الأخير .
فارتعش رولاند وقال له : ماذا تعني ؟
– انك يا مولاي عينت لكل زعيم مهمة إلا أنا ..
ولكنك تبقى بجانبي فلا تفارقني وهذه هي مهمتك :
فأجابه بلهجة ملؤها الحنو قائلا : دعني اتمم حديثي يا مولاي فاني عينت لنفسي مهمة وأنا التمس منك ان لا تسألني عنها ولا بد لي لانفاذها من ان افارقك الآن .
فحدق رولاند به وقال : اتقسم لي يا سكالابريو انك لا تريد الانتحار .
فارتعش سكالابرينو ولم يجب فأخذ رولاند يده وقال له : أرى انك قد يأست من الحياة ايها الصديق .
قال : هل تجسر يا مولاي أن تقول بأنك لم تيأس منها انت ايضاً فقد كنت لصاً شقياً لا عاطفة لي ولا ضمير فجعلتني رجلاً وعلمتني أن أفتكر أي ان أشقى فلما عرفت بيانكا خلت ان أبواب النعيم قد فتحت لي وكان ذنبي الوحيد اني عودت نفسي على عبادتها .

أما الآن وقد عادت روحها الكريمة الى مبدأها فلا أنكر عليك اني سأمت الحياة .

ولكن لا تظن اني أحاول الانتحار فقد علمتني ان الانتحار ضعف وفوق ذلك فان وجودي معك خير بلسم لجراحي وخير عزاء لي عمن فقدت فثق اني لا ابغي الانتحار ولكني نهجت لنفسي خطة اظن انني سألقي فيها الموت ولهذا أردت وداعك الوداع الأخير لاعتقادك أني سأموت .

ـ ما هذه الخطة التي نهجتها ؟

ـ التمس منك يا مولاي ان لا تسألني عنها .

فاطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال له : اتقسم بأن تعود الي إذا سلمت من الموت ؟

ـ اقسم لك على الامتثال والآن فاسمح لي أودعك فلا بد من ذهابي لأصل قبل فوات الأوان .

وعند ذلك تقدم لصافحته وكانت المرة الاولى التي بدا فيها يمد يده الى رولاند .

ففتح رولاند ذراعه وعانقه عناقاً طويلاً وكلاهما يبكي لاعتقاده أنه الوداع الأخير ثم أفلت سكالابرينو منه وانطلق راكضاً كأنه لم يطق هذا الوداع .

أما رولاند فانه خرج من المغارة مطرقاً مفكراً فلقي رجلا ينتظر بجواد فامتطاه وسار به ينهب الأرض .

وأما سكالابرينو فانه كمن وراء صخرة الى ان خرج رولاند فجعل يتبعه بالنظر حتى توارى عن نظره فتنهد تنهداً طويلاً وذهب الى تلك الصخور التي دفنت تحتها ابنته بيانكا فجعل يطوف حولها وأقام مدة وهو ينظر الى تلك الأزهار النامية على ضريحها .

ثم ركع وجعل يقبل تلك الصخور والأزهار وهو يبكي بكاء اليما وبعد ذلك نهض فجأة وبرح ذلك المكان دون ان يجسر على الالتفات فوصل الى

فينيسيا في آخر كانون الثاني وذهب الى أحد فنادق ايدو فطلب زجاجة من الخمر وأقام ينتظر .

وفي الساعة التاسعة جاءه رجل بملابس البحارة فقال له : لقد جئت في الزمن المعين .

قال : نعم وانت هل احضرت المال ؟

فاعطاه سكالابرينو منطقة محشوة بالذهب فلمعت عينا البحار وقال له : حسناً فاتبعني .

فقام سكالابرينو في أثره وقال له : كيف يجب ان تفعل ؟

قال له : تعال معي وسوف ترى :

وقد سار البحار الى منزل وهناك اعطاه ثوبا من ملابس البحارة يوافق جسمه كان قد أعده له خاصة .

فلبسه سكابرينو وقال : متى يركب الجنود الزورق ؟

قال : عند الفجر .

قال : إذن كيف نصنع ؟

قال : لا تهتم بذلك وقل نفس ما اقوله أو لا تقل شيئاًو لآن هلم بنا قبل فوات الأوان .

وبرح الاثنان ذلك المنزل الى الشاطىء فركبا زورقاً وساروا به الى جهة سفن الحكومة .

وبعد ربع ساعة أشار البحار الى سفينة ضخمة وقال له : هـذه هي سفينة الأميرال .

فوضع سكالابرينو يده على كتفه وقال له : اقبل مني هذه النصيحة ايها الصديق وهي انك حين تصعد الى سفينة الأميرال ارجع منها الى البر ولا تعود اليها .

فضحك البحار وقال : اشكرك لهذه النصيحة فقد كنت عازماً على ان انصح بها نفسي وسأعمل بها دون شك لأني اتوقع حدوث ما سيكون .

وكان هذا البحار من جنود سفينة الأميرال فصعد بسكالابرينو وهو متنكر بملابس جنود البحارة الى السفينة وقال الاثنان كلمة المرور فلم يعترضها أحد .

أما سكالابرينو فقد كان خدم مدة طويلة في إحدى السفن الكبرى بحيث كان ابن الصناعة فذهب تواً الى الموقف الذي اختاره كأنه من بحارة تلك السفينة وكان رفيقه يتبعه فقال له وقد خلوا : اتأذن لي ايها الرفيق ان أعلم عما تنويه فهل انت ناقم على زعيم تريد قتله ؟

قال : هو ذاك فاني كنت بحاراً في إحدى بواخر الحكومة وقد عاقبني أحد ضباطها ظلماً عقاباً صارماً إذ جلدني بالسياط فعرفت الآن أنه في هذه السفينة ورأيت أن انتقم منه .

قال : حسناً تفعل ولكنهم إذا علموا بأني أنا الذي جئت بك شنقوني دون شك .

قال : لا تخف مني الافشاء وفوق ذلك فانك غني الآن بما اعطيتك وستهرب .

قال : هو ذاك والآن استودعك الله وأرجو لك التوفيق فان ظلم هؤلاء الرؤساء لم يعد يطاق وعند ذلك تركه وعاد من السفينة الى زورقه فلما توسط البحر رأى سفينة كبيرة سائرة الى سفينة الأميرال .

* * *

أما سكالابرينو فقد أقام وحده يراقب فرأى بعد هنيهة تلك السفينة الكبرى قد التصقت بسفينة الأميرال وصعد منها رجل فقال لأحد الضباط

بلهجة السيادة سر بي إلى غرفة الأميرال فتمعن الضابط بوجهه وعرف انه التياري القائد العام فاسرع الى الامتثال وذهب به الى الأميرال .

وقد خلا الاثنان ساعة وعند الفراق صافحه الأميرال وهو يقول : سأبدأ العمل قريباً .

ولما انصرف التياري جمع الأميرال ضباطه وأخبرهم بما يجب ان يفعلوه فاسرع الضباط الى ايقاظ البحارة واضطربت السفينة بهم فكانت الأوامر تنقل اليهم همساً .

ثم رفعت المراسي ومخرت السفينة العبـاب حتى بلغت إلى الشاطىء في الساعة الرابعة من الصباح دون ان تنتبه السفن الحربية اليها .

وهناك صعدت الجنود اليها ولم ينتهوا من ذلك إلا في الساعة الخامسة .

٧٨

الدوج القديم

لقد تقدم لنا القول ان موكب فوسكاري التقى بجنازة دندولو وان ليونور كانت تسير وراء الجنازة بملابس الحداد .

فبعد ان دفنت الجثة وتفرق الناس عادت ليونور الى قصر زوجها وهي تسمع هتاف الناس لالتياري فيشتد يأسها وتصح عزيمتها على الانتحار .

وهناك خرجت سراً من القصر وذهبت الى بيت الجزيرة فلقيت هناك خادمهم القديم فيليب وقد أسرع اليها وهو فرح بلقائها وقال لها : هذا انت يا سيدتي ؟

قالت : نعم فهل تريد أن تأتني مفتاح غرفتي القديمة ؟

فدهش الخادم العجوز لقولها وقال : أتمنك ؟

قالت : نعم فان المنزل لم يبق لنا كما تعلم .

فاضطرب الشيخ وقال : ولكنك تعلمين يا سيدتي ان المنزل لك مـا زال له .

ثم تركها مسرعاً وعاد بالمفتاح فأخذته ودخلت إلى غرفتها فوقف الشيخ يراقبها وهو يكاد يذوب حناناً عليها وقد رأى في عينيها من دلائل اليأس ما رابه فوقف يتمعن في أمره وهو لا يعلم إذا كان يحق له المداخلة في شأنها.

ولكن قلقه اشتد عليها حتى لم يعد يكترث الواجبات فأسرع راكضاً الى الأرزة الكبرى فأخرج من كهفها والد رولاند وجاء به الى قاعة الطعام فاقامه فيها وصعد الى غرفة ليونور فقرع باب الغرفة وهو يقول : هـــذا أنا يا سيدتي .

ففتحت ليونور الباب ولكنها اسرعت إلى إخفاء زجاجة في صدرهـا وقالت له برفق : ماذا تريد ؟

وكان قد رآها قد خبأت الزجاجة فارتعش وقال لها بصوت يتهدج : ماذا فعلت يا سيدتي ولماذا لبست ملابس العذارى ؟

قالت : أنه خاطر خطر لي فلا تقلق له .

قال : سيدتي لماذا خبأت زجاجة السم في صدرك ؟

فلم تجبه على سؤاله وقالت له أيضاً برفق : ماذا تريد ؟

قال : يوجد رجل في قاعة الطعام يريد أن يكلمك وهو رجـل شيخ نبيل كان يحبك من قبل كابنته .

ـ كأبنته ؟

ـ سيدتي اني في خدمة بيتكم النبيل منذ خمسين عاماً ومن خدم هذا العهد الطويل يستحق المكافأة وكل مـا آمله من المكافأة ان تقابلي هذا الرجل .

وقد بسط يديه شأن المتوسل وقـــد سالت دمعتان من عينيه فتأثرت ليونور لحنوه وقالت له : هلم بنا .

ولا ندري ما كان يرجو الخادم العجوز من هذه المقابلة ولعله رأى من الدوج القديم بارقة صواب فرأى ان يثنيها عن عزمها .

ونزل الاثنان حتى وصلا الى قاعة الطعام فلما رأت ليونور والد رولاند عرفته للفور وقالت : من هذا والد رولاند .. كلا اني لا أريد أن يراني .

ولكنها ذكرت للحال انه أعمى فدنت منه ووقفت أمامه وذكرت أيامها الماضية وما كانت تجده من حنو ذلك الشيخ ثم ذكرت تلك المصيبة الفادحة فجعلت تشهق بالبكاء .

وقد ارتعش الشيخ لبكائها وقال : من هذا الذي يبكي ؟

فركعت ليونور أمامه وأخذت يده بين يديها وقالت له بصوت مختنق : أنها فتاة قانطة منكودة لا تراها ولكنك رأيتها من قبل يا مولاي الدوج ألا تذكر ليونور دندولو يا مولاي وانك كنت ترتعش حنواً حين تقبل جبينها ألا تذكر ما قلته لها يوماً وهو ان هذه الفتاة خلقت لتكون سعيدة إذن فاعلم ان هذه الفتاة الشقية التي تبكي أمامك هي ليونور دندولو .

فقال لها : من هذا الذي يدعوني دوجاً .. أنا دوج .. ما هذا المزاح .

فلم تنتبه ليونور لهذا القول ومضت في حديثها فقالت : ابي انك لا تعلم المصيبة التي نكبتني فانهم إذا أعموا نظرك فقد أعموا نفسي واحرقوا قلبي ومنعوني أن أحب .

انك لا تعلم أي عذاب اقاسيه حين أحبه حبـــاً ليس وراءه حب وهو يحتقرني ولا استطيع ان أبرهن له باني جديرة به وان خطأي الوحيد انما كان لأني أردت أبي . مولاي الدوج اني غير مخطئة وقد عزمت على الموت ولكني قبل أن أموت أحب أظهر له براءتي .

فاصفر وجه الدوج وارتجفت يده وقال : من هـذا الذي يبكي .. من هذا الذي يتكلم بلهجة تقطع القلوب من الاشفاق .

– انها ليونور يا مولاي الدوج .. ليونور التي كنت تدعوهـــا بابنتك ألعلك نسيتها .. أتنساني وأنا أرجو أن تباركني البركة الأخيرة ذلك ان ليونور كانت تجهل انه مجنون فقال : ليونور .. ليونور دندولو نعم أذكر ان هذه الفتاة جميلة عاقلة .. نعم لا بـد أن أكون عرفتها .. أتقولي أن ليونور دندولو أصيبت بنكبة .

فصاحت صيحة يأس وقالت : اقول انها تبكي عند قدميك وأنها عازمة على الانتحار .. اقول ان الأرض والسماء ظالمتان لأنهما يعاقبـان البراءة ولأني أعاقب بذنب سواي .

قال : ليونور دندولو .. اصبري .. ألم تكن تأتي من عهد بعيـد الى قصر كائن على الشاطىء .. نعم قصر جميل كان يأتي اليـــه كثير من النبلاء .

– أنه قصرك يا مولاي .. رباه كيف لا ترسل صواعقك فتنقض على رؤوس اولئك الذين نكبونا بهذا المصاب.

وعند ذلك سمعت صوتاً أجش يقول من ورائها ، لقد فات الأوان ولم يبق سبيل للعقاب .

فالتفتت ليونور منذعرة فرأت التياري ولكنها لم تره بشكله المعروف فقد كان مصفر الوجه ممزق الملابس بارز العينين مضطرب الاعضاء فدنا من ليونور وقال لهـــا : انك تريدين ان تموتي فهلمي ولكنك ستكونين لي قبل الموت .

فتراجعت ليونور منذعرة واصطدمت بالدوج فضمها الى صدره فقالت له : نعم يا أبي أريد ان أموت ولكني لا أحب ان أخجل بموتي معه احمني يا مولاي ودافع عني . الي .. الي انقذوني من انياب هذا الوحش .

٧٩

انتصار فوسكاري

بعد أن مرت جنازة دندولو سار موكب فوسكاري الى رصيف ليدو فكان فوسكاري كل ما تقدم يشتد قلقه وذلك ان الناس كانوا يهتفون له في بدء السير فلما تقدم انقطعت اصواتهم وساد السكون من حوله.

ثم سمع هذا الهتاف قد استبدلفجعل الناس يهتفون للقائد العام ويدعونه منقذ الجمهورية بعد ان كانوا يهتفون لفوسكاري .

فالتفت إلى التياري الذي كان يسير بجانبه وقـــال له : يخال لي انهم يهتفون لك .

قال : ان الشعب يخطىء يا مولاي في بعض الأحيان .

فالتفت عند ذلك إلى جينارو وقال له همساً : ماذا تقول ؟

قال : اني اضمن الفوز الأكيد إذا حافظت للنهاية على السكينة .

— وماذا جرى للفرقتين الخاصتين بالتياري ؟

— انهما في سفينة الأميرال .

— ولكنهما قد تعودان ؟

— ذلك محال فان سفننا محاطة بسفينته .

— انك مسؤول عن ذلك .

— دون شك .

وبعد هنيهة وصل الموكب الى الرصيف فصاح فوسكاري صيحة غضب

ذلك انه رأى سفينة الأميرال ملاصقة للرصيف ورأى الفرقتين واقفـــين بأسلحتهما على البر .

فدنا عند ذلك التياري منه وقال له بلهجة تدل على التهكم والثقـة من الفوز : اننـــا أحببنا يا مولاي ان نوفر عليك مؤونة الذهاب الى سفينة الأميرال فجاءت سفينة الأميرال اليك .

فجرد فوسكاري خنجره وهو يقول : يا للخيانة يا للعار .

بينما كان فوسكاري يسير بموكبه الى رصيف ليدو كان كلما تقدم الموكب الى محطة تحتل عصابة تلك المحطة التي برحها كأنها تحاول أن تقطع عليـه خط الرجعة إلى سراي الدوج .

وكانت هذه العصابات مؤلفـة من رجال لا يعرفونهم في فينيسيا وهم مدرعون بدروع خفية تحت ملابسهم وقد لبسوا في رؤوسهم خوذاً صفراء :

وكانوا مدججين بالسلاح فكان أشد هذه العصابات أقربهـا الى سراي الدوج ولا يتجاوز قدر رجال العصابة خمسين رجلاً ما خلا ثلاثاً كانت تؤلف الواحدة منها من مائة رجل .

وقد أتت فجأة عصابة من ثلاثمائة رجـل وهجمت على سراي الدوج فانتصرت على الجنود التي بقيت لحراستها واستولت على السراي .

وللفور دخل خمسة منهم الى قاعة مجلس العشرة وجلسوا على كراسيه وذهب ثلاثة آخرون الى قاعة الجلسات السرية وقد جرى كل ذلك بسرعة وجرأة نادرتين وذلك لأن هذه العصابات كانت موطدة نفسها على الموت .

ثم ان هذه الخطة كانت قد درست درساً مدققاً فلقيت هـــذا الفوز العجيب وهذه العصابات كانت لرولاند كانديانو .

أما خطته فقد كانت على أتم البساطة وهو أنه يدع فوسكاري والتياري يشتبكان بالقتال في ليدو فيضعفان أو يبيد أحدهما الآخر .

ومتى عاد الغالب منهما الى سراي الدوج يعود ضعيفاً منحط القوى فيهجم عليه رولاند برجاله ويفوز عليه لا محالة مهما بلغت قوته .

وكان رولاند قد جعل يطوف في المدينة يصحبه خمسة من رجاله وقد لبس تلك الملابس التي كان يلبسها في عهد أبيه حين كان دوجاً وقد برز وجهه للناس فعرفته في البدء إحدى النساء فصاحت قائلة أيها الناس هوذا رولاند كانديانو قد عاد اليكم لينقذكم من المظالم .

فلم تكن غير لحظة حتى اجتمع الناس من حوله وجعل يهتفون هتافاً بلـــغ عنان السماء فيقولون ليحيى رولاند كانديانو .. ليحيى رولاند القوي .

وبعد ربع ساعة كان خبر قدومه قد ملأ فينيسيا فازدحمت الجماهير من حوله وكلهم يهتفون له ويدنون منه كأنه ولي من أولياء الله يريدون أن يتبركوا به .

وعند ذلك سمع دوي البنادق من ليدو فان القتال كان قـد نشب بين فوسكاري والتياري ودقت أجراس الكنائس وأسرع نحو مائة رجـل الى رولاند فحملوه ووضعوه في مكان مرتفع فصاحت النساء قائـلة تكلم .. تـكلم وصاح الرجال قائلين انقذنا .. انقذنا .

فأشار بيده إشارة سكت لها الجميع فقال لهم بصوت جهوري: اتريدون الحرية .. أم الاستعباد ؟

فصاحوا قائلين : الحرية الحرية .

قال : أتريدون ان تجعلوني حارساً لحريتكم ؟

فصاحوا قائلين : نعم نعم نريد رولاند القوي .. رولاند دوج الشعب .

فأشار رولاند إشارة مفادها أنه رضي بما يرضاه الشعب .

وكان هذا كل خطابه فيهم فنزل عن ذلك المكان المرتفع وقد عقد اتفاقاً بينه وبين الشعب وزحف الى سراي الدوج .

* * *

والآن فاعلموا ما جرى في سفينة الأميرال ان سكالابرينو حين صعد اليها كان البحارة نياماً ولم يكن ساهراً فيها غير الأميرال وبعض الضباط .

فبعد أن برح التياري السفينة نزل سكالابرينو الى العنبر وهناك أخرج مصباحاً صغيراً من جيبه الكبير فأناره وجعل يبحث في عنبر تلك السفينة المتسع .

وبعد ذلك سمع من فوق رأسه وقع خطوات مستعجلة فصبر وجعـل يصغي وهو آمن مطمئن إذ لا شأن لأحد في العنبر فسمع انهم يرفعون المراسي وسمعوا اصواتاً تقول الى البر .

وكان في هذا العنبر غرفة مقفلة تستعمل مستودعاً للبارود فصبر الى ان سارت السفينة وشغل بحارتها بسيرها فأخرج خنجره وكسر به قفل ذلك الباب ودخل الى الغرفة فرأى نحو خمسين برميلاً من البارود وضع بعضها بجانب بعض ففتح ثقباً بأحد هذه البراميل فتدفق منه البارود .

وعند ذلك أخرج من جيبه فتيلاً خاصاً يبلغ طوله مترين فوضع أحـد طرفيه في ثقب البرميل وأمسك الطرف الآخر وقال في نفسه : اني وعدت رولاند ان لا اقتل نفسي ونار الفتيل لا تصل الى البارود قبل دقيقتين وعند ذلك جلس القرفصاء وأقام ينتظر .

* * *

وكان على هذه الحالة والمصباح بيده معداً لأحراق الفتيل وهو يصغي حتى سمع اصواتاً تقول : الى البر . إلى البر .

فاشعل الفتيل بنور المصباح وصعد الى ظهر السفينة بملء الاطمئنان بينما كان فوسكاري يقول : يا للخيانة يا للعار .

وقد قال فوسكاري هذا القول وجرد خنجره فكان أول ما فعله انـه هجم على جينارو مدير البوليس وطعنه به .

فسقط جينارو على الأرض وهو يقول : لقـــد قتلت دون أن يبدي حراكاً .

ولكن لو دنا أحد منه في تلك الساعة واصغى الى حديثه لسمعه يقول : لقد حسبت ايها الأبله انك قتلتني ولكنني قد نجوت منك بفضل هذا الدرع ولرآه ينظر خلسة الى ما يجري حوله .

أما التياري ورجاله فانهم جردوا خناجرهم حين رأوا مـــا كان من فوسكاري مستنجداً بالنواب قائـلا : الي فانهم يريدون قتل الشريعة وإبادة الحرية .

فأجابه التياري قائلا : بل انهم يريدون قتلك إذا امتنعت عن التسليم .

فنظر فوسكاري الى ما حواليه فرأى ان المؤتمرين قد اشتبكوا بالقتال مع جنود فوسكاري ودوى رصاص البنادق من الجانبين فأشار التياري الى جنـــود الفرقتين الكائنتين في سفينة الأميرال وصاح بهم قائلا : انزلوا الى البر .

فتجمعت الجنود لقوله واندفعوا الى الجسور الخشبية التي وضعت بـين السفينة والشاطىء .

وعند ذلك سمع دوي هائل ارتج له الفضاء وفتحت سفينة الأميرال كما تفتح فوهة البركان وتصاعـد عمود طويل من النار والدخان ثم تساقطت النيران تساقط الامطار وتطايرت بقايا السفينة الى الارض والبحر .

وقد ذعر المتحاربون لهذه الحادثة الهائلة وساد السكوت وتوارت سفينة الأميرال وهرب الفريقان ومعظم المؤتمرين الذين كانوا في السفينة .

وعند ذلك اشرق وجه فوسكاري باشعة الفرح فجرد حسامه واندفـع فاندفع في أثره الجنود والنبلاء الذين كانوا الى الآن في موقف التردد فكانت ساعة هائلة قتل في خلالها نحو مائتي رجل .

ولبث التياري يقاتل مع بعض من رجاله الى ان كسر حسامه فنظر إلى فوسكاري نظرة جنون وقبض على شعره بيده فصاح فوسكاري برجاله قائلاً : اقبضوا عليه .

ولكن التياري وثب من بينهم وهرب قبل أن يظفروا به فقال فوسكاري لرجاله بلهجة المنتصر : هلم بنا الى القصر ودعوا هـــذا الخائن يهرب الى حيث يشاء .

٨٠

جسر التنهدات

وقد التف النواب والنبلاء حول فوسكاري يهتفون له بينما هو يسائل نفسه فيقول : لماذا تدق الاجراس دقات حزن وما هذا الصراخ الذي اسمعه من بعيد ومع ذلك فقد سار برجاله الى السراي .

وكان قد قتل من جنوده في هذه المعركة كثيرين ولكن بقي له قوة لا يستخف بها .

وكانوا كلما تقدموا خطوة اضطروا الى الوقوف لاعتراض العصابات في كل حين .

وبعد ساعة من ذلك السير البطيء وصلوا الى مكان ضيق يتشعب منه طرقات كثيرة فقال أحد أعضاء مجلس العشرة : هلموا بنا نركب الزوارق .

فأجابه فوسكاري قائلاً : كلا فان الشعب يحسب اني خفته .

وعند ذلك هجمت عصابة مؤلفة من خمسة عشر رجلا فأطلقوا بنادقهم على رجال الدوج دفعة واحدة وارتدوا الى جهـــة السراي وهم يصيحون قائلين : الحرية .. الحرية كانديانو انها في يد رولاند كانديانو.

وقد قتل بهذه الطلقات أربعة وجرح ثمانية .

ومع ذلك فان الدوج أمر ان يتقدم الموكب فواصل سيره وكان كل ما تقدم من السراي يشتد هتاف الناس لرولاند ويكثر هجوم العصابات .

حتى ان النساء كن يصرخن من النوافذ قائـــلات : لتحيى الحرية .. ليحيى رولاند .

وكان كثيرون يرمون موكب الدوج بالقذائف من أعلى السطوح .

فاشتد جزع الدوج إذ كان يرى رجاله تتساقط أمامـــه ولا يسمع غير اصوات الهتاف لرولاند فصاح قائلاً : رباه اني لا اسألك غير الحكم على هذه المدينة اسبوعاً واحداً فقط فاجعلها قاعاً صفصفاً واحرقا بأهلها المتمردين .

وصاح النواب قائلين : تباً لكم ايها العبيد الأشقياء .

وصاح الجنود قائلين : الى الموت .. الى الامام .

فكانت اصوات هتاف الشعب تخفت اصواتهم فلا يسمعها أحد.

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا سانت مارك .

ولكنهم لم يبلغوها إلا وقــد تضعضع شملهم وتمزقت ملابسهم وتهشمت اعضاؤهم .

فصاح الدوج بمن بقي من رجاله قائلاً : اسرعوا الى السراي .

وقد قال هذا القول بصوت متلجلج اذ كاد يجن من رعبه .

وعند ذلك التقى بعصابة مؤلفة من ثمانمائة رجل يتقدمهم رولاند وقد بقي حسامه في غمده .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين : الحرية الحرية .

وقد خرجت هـــذه الأصوات من أفواههم كما يخرج الزئير من اشداق ألف أسد .

وصاحت جماهير الناس من حولهم بالهتاف لرولاند صيحات تشبه دوي الرعود القاصفة .

وقد رأى فوسكاري رولاند قادماً اليه كما يرى الموت فسقط حسامه من يده لشدة رعبه .

ورأى الجنود ما كان منه فحسبوا ان ذلك إشارة من حاكمهم الى التسليم فاقتدوا به وسلموا اسلحتهم .

وبعد لحظة التقى رولاند بفوسكاري فقال له نفس اللهجة التي كلمه بها قضى عليه بالسجن منذ تسعة اعوام : فوسكاري اني أعدك عاصياً متمرداً واقبض عليك .

فجرد خنجره وحاول ان يطعن به نفسه : ولكن عشرين رجلاً انقضوا عليه انقضاض العقبان الكاسرة واختطفوا الخنجر من يده .

وبعد هنيهة كانوا يصعدون الى السراي فاخذ فوسكاري تاجه عن رأسه والقى به الى الارض كما فعل والد رولاند في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة .

فاصدر رولاند أمره عند ذلك بالمحافظة على المدينة وجـــاءه النواب وفريق من النبـــلاء فأظهروا خضوعهم وهكذا انتهت تلك الثورة ببضع ساعات كسائر ثورات فينيسيا بـــل كسائر الثورات التي يتداخل فيها الشعب .

* * *

بينما كان رجال رولاند ينفذون أوامره وقد حفظت أوراق الحكومة وفتحت أبواب الابار والسجون فخرج منها السجناء .

وبينما رؤساء الأسطول يتسارعون لمبايعة الدوج الجديد وقـد سادت الأفراح في فينسيا كان رولاند يسير الى جسر التنهدات وقد نزل على ذلك السلم الذي نزل من قبل وهو خافق القلب لتأثره فقد بات دوجـــاً ورأى اعداؤه قد سقطوا من حوله الواحد تلو الآخر وقبض على أشدهم هولاً ولكن كل ذلك لم يخفف شيئاً من شقائه في حب ليونور إذ انه في تلك الساعة لم يفتكر إلا بها .

وقد وصل الى جسر التنهدات تحيط به زعماء عصاباته وكلهم يعرفون تاريخ حياته وما فعل به فوسكاري .

وقد أخذوا معهم فوسكاري فلما وصلوا الى الجسر امر رولاند ان يجلسوا فوسكاري على السرير الحجري الذي جلس عليه من قبله ابوه حين ثملوا عينيه ودنا منه رولاند وقال :

— فوسكاري اننا اتينا بك لمحاكمتك على ذنوبك السابقة وانما نحاكمك على ما اسأت به الى الدوج كانديانو أما ذنبك الي فاني أعفو عنه .

* * *

وليسمح لنا القراء أن نعود الى بيت ارتين الشاعر فقد كان هذا الشجاع أقفل جميع الأبواب ووضع وراءها المتاريس وسد المنافذ فكأن هذه الثورة لم تثر في فينيسيا إلا لأرهابه .

أما هو فقد أقام في غرفة كائنة في وسط المنزل يرتجف من الرعب ولا ولا يتعزى بأحد .

حتى ان نساءه كن قد ذهبن الى النوافذ يتفرجن على تلك المعارك الناشبة غير مكترثات لاعتراضه .

ولم يكن معه غير خادم واحد وهو الخادم الذي جعله رولاند رقيباً عليه في منزله فان جميع الخدم كانوا واقفين عند الأبواب وقد أمرهم أن يدافعوا عن المنزل حتى الموت إلى ان يتسنى له الفرار .

وفيما هو على ذلك قرع باب غرفته قرعاً شديداً فاندلع لسانه من الرعب وجعل يصيح : رحماكم لا تفتكوا بي اني لا دخــــل لي بهذه الثورة قسماً بالعذراء .

وقد فتح الخادم الباب فكان الطارق نساءه فدخلن قائلات لقد تأيـد الفوز لرولاند .

غير أن ارتين لم يسمع كلامهن فأسرع واختبأ تحت السرير وهو يقول بصوت يتلجلج من الخوف : رحماكم لا تقتلوني اني لم اسيء الى أحد .

ولم يستفق من رعبه إلا حين سمع قهقهة الخادمات فنهض وأظهر كل فنون شجاعته بضربهن وشتمهن .

غير ان جاسوس رولاند حال بينه وبينهن وأخرجهن من الغرفة فثاب اليه رشده وأخبره الخادم عند ذلك بما أوتيه رولاند من النصر .

فضرب ارتين جبينه بيده وقال الرسالة .:. رسالة دندولو ... رباه كيف استطيع ايصالها الى رولاند دون أن أخاطر بنفسي .

وبعد التفكير هنيهة قرر انيعهد بايصالها الى ذلك الخادم فكلمه بصوت منخفض وأعطاه اياها فانطلق بها لفوره .

* * *

أما سكالابرينو فانه بعد ان أشعل الفتيل في سفينة الأميرال صعد الى ظهر السفينة فلم ينتبه اليه أحد من البحارة والجنود لانهماكهم في أعمالهم لأنه كان مرتدياً بملابسهوقد رأى الجنود تنزل الى البر فاندفع بينهم وفتح لنفسه سبيلاً بالقوة فوصل الى ساحة القتال ساعة الانفجار .

وهناك رأى ما كان من انخذال التياري وشاهده يركض هارباً فقال في نفسه : إذا نجا منهم فلا ينجو مني واندفع في أثره .

وأما التياري فانه أسرع راكضاً الى قصره ودخل الى غرفة ليونور فلم يجدها فصاح بملء اليأس قائلا : لقد هربت .

ثم ذكر فجأة انه رآها تشيع جنازة ابيها وتراكض الخدم اليه منذعرين لهيئته فقال لهم : اين السيدة ليونور .

فأجابه أحدهم : قائلا انها في بيت الجزيرة .

فخرج راكضاً وبعد هنيهة كان في بيت الجزيرة وقد دخل الى قاعة

الطعام كما تقدم حيث تركناه يحاول أخذ ليونور بالقوة وهي بين ذراعي والد رولاند تصيح وتستغيث .

أما والد رولاند فانه مد يده شأن المتوعد وقال : من هو هذا السفاك الذي يجسر على ارهاب امرأة ؟

فأجابه قائلا : هذا أنا التياري .

— ماذا تريد ؟

— أريد امرأتي .

فانذهل الشيخ وقال بلهجة من يستفيق من نوم طويل ، امرأتك ؟

— ان تلك الصيحات التي كان يسمعها من الخارج وصوت ليونور الشجي وقد ركعت أمامه تروي مصابها وعناية فيليب كل ذلك قد رد صوابه اليه .

فأجابه التياري ، نعم امرأتي واني ... وقبل ان يتم جملته شعر ان يداً قوية قد وضعت على كتفه فالتفت مغضباًفرأى أمامه سكالابرينو فقال له : ماذا تريد مني ؟

قال : أريد أن اقتلك .

وعند ذلك وثب الى الجدار حيث تعلق الاسلحة فانتزع خنجرين فابقى واحداً في يده والقى بالآخر الى التياري .

فالتقط التياري الخنجر واسرع سكالابرينو فوقف بينه وبين ليونور .

أما والد رولاند فانه جلس على كرسيه وحدق بعينيه كأنه يريد ان يرى ما يحدث .

وأما ليونور فانها ركعت وخبأت رأسها بين ركبتي الشيخ كي لا ترى .

وقد جرد التياري الخنجر ونظر الى سكالابرينو فرأى جثته الضخمة ونظراته البراقة الهائلة فحاول ان ينقض عليه .

ولكنه ما لبث ان تراجع عن هذا العزم كأنه علم بأنه قضي عليه القضاء المبرم .

وقد هاله منظر سكالابرينو وكره ان يموت من يده فالتفت الى ليونور وقال لها واليأس ملء قلبه : اني اموت فكوني سعيدة ما زالت سعادتك معقودة بموتي ولكني العنك في ساعة الموت .

ثم نظر الى ما حوله نظرات تـدل على الجنون وطعن نفسه بخنجره طعنة عنيفة .

وبعد هذه الطعنة لبث بضع ثوان ينظر الى ليونور نظرات وحشية ثم هوى الى الأرض صريعاً .

وقد بقيت عيناه مفتوحتان تدلان على الوعيد كأنما عواطف الانتقام بقيت فيه بعد الموت .

وأما سكالابرينو فانه القي خنجره ودنا منها فقال لها : سيدتي لقـد انتهى كل شي وقد نجوت .

فقال له والد رولاند : من أنت ؟

قال : اني صديق مولاي رولاند وصديق السيدة ليونور وصديقك .

— رولاند .. اين هو ولدي ؟

فصاح سكالابرينو بصوت يتهدج من التأثر قائلا : تقول ولدك ... أحق ما اسمع رباه أحق ان الصواب عاد اليك ؟

فسالت دمعتان من عين الشيخ واطرق برأسه فقال : يا ليته لم يعد الي هذا الصواب فقد ذكرت الآن وا أسفاه وبحثت في أعماق نفسي فلم أجـد غير ظلمات اليأس .

ثم قال بصوت خنقته عبرات اليأس : ولدي .. اين هو . فانه لا شك قد قنط في اعماق السجون .. ولدي رولاند اين انت ؟

فبكى سكالابرينو وحاول أن يخبره بكل ما حدث وبانتصار رولاند فحال دون ذلك دخول الخادم العجوز الى تلك القاعـــة مسرعاً يصطحبه جاسوس رولاند في منزل ارتين .

وقد دنا هذا الجاسوس من سكالابرينو وقال له : يجب في الحال ان أرى الرئيس .

— لماذا ؟

— لأعطيه هذه الرسالة .

— هاتها .

فأخذ سكالابرينو تلك الرسالة التي كتبها أرتين الى رولاند باملاء دندونو وقرأها معجباً بسرعة ثم التفت الى الجاسوس والى فيليب وقـال لهما : يجب ان تراقبا هذه السيدة كل المراقبـة وان تمنعاها عن الخروج وان لا تدعاهـا لحظة واحدة .

ثم التفت الى الشيخ فتأبط ذراعه وقال له : أتريد ان تعلم أين هو ولدك؟ أتريد ان تلمسه وتراه بيدك وقبلاتك إذ لا تستطيع ان تراه بعينك ؟ إذن تعال معي .

— ولدي .. ولدي .

— تعال .. تعال .

فقالت ليونور : أبي لا تتركني .

وقال سكالابرينو : تعال وقد نظر الى الرجلين وجدد بنظره وصيته اليهما بشأن ليونور ثم سار بالشيخ .

أما ليونور فانها كانت لا تزال راكعة فأسندت رأسها الى الكرسي وقد وهنت قواها وجعلت تبكي بدموع غزيرة .

وأما فيليب فانه حمل جثة التياري الى الخارج وعـاد الى الإقامة معهـا حسب وصية سكالابرينو .

٨١

عذاب فوسكاري

ولنعد الآن الى جسر التنهدات فقد تركنا فوسكاري هناك مقيداً على ذلك الكرسي الحجري الذي ثملوا عليه عيني والد رولاند وإنما اجلسوه عليه كي يعاقبوه بذلك العقاب نفسه .

على ان كبرياء فوسكاري لم تنحط حتى في هذه الساعة فجعل ينظر الى رولاند نظرات وحشية ملؤها الحقد وقد تمثلت حقيقة نفسه في عينيه إذ لم يبق سبيل للتنكر في هذا الموقف بعد ان سقط من قمة مجده فظهرت نفسه مجردة .

أما رولاند فانه دنا منه وقال له : فوسكاري اني امثل هنا رجلا انتقم منه انتقاماً أشد فظاعة من القتل لتنفيذ اطماعك أي اني هنا ابن كانديانو الذي قبضت عليه وثملت عينيه وقضيت على صوابه فماذا تقول ؟

— أقول انك تحسن عملا بالإنتقام لأبيك .

— فوسكاري اني اكرهك كما يكرهون رجلا يبطش بشيخ لا يستطيع الدفاع وأنا أحب ان اعاقبك بنفس ما عاقبت به أبي .. أنظر إليّ يا فوسكاري ترى ذلك الوجه الذي طالما تمثل لك في ليالي ندمك .. انظر يا فوسكاري فانك بعد هنيهة لا ترى لأنك ستعمى كما عمي أبي وتطوف في الاسواق متسولاً كما طاف أبي .

فارتعش فوسكاري في البدء ارتعاشاً بيّناً ثم تغلب على ضعفه وعادت اليه كبرياؤه فأجاب رولاند بنظرة حقد فاتقدت عينا رولاند وأشار إشارة

فدنا رجل منه لم يلبث فوسكاري ان رآه حتى عرف انـــه الجلاد فقال : الوداع ايها النور الوداع ايتها الحياة .

وعند ذلك سمع صيحة عظيمة عند مدخل الجسر وتباعد الناس الذين كانوا يحيطون برولاند ودخل رجل عجوز يقوده رجل هائل الجثة وهما كانديانو وسكالابرينو فكان كانديانو باسطـاً يديه المرتجفتين وهو يقول بصوت مختنق : ولدي رولاند .. ولدي أين انت ؟

فسالت مدامع الجبلين حنواً وبعـد لحظة كان رولاند بين ذراعي أبيـه وهو سكران بفرح لا تصفه الاقلام وقد نسي كل شيء في تلك اللحظة ولم يخطر له ان يعلم كيف عاد الصواب الى أبيـــه وكذلك أبوه فانه لم يبحث كيف ان ولده بات السيد الحاكم في سراي الدوج .

وعند ذلك شعر رولاند ان يداً تلمس كتفه فالتفت فاذا بأحد الزعماء يقول له مشيراً الى فوسكاري : لا يجب ان نطيل نزعه .

فاضطرب رولاند وأخذ بيد أبيه الى فوسكاري وقال له : هوذا الرجل الذي اعماك .

فقال أبوه بصوت أجش : الرجل الذي اعماني ؟

— نعم يا أبي فاذكر الرجل الذي قبض عليك في تلك الليلة الهائلة .

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قيدك على الكرسي الحجري ؟

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قضى عليك بالظلمة الأبدية .

— فوسكاري ؟

فأطرق فوسكاري عند ذلك برأسه ولم يطق ان يرى .

فقال رولاند : انه هنـــا يا أبي وهو جالس على نفس الكرسي الذي اجلسك عليه فقل يا أبي ماذا يجب ان تصنع به ؟

فبسط الأعمى يديه وقال : أين هو فوسكاري ؟ دعني ألمسه يا ابني .

فأخذ رولاند بيد أبيه ووضعها فوق رأس فوسكاري .

فقال له كانديانو : أأنت الجالس على ذلك الكرسي الذي لا يجلس عليه غير المجرمين ؟

فأجاب فوسكاري بملء الكبرياء : أنا هو الجالس على هذا الكرسي الذي اجلستك عليه من قبل .

فقال رولاند : احكم يا أبي بما تريده من العقاب .

فقال فوسكاري : اني انتظر عقابكم بنفس لا تخاف .

— تكلم يا أبي .

— نعم .. نعم .

ثم ضغط بيديه المرتجفتين على رأس فوسكاري وقال له :

— فوسكاري اني اعفو عنك فاذهب وعش سعيداً واجتهد ان لا يقتلك ضميرك .

وعند ذلك سقطت كبرياء فوسكاري ونكس رأسه الى الارض فبللها بدموعه .

وبينما كان يذهب مطرق الرأس محدوب الظهر كأنه كان يخاف ان يقتله ضميره كما قال له الشيخ كان رولاند راكعاً يقبل يدي أبيه ويقول : انك عظيم يا أبي في أعمالك فقد علمتني اليوم ان اعظم انتقام هو العفو عند المقدرة .

٨٢

عشاق فينيسيا

كانت ليونور راكعة في قـــاعة الطعام حينما برحها كانديانو الشيخ وسكالابرينو .

وكانت تودع نفسها كل شيء في الوجود فتودع الحياة وتلك السماء الزرقاء وذلك الشباب الناضر وهذا المنزل الذي احبت فيه بل كانت تودع الحب نفسه فتتمتم قائلة : الوداع يا رولاند .

وكانت تكرر هذا الاسم كأنها تريد ان تموت وهو بين شفتيها .

وقد تجمع كل الوجود في حبها وتجمع كل حبها في هذا الاسم .

وما اعظم تلك الساعة الرهيبة التي كانت تكلم فيها من تحب من اعماق نفسها وتبسط له براءتها وما لقيت من اليأس ثم تودعه الوداع الأخير .

وقد وقفت عند ذلك فلم ترَ اللذين كانا يراقبانها لانها تجردت عن المادة ولم تعد ترى غير خيـــال رولاند الذي كانت تناجيه فقالت : رولاند اني احببتك .. رولاند .. رولاند اني لا ازال احبـــك .. رولاند .. رولاند استودعك الله فعش سعيداً بعدي .

وعند ذلك مدت يدها الى صدرها وأخرجت منه زجاجة السم ونظرت من النافذة الى الارزة الكبرى فقالت : رولاند .. رولاند .

فأجابها صوت من الحديقة يقول : ليونور .. ليونور .

فتكهرب جسمها وقالت وقد شعرت انهـا باتت في غير هـذا الوجود : رولاند .

فأجابها الصوت عند عتبة الباب قائلا : ليونور .

وقد مرت دقيقة شبه دهر وقف فيها كل من العاشقين تجاه الآخر دون ان يجد كلمة يقولها .

وقد علمت ليونور ان رولاند قد عرف براءتها وعرف رولاند ان ليونور لا تزال تحبه كما يحبها فكان موقفاً هائلا شعر فيه كل منهما ان قلبه يهم بالخروج من صدره وانهما لا يستطيعان احتمال هذا الفرح الهائل .

ثم فتح كل منهما ذراعيه دون ان يريد وسالت المدامع من عيونهما وهكذا جمع العاشقين قلبيهما في قلب واحد ثم افترقا ووقف كل منهما يبتسم الى حبيبه تلك الابتسامة الحلوة التي انستهما مرارة الماضي .

واننا نختم تاريخ هذين العاشقين بتلك الابتسامة ورجاءنا ان لا يكون قد مل القارىء حوادث هذه الرواية وذلك كل ما نتمناه .

* * *

وبعد ذلك بخمسة اشهر احتفلت فينيسيا بزواج رولاند وليونور وقد جملا هذا الزواج في نفس اليوم الذي عقدت فيه خطبتهما القديمة .

وكان في اليوم التالي لانتصاره قد انتخبه الشعب دوجاً لفينيسيا ففعل كل ما يمكن فعله في سبيل إطلاق الحرية للشعب بحيث بات الشعب الفينيسي اسعد الشعوب المنصوفة مدة عامين الى ان تغلب مطامع البعض وفساد اخلاق الآخرين فعاد الشقاء الى تلك المدينة ولكن ذلك خارج عن نطاق حكايتنا فنقصر علي القول ان سكالابرينو أبى كل الإباء ان يخلف التياري في منصبه فاكتفى بأن يكون ملازماً لرولاند ورفيقه في اسفاره .

وأما ارتين فـانه اكتفى بنظم قصيدة في وصف ذلك الانقلاب فاعترف الناس بأنها خير ما جادت به قرائح الشعراء .

وأما جينارو فانه جـــاء الى رولاند بعد سقوط فوسكاري وسأله ان يعود الى منصبه القديم فأجابه قائلا : لم تبق حاجة الى البوليس ولكني اعهد اليك بمهمة افضل من ذلك المنصب وهي ان تبحث وتأتيني كل يوم باسماء الفقراء البائسين ومن أناخ عليهم الدهر فأضاعف راتبك .

فقبل جينارو هذه المهمة وهكذا أنفق رولاند جميع المال الذي تركه له دندولو .

﴿ تمت رواية عشاق فينيسيا ﴾